عجائب وأساطير

د. شوقي ضيف

دار الهلال

عجائب وأساطير

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

مقدمة

هذه طائفة طريفة من العجائب والاساطير ، دونها العرب في العصور الوسطى لغرض اللهو والتسلية وملء أوقات الفارغين نهارا والسامرين ليلا عنيت باستخراجها من بطون الكتب العربية وتصنيفها ، لما وجدت فيها من مادة قصصية خيالية جديرة بأن تكون جماما للقارىء ومتاعا ، فان من كتبوها تحولوا بكثير منها الى حكايات أحسنوا رصفها وسردها • وهي تدل دلالة بينة على أن من ألفوها كانوا بارعين في النسج القصصي ، براعة من زادوا من خواطرهم وأخيلتهم في قصص كتاب الف ليلة وليلة على مر العصور العربية الوسيطة

ومعروف أن هذا الكتاب الاخير تكون حول أصل فارسي استمد من أصول هندية ، وأن قصاص العرب من بغداديين ودمشقيين ومصريين أدخلوا عليه اضافات كثيرة • ولا نرتاب في أن من نهضوا بهذا الصنيع كانوا يستمدون من هذه العجائب والاساطير التي جمعنا أمشاجا وأطرافا منها ، فوشائج القربى وثيقة بينها وبين كثير من قصص ألف ليلة وليلة

واقرأ فى الصحف التالية من هذه المجموعة ، ثم اقرأ فى ألف ليلة وليلة موازنا مقارنا ، فستجد نفسك أمام عجائب وخرافات وأساطير مشتركة ، فهنا وهناك الرخ الذى يطير ببعض الناس من موضع الى موضع ، والافاعى الخيرة والشريرة، والتنين الذى يسقط من السحاب فيحرق كل ما يمر به من سفن أو حيوانات أو يلتهمها التهاما ، والآدميون الذين يطيرون من شجرة الى شجرة وآخرون من نسل قوم عاد ، وجزر القرود ، وكائنات بحرية آدمية أو نصف آدمية ، وأخرى تعظم جثتها حتى تصبح جزيرة قائمة فى عرض البحر ، تنبت عليها الحشائش وترسو المراكب . وفى البحار البعيدة جزر النساء اللائى يعشن فى عزلة عن الرجال ، وبنات الماء ذوات الاجنحة ، وجزر واق الواق وهى أشجار لا تثمر ثمارا ، وانما تثمر آدميات معلقات من شعورهن يصحن على الفروع والاغصان «واق واق ، تبارك الله الخلاق »

وهنا وهناك كثير من الكهانة والعرافة والسحر ، ولا يوجد تمثال فى مدينة ، ولا حفر فى صخور ، ولا نقش فى حجارة ، الا وهو طلسم كبير يصد الاعداء والآفات . وهنا وهناك كثير من الملوك الاسطوريين ، أو من ملوك الفرس الاولين ، أو ممن يفهمون منطق الطير والحيوان

وحدث ولا حرج عن الجن والعفاريت والمردة ، والخضر، والاسم الاعظم، وقماقم سليمان ، والحوت الذى يحمل الارض ومن عليها، والمدن المفقودة ، والاخرى التى بنيت بلبنات الذهب والفضة ، ومدينة النحاس المطلسمة التى تسحر كل من علا سورها ، فيرى من بعيد ضاحكا ، ويهوى فيها ولا يعود أبدا

ولم أقصد بهذه المجموعة من العجائب والاساطير وما ارتبط

بها من أقاصيص غريبة أن أبحث بحثا مقارنا بينها وبين مادة ألف ليلة وليلة ، انما قصدت الى نفس الغاية التى قصد اليها من دونوها ، وهى أن تكون تسلية ومتاعا لقارئها • ومن المحقق أن كثيرا من عناصرها رسب فى حكاياتنا الشعبية المتوارثة ، ومرجع ذلك أنها كانت جزءا لا يتجزأ من تراثنا الادبى ، فظلت الاجيال تتناقلها وتتداولها جيلا بعد جيل

واذا كان قصاصنا فى العصور الوسطى استطاعوا أن يستغلوها فى حكاياتهم ، وفيما أضافوه الى كتاب ألف ليلة وليلة من قصص تقوم على الحوادث والمغامرات الخيالية ، لا على رسم شخصيات نابضة بالحياة محددة المعالم والابعاد واضحة الملامح والقسمات ، فأولى بقصاصنا البارعين فى هذا العصر الذى انبعثنا فيه لاحداث نهضة قومية حقة أن يكون استغلالهم لهذه العناصر وما اجتمع فيها من مواد قصصية أتم تصرفا وأكمل مجتنى وأطيب ثمرة • ولنا مثل فى النهضة الادبية الغربية ، فان الغربيين استعانوا منذ نشأتها بأساطير الاغريق والرومان ، واستوحوها فى آدابهم القومية على اختلافها ، ولا يزالون يستوحونها الى اليوم

وما أشك فى أن هذا العتاد الاسطورى الذى جمعته مما كتبه أسلافنا سيدفع غير قاص بيننا الى الافادة من عناصره الخيالية فى بناء بعض قصصه ، فيتصل شاهدنا بغائبنا وحاضرنا بماضينا ، ومن يدرى لعل من قصاصنا من يبنى منه بناء لا يقل جمالا وروعة عن بناء ألف ليلة وليلة التى طارت شهرتها فى الشرق والغرب • والله ولى الهدى والتوفيق

شوقى ضيف

فی عالم البحر

البحر المحيط

كان العرب يتصورون ـ كما تصور اليـونان ـ أن الارض المعمورة يحيط بها بحر واسع لاحد له وهو يستدير حولها على نحو ما تستدير المياه حول بيضة مغمورة بهـا فى كأس ، ويحيط بالماء محيط الهواء ، وفوقه محيط من النـار ، وكل ذلك تحت التجويف الممدود فى فلك القمر

وهذا المحيط أو البحر الواسع تخرج منه سائر البحار ، وله فى كل جهةمن الارض اسم ،سماه بهاليونانيون والفينيقيون ومن قبلهما ، فهو فى الجهة الغربية يسمى البحر الاخضر وبحرالروم (البحر الابيض المتوسط) ويتصل هذا البحر بالاوقيانوس أو بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) عن طريق أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) . ويسمى المحيط فى الجهة الجنوبية بحر القلزم (البحر الاحمر) وبحر الهند (المحيطين الهندى والهادى) . وتخرج من المحيط خلجان متصلة به ، مثل البحر الاسود ، وكان العرب يظنون أن بحر الخزر (بحر قزوين) متصل به ، وكذلك بحيرة خوارزم (بحر أورال) . وكأنهم لم يتصوروا بحرا ينقطع عن هذا المحيط ، فكل البحار متصلة به وتستمد منه ، فهى جميعها بحر واحد مالح محيط بكرة الارض

وكان العرب ـ كغيرهم من الامم القديمة ـ يعتقدون أن من

توغل فى هذا البحر المحيط غربا فى المحيط الاطلسى ، وجنوبا فى بحر الهند ، دخل فى ظلام شامل ، وألفى نفسه فى دوامات ومهاو لا يستطيع الرجوع منها ، وكانوا يعتقدون أن به قارات وجزائر مجهولة كقارة أطلنطس ، كما كانوا يعتقدون أن به كثيرا من الحيوانات المائية والطيور البحرية العجيبة ، والامم الغريبة التى تشبه الانسان ، وهى وسط بينه وبين أنواع من الحيوان والطير ، فمنها ذوات الاجنحة التى تطير ، ومنها ما لا يتجاوز طوله أربعة أشبار ، ومنها ذوات الخراطيم ، ومنها ما يزحف ، ومنها ما يمشى على رجلين ، ومنها ما يشبه رأسه رأس الكلاب ، ومنها العور ، ومنها ماله آذان كآذان الفيلة

وسنرى كثيرا من أساطيرهم عن البحار ، وليس معنى ذلك أن العرب ومن سبقهم من الامم القديمة وقفوا منها موقف دهشة ولم يتوغلوا فيها ، فقد اقتحموا كثيرا منها اقتحاما ، وكان الفينيقيون من أسبقهم الى ذلك ، فقد تجولت سفنهم فى سواحل أوربا وأفريقا وآسيا ، باحثة عن الذهب والفضة والتوابل والكهرمان وغيره من الحجارة النفيسة ، وتبعهم اليونان يلججون فى البحار ومن جاء بعدهم من الرومان ، وجميعهم كانوا يتحدثون عنها أحاديث تختلط فيها الحقيقة بالاسطورة • وخلفهم العرب ، فخرجوا بسفنهم الى المحيط الاطلسى ، ولكنهم لم يبعدوا فيه ، انما أبعدوا فى المحيطين الهندى والهادى على سواحل آسيا وأفريقا ، ولم يتركوا جزيرة فى المحيط الاول الا زاروها وعرفوها ، ومن هنا وهناك كانوا يجمعون الحقائق ، وينسجون الاساطير ، وقد سجلوا ما شاهدوه وتخيلوه فى كتبهم الجغرافية وفى رحلاتهم ، ولم يلبثوا أن أفردوا للعجائب والغرائب فى الكون كتبا مستقلة

ومن أطرف الاشياء حقا أن نقرأ هذه الكتب ، لا لنفيد منها معرفة بعالم البحر ، فقد كشف عصرنا الحديث هذا العـــالم وما فيه من جوانب وقرارات وتيارات وأســماك وحيوانات وثروات ، وانما لنفيد منها اللذة الفنية الخالصة التى نفيــدها من الاساطير والاقاصيص الخيالية ، تلك التى تصور لنا نحوامن أنحاء الحياة الانسانية

□

وطبيعى أن تكثر الاقاصيص والاساطير عن البحر عند العرب وغيرهم ممن سبقوهم ، وهم يضربون على لججه ، وهو يمتــد أمامهم امتدادا تحيطه الظلمات من كل جانب ، ونجوم تظهــر لهم فى بعض الليالى وتختفى فى أخرى ، وسحب تملأ السماء وأخرى تقترب أو تبتعد ، وأحياء مائية لا تحصى تتراءى لهــم والتيارات والعواصف تتجاذبهم ، وهم فى يد القــدر اما أن يصلوا الى غايتهم أو يبتلعهم البحر ابتلاعا . وكم من ســفن ابتلعها ، وكم من ملاحين لم يعودوا منه . ان الخيال لابد أن يلعب بعقولهم ، ولابد أن يدفعهم دفعا الى تصورات غريبة ينسجون منها خرافات وأساطير ،كانت يوما معتقدات لشعوب وأمــم

ومن غير شك عرف العرب كثيرا من جوانب البحار والمحيطات معرفة حقيقية ، بل من المحقق أنهم عرفوا اتصــال المحيطـين الاطلسى والهندى ، ولذلك لانعجب اذا عرفنا أن فاســكو دى جاما البرتغالى المشهور لم يصل الى الهند عن طـــريق رأس الرجاء الصالح الا بواسطة دليله العربى « ابن‌ماجد » الذى قاده أوقاد بعثته من البرتغاليين الى الهند ، غير مدرك خطورة عمله وأنه يجنى به على الملاحة العربية فى المحيط الهندى جناية آثمة

بما أوجد لها من منافسين برتغاليين وغير برتغاليين ممن تبعهم من الاوربيين والانجليز المستعمرين الغاشمين

وقد وصفت الكتب الجغرافية العربية كثيرا من البحار المحيطة بالعرب فى العصر الوسيط وصفا دقيقا ، غير أنا لسنا بصدد البحث العلمي فى تصورات العرب عن عالم البحر ، وانما نحن بصدد الوصف الاسطورى ، ولندع ابن الوردى المتوفى فى القرن الثامن الهجرى يعرفنا بالبحر المحيط فى كتابه « خريدة العجائب » يقول :

« المحيط هو البحر الاعظم الذى منه مادة سائر البحار المتصلة والمنقطعة ، وهو بحر لا يعرف له ساحل ولا يعلم عمقه وفى هذا البحر عرش ابليس ، لعنه الله ، وفيه مدائن تطفو على وجه الماء وفيها أهلها من الجن فى مقابلة الربع الخراب من الارض ، وفيه حصون ، وفيه قصور على وجه الماء طافية ، ثم تغيب ، وتظهر فيه الصور العجيبة والاشكال الغريبة ثم تغيب فى الماء ٠ وفيه الاصنام التى وضعها أبرهة تبع الحميرى قائمة على وجه البحر ، وهى ثلاثة أصنام ، أحدها أخضر ، وهو يومىء بيده كأنه يخاطب من ركب البحر يأمره بالرجوع ٠ والصنم الثانى أحمر يشير الى نفسه ، كأنه يخاطب من ركب هذا البحر أن يقف عنده ولا يجاوزه ٠ والصنم الثالث أبيض يومىء بأصبعه الى البحر كأنه يقول : من جاء وجاوز هذا المكان هلك ، وعلى صدر كل صنم مكتوب بالاسود : هذا ما وضعه أبرهة تبع الحميرى لسيدته الشمس تقربا اليها ٠ وفى هذا البحر ينبت شجر المرجان كسائر الاشجار فى الارض »

ويزعم ابن وصيف شاه المتوفى فى القرن التاسع الهجرى أن البحر المحيط يشتمل على سبع وعشرين ألف جزيرة ، وأن الله خلق ألفا وعشرين أمة بعدد الكواكب الثابتة ، يسكن منها

فى جزائر البحر ستمائة وفوق الارض أربعمائة وعشرون ،وفى شرقى العالم جنس يجمع بين الوحش والانسان فى صورته فرأسه رأس أسد وآذانه طويلة ، وجسمه جسم انسان ، غير أن له ذيلا ومخالب فى موضع الايدى والأرجـــل ، وأقرب المخلوقات الى الانسان من كل هذه الاجناس جنس الوقواق ، وهن نساء ، علقن بشعورهن فى أشجار ، وهن يصحن : واق واق ، واذا سقطن من أشجارهن فارقتهن أرواحهن

□

ويروى القزوينى المتوفى فى القرن السابع الهجرى حكاية عجيبة ، اذ يقول : « أن ذا القرنين أراد أن يعرف ساحـــل المحيط الاقصى فبعث مركبا ، وحمله الماء والزاد ، وأمـــره أن يسير سنة كاملة فى اتجاه واحد ، لعـــله يأتى بشىء من خبره ، فسار المركب سنة ، ولم ير شيئا الا سطح الماء ، وما يخرج منه من دواب كبـــار ، فأراد الرجـــوع ، فقـــال بعض من فيه : نسير شهرا آخر ، لعلنا نطلع على شىء ، نبيض به وجوهنا عند الملك ونحتمل ضيق الماء والزاد فى الرجـــوع ، فساروا شهرا آخر ، فاذا هم بمركب فيه ناس فالتقى المركبان ولم يعرف أحدهما كلام الآخر ، فدفع قوم ذى القرنين اليهـم رجلا ، وأخذوا منهم امرأة ، ورجعوا بها ، فزوجوها من رجـل فى المركب معهم ،فأتى منها بولد ، ففهم كلام الابوين ،فقيـل له سل أمك من أين جاءت ؟ فقالت : جئت من ذلك الجانب وأشارت الى جهة مجيئها ، فقال لها ابنها : لأى شىء جئت ؟ فقالت : بعثنا ملكنا لنعرف حال هذا الجانب ، فقـــالوا له : سلها : هل هناك ممالك وملوك ؟ فسألها ، فقالت : نعم لنا ملك أعظم من ملككم ، ومملكته أعرض من مملكتكم وأوسع ،

وما كنا نعلم أن هاهنا الا المـــاء »

وليس البحر المحيط وحده الذى تروى عنه الاساطير ، فلكل بحر أساطيره ، وهى تتداخل فى كل ما تحت أيدينا من اخبار عن البحار ، منذ كتب التاجر سليمان سنة ٢٣٧ للهجرة وصف رحلته من البصرة على خليج العرب الى الصين ، واجتيازه للبحار السبعة التى كانت تجتازها السفن الى هذه الجهة النائيــة • وتبعه ابن وهب الذى قام برحلة مماثلة لرحلته سنة ٢٥٦ للهجرة ، فأضاف الى أخباره أخبارا ، وقص أقاصيص عجيبة • وكثرت الرحلات ، وكثرت الاقاصيص والاعاجيب ، لا عن بحر الهند وما يجرى فيه من سبعة أبحر ، بل عن جميع البحـــار ، ولكن بحر الهند أو بحاره هى التى ظفرت بأكثر الاقاصـــيص والاساطير ، لكثرة ما لججوا فيها طلبا للتوابل والاحجارالنفيسة وقد ظلت طوال العصور الوسطى زاخرة بالظلمات والطلاسم والاسرار مليئة بالغرائب والعجائب والخرافات • ولذلك لم يكن غريبا أن تكون مسرح قصة السندباد البحرى المشهورة فى ألف ليلة وليلة ، وهى نفسها المسرح الكبير لاساطير الرحالة والبحارة من العرب وما شاهدوه فى البحار من خوارق وعجائب ، ومـــا قصوا عنها من حكايات وأقاصيص ، تعتمد على الاسطورة أكثر مما تعتمد على الحقيقة

بحر الهند

أكثر العرب من تجوالهم فى بحر الهند ، أو كما نسميه الآن المحيط الهندى ، وما يتصل به من المحيط الهادى الى الصين فقد كانت سفنهم تمخر عبابه ذاهبة آيبة من عمان والبصرة وعدن الى بربرا (الصومال) وسقطرى ومدغشقر ، وسفالة (موزمبيق) غربا ، والى سيلان والهند ومالقة والزابج (جزر الهند الشرقية) وسيام ، والهند الصينية ، والصين واليابان شرقا . وكادوا لا يتركون جزيرة فى مياه هذا البحر الا زاروها وحملوا كنوزها من الذهب والفضة والياقوت والماس واللؤلؤ والزمرد وغير ذلك من الحجارة الكريمة ، كما حملوا ما فيها من ثروات معدنية ، ومن مسك وعود وجلود وصندل وكافور وفلفل وقرنفل وجوز هند (نارجيل) وساج وعاج ورصاص وعنبر ومنسوجات حريرية أو قطنية . وكم رأى ملاحوهم الموت بأعينهم سواء على لجج المحيطين الهندى والهادى أو فوق جزرهما وبين سكانهما ، ولكن ذلك لم يفت فى عضدهم فقد كانت تبدولهم هذه البقاع النائية كأنها الفردوس المفقود ، وكانوا لا يزالون كلما خرجوا منها عادوا اليها أشد شوقا ولهفة

وكانوا يسمون أجزاء هذا البحر الكبير بأسماء مختلفة ، فهو فى الغرب يسمى بحر الزنج حيث يصافح أفريقا الشرقية وهوفى جنوبى بلاد العرب يسمى باسمهم، اما جنوبى ايران فاسمه

بحر فارس ، ومنه خليج العرب وخليج عمان ، ونخرج من بحر فارس الى بحر لاروى ، وهو يواجه شاطىء السند ويمـــتد الى الشرق محاذيا لشبه جزيرة الهند ، وتقع عليه مدينة قاليقوط وكولم ملى ، وهى آخر ثغور شاطىء الملبار ، ويتصل بهذا البحر شمالى جزيرة سرنديب بحر هركند أو خليج بنغالة ، ويمتد شرقا الى جزائر أندمان ولنجبالوس ، ويتصل ببحر كلاه وبحر شلاهط ، حيث جزيرة الرامنى (ســــومطرة) والزابج أو جــزائر الهنــد الشرقية ، وشــبه جــزيرة مالقـــا ، وقد سمى بوغازهاباسم بحر كلاه ،ويختلط اسمه هنا باسم بحر شلاهط ، ونخرج منهما الى بحر كندرنج (خليج سيام) الذى يمتد على شواطىء قمار ، ويتصل به مباشرة بحر الصـــنف (الهند الصينية)ومنه الى بحر صنخى أو بحر الصين حيث توجد خانفو (كانتون) ، وهى سوق عظيمة للتجارة مع العرب ، وفى شماليها سيلا (كوريا) وفى الشرق جزائر واق الواق(اليابان) وتضطرب هذه الاسماء التى أطلقوها على أجزاء هذا البحر ، كما تضطرب معها أسماء الإقاليم والجزر ، وهى فى كثير من الاحيان تخالف أسماءنا الحديثة ، فكانوا يطلقون مثلا على جزر الهند الشرقية اسم بلاد الزابج أو بلاد المهاراج ، وكانوا يسمون جاوة صندابورة ومدغشقر قنبلة ، وهكذا

▱

وكان ملاحو العرب وتجـــارهم يجوســـون خـــلال هذه الاقاليم والجزر ويلججون فى مياهها باحثين عمـــا فيها من كنوز لا تحصى ، على رأسها التـــوابل والعطـــور والحجارة النفيسة . وقد شغلت هذه الكنوز العالم القـــديم منذ عصور الفراعنة والفينيقيين والاغريق والرومان ، كمـــا

شغلت المسلمين فى العصور الوسطى ، وأوربا فى العصر الحديث، وهى التى دفعت البرتغاليين وغيرهم من الاوربيين لكشف البحار والمحيطات ، فقد اندفعوا يبحثون عن طرق جديدة ، غير طريق مصر والشام تصلهم بالهند ومحيطها الزاخر بالثروات ، فكشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، ولم يلبث كولومبوس أن قام بمغامراته نحو الغرب بحثا عن طريق آخر ، فاكتشف أمريكا وتبعه المكتشفون يزيحون سجف الظلمة عن البحار والمحيطات والقارات الجديدة

وقبل هذه الاكتشافات كان العرب هم الذين يحملون هذه الكنوز الى العالم ، ومن قبلهم أسهمت أمم مختلفة فى حملها • وبمجرد أن أصبح لهم ملك غربى آسيا وأفريقا ، أصبحوا هم سادة هذا البحر الكبير ، بحر الهند وجزره وأقاليمه • فكانت تسيل هذه الكنوز الى حجورهم ، وينبغى أن نعرف أن قيمتها لم تكن مادية فحسب ، فقد كان لها قيمة روحية وعقلية ، اذ طالما نسجت الاساطير حول كثير منها ، مشيرة الى فائدتها فى العلاج وفى حفظ الانسان من الآفات والشرور حتى التوابل فانها لاتفيد من حيث طهى الطعام فحسب ، بل تفيد أيضا فى العلاج من الامراض ، ومثلها العطور وأنواع الافاويه والحجارة الكريمة ، بل أن منها ما اذا تحلى به الشخص زادعقله وقضيت حوائجه عند الحكام والسلاطين وتبعه الناس ولم يغلبه أحد فى الخصومة • ولا نستطيع أن نفهم ذلك حق الفهم الا اذا رجعنا الى كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » للقزوينى ، وهو دائرة معارف ، تصور فى دقة قيمة التوابل والعطور والحجارة الكريمة ، ومدى ما كان الناس يعتقدون فيها لعصره ، ولنستعرض بعض ما كتبه عنها

يقول عن الفلفل : « شجرة تنبت بالهند بناحية منها تسمى ملبار ، وهى شجرة عالية لايزول الماء من تحتهـا ، فاذا هبت الريح تساقط حملها على الماء ، ويجمع من فوقه • وحملها عليها أبدا شتاء وصيفا ، وهو عناقيد ، فاذا حميت الشمس عليهـا انطبقت على كل عنقود منها عدة أوراق لئلا يحترق بالشمس فاذا زالت الشمس زالت الاوراق عنها ، لتنال من النسيم • وشجرته تشبه الرمان ، وبين الورقتين منها شـمراخان منظومان بالفلفل ، وشمراخها فى طول الاصبع ، وأول ما تطلع ثمرتها تسمى دار فلفل ، ثم تنفصل عن حب ، يكون هو الفلفل ثمرتها • أما الدار فلفل فينفع فى نهش الهوام أكلا ، وطـلاء بالدهن ، ويقوى ويفيد فى الغثاء (خبث المعدة) مع كبدالماعز شيا • وأما الفلفل فهو بالنطرون جـلاء للبهق ، وهو يدر البول ، وينفعفى ظلمة البصر »

ويقـول عن النارجيل (جوز الهنـد) : « هو الجـوز الهنـدى ، لبنه حـلو لذيـذ ان كان رطبـا ، وأن كان يابسا عتيقا ينقى البدن من حب القراع ، وأكله يقوى ، ودهنه نافع للبواسير خصوصا اذا كان عتيقا »

ويقول عنالياقوت : «حجر صلب ،شديد اليبسصافشفاف مختلف الالوان : أحمر وأصفر وأخضر وأزرق ، والاحمـر أشرفها وأنفسها ، ومن علق شيئا من الثلاثة الاولى وكان فىبلدء طاعون سلّم منه ومن تختم به نبل فى أعين الناس ، وسهلت عليه أمور المعاش »

ويقول عن الماس مازجا الحقيقة بالاسطورة : « حجر يقرب لونه من لون النشـادر الصـافى لا يلصـق به

شيء من الاحجـــــار الا هشـــــمه وكسره ، ولو جعلتـــه ألف قطعة كانت جميع قطعه مثلثة ، وكلما كان حجمـــــه أكبر كان أقوى فعلا ، والصناع يجعلون قطعه فى طرف المثقب ويثقبون بها الاحجار الصلبة . والموضع الذى فيهحجر الماس لم يصل اليه أحد من الناس الا الاسكندر ، وهو واد متصــــل بأرض الهند ، لا يدرك البصر أسفله ، وفيه من صنوف الافاعى مالم ير أحد مثلها . وهذه الافاعى مارآها أحد الا مات ،فأمر الاسكندر باتخاذ مرايا مثبتة على حديد تراها فى طريقها ، فلما قبلت ووقع نظرها على صورتها فيها ماتت لساعتها . وأراد أن يخرج الماس من ذلك الوادى ، فخاف الناس ولم يقدم أحد على النزول فيه ، فراجع حكماء الهند ، فأشاروا عليه أن يلقى قطع اللحم بالوادى ففعل ، فالتصق بها الماس ، فجاءت الطير من الجو فأخذت من ذلك اللحم وأخرجته من الوادى ، فأمر الاسكندر أصحابه باتباعها والتقاط ما تناثر من اللحم . وهكذا يفعلون فى سرنديب فى اخراج الماس من وادى الحيات المشهور بهـــا فيرمون به اللحم وتسقط عليه النسور ، فيلتصق بما تأخذه منه مقدار العدسة والحمصة . والاشراف والسلاطين يتخذون منه الفصوص ، وهو نافع من المغص وفساد المعدة ، وهو سم قاتل جدا »

وانما نقلنا ذلك عن القزوينى ، لنــــدل على قيمـة التوابل والاحجار النفيسة عند الناس فى تلك العصور ، وهى قيمـــة كانت ترفع من أثمانها وتدفع التجار ومن ورائهم الملاحـــون الى المغامرة فى سبيلها ، حتى يحصلوا على هذه الكنوز والتحف الثمينة

بين الحقيقة والخيال

لا يكاد يخلو كتاب يصف بحر الهند وغيره من البحار ، من سرد العجائب والأساطير فى ثنايا وصفه ، نجد ذلك فى رحلتى سليمان وابن وهب اللتين احتفظ بهما أبو زيد السيرافى ، فى كتاب طبع له بباريس فى القرن الماضى ، بعنوان « سلسلة التواريخ » . وبمجرد أن نقرأ فى رحلة سليمان التى قام بها من البصرة الى الصين فى سنة ٢٣٧ للهجرة نجده يفسح للخيال فيما يكتب ويصف ، ففى بحر لاروى سمك البال (الحوت) الذى ينفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة ، وفيه سمكة يحكى وجهها وجه الانسان تطير فوق الماء . أما بحر هركند ففيه سرنديب ، وبأرضها جبل يدعى الرهون ، هبط عليه آدم عليه السلام ، وقدمه ظاهرة برأس هذا الجبل منغمسة فى الحجر ، وهى قدم واحدة ، ويقال أنه خطا بقدمه الثانية خطوة أخرى فى البحر . وهذه القدم التى على رأس الجبل تبلغ نحو سبعين ذراعا ! . وفى هذا البحر جزائر كثيرة بها أقوام يأكلون الناس ! وتعظم أمواجه ، وتتقد كأنها النار

ولايتحدث سليمان عن البحر وعجائبه وغرائب جزره فحسب ، بل يتحدث أيضا عن الهند والصين . ويصنع صنيعه ابن وهب الذى رحل بعده بقليل الى الصين . وكأنما وضع هذان الرجلان أساس الكتابة عن بحر الهند وسواحله فقد خلفهما الجغرافيون والمؤرخون والرحالة والملاحون يضيفون

الى أخبارهما واساطيرهما أخبارا وأساطير جديدة • وأقرا فى المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ومختصر البلدان لابن الفقيه ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، وغير ذلك من كتب الجغرافيا مثل نزهة المشتاق للادريسى ، وفى كتابات التاريخ عند المسعودى وفى كتب الرحلات المختلفة وخاصة عند ابن بطوطة ، فستجد سيولا من الخرافة والاسطورة ، وهى سيول يتخللها كثير من الحقائق ، وكأنما كان القوم يجدون فيها ما يشوق الناس الى قراءة كتبهم ، فتوسعوا فيها ، وجمعوا كثيراً من غرائبها

ولا نلبث أن نراهم يفردون لتلك الغرائب والعجائب كتبا خاصة ككتاب القزوينى « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وله موسوعة أخرى سماها « آثار البلاد وأخبار العباد » وهى تشتمل مثل موسوعته الاولى على كثير من أعاجيب الكائنات والموجودات . وليس القزوينى وحده الذى انفرد بالكتابة فى ذلك ، فقد كتب كثيرون ، منهم الدمشقى فى كتابه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » وابن الوردى فى كتابه « خريدة العجائب وفريدة الرغائب » • وتجمع هذه الكتب كل ما جاء فى كتابات الرحالة والجغرافيين وما سمع على ألسنة البحريين ، وتضيف اليه كثيرا من الحكايات الشعبية وتسوق ذلك كله ليتسلى به الناس ، فهى كتب للتسلية والترفيه ، وهى ليست أساطير خالصة ، بل تمزج الاساطير بالحقائق •وبذلك كانت قراءتها من اكبر المتع فى أوساطنا الشعبية السابقة ، وسنسوق منها أطرافا . فمن ذلك ماجاء فى القزوينى عن جزيرة سرنديب فى تضاعيف كلام طويل ، يقول :

« جزيرة فى بحر الهند •• بها أنواع العطر والافاويه والعود والنارجيل (جوز الهند) ودابة المسك وأنواع اليواقيت والذهب

والفضة واللؤلؤ ، وبها جبل اهبط عليه ابونا آدم ، وبها كباش لها عشرة قرون ! وبها جبال عليها الياقوت وهو ينحدر مع السيل ! »

ويتسع ابن الوردى فى ذكر أعاجيب الجزر ، بأكثر مما يتسع القزوينى ، فمن ذلك وصفه لجزر الزابج وهو يطرد على هذا النحو :

« جزر الزابج (جزر الهند الشرقية) تشتمل على جزائر كثيرة ، وهى عامرة خصبة ، وليس فيها خراب ، والناس يسافرون فيها بلا ماء ولا زاد لكثرة الخصب والعمارة . وملك هذه الجزر يسمى المهراج • وجبايته كل يوم ثلثمائة «من»ذهبا خالصا (والمن ستمائة درهم)، ويطرحها فىالبحر وهو خزانته! • وبهذه الجزر سكان تشبه الآدميين ! ، ولهم كلام لا يفهم ، وعندهم أشجار كبيرة وهم يطيرون من شجرة الى شجرة ! وبها نوع من السنانير الوحشية حمراء منقطة ببياض ، اذنابها كأذناب الظباء . وبها ايضا نوع من السنانير المذكورة ، لها أجنحة كأجنحة الخفاش ، وبها ابقار وحشية حمراء منقطة ببياض ايضا ولحومها حامضة . وبها دابة الزناد وهى كالهرة ، وفأرة المسك ، وبها جبل يقال له النصان مشهور ، به حيات عظام تبتلع الفيلة ! • وبه قردة كأمثال الجواميس والكباش الكبار . وبها من الببغاء شىء كثير . وبها خلق على صورة الانسان (لعله يقصد الغوريلا) يأكلون ويشربون ويتكلمون بكلام لا يفهم ، ولهم أجنحة يطيرون بها وحكى ابن السيرافى ، قال : كنت ببعض بلاد الزابج فرأيت وردا كثيرا أحمر وأبيض وازرق واصفر والوانا شتى ، فأخذت ملاءة وجعلت فيها شيئا من ذلك الورد فلما اردت حملها رأيت

قلوا فى الملاءة ، فأحرقت جميع ماكان فيها من الورد ، ولم تحترق الملاءة ! فسالت الناس عن ذلك ، فقالوا ان فى هـذا الورد منافع كثيرة ، ولا يمكن اخراجه من هذه الغياض بوجه ابدا • وفى الجزر شجر الكافور ، وهو شجر عظيم هائل • وفى هذه الجزر قوم يعرفون بالمخرمين ، مخرمة آنوفهم وفيهـا حلق ، يأكلون كل من وقعت اعينهم عليه ! وجزيرة رامنى (سومطره) عظيمة طويلة وبها عجائب كثيرة ، منهـا أناس حفاة عراة ، رجال ونساء ، على أبدانهم شـعور تغـطى سـوآتهم ، ومآكلهم من الثمـار ، ويستوحشـون من الناس ، وينفرون منهم الى الفياض ، وطول احدهم أربعـة أشبار ، وشعرهم زغب بحمرة ، وهم لا يلحقون لسرعة جريهم ، وبساحل هذه الجزيرة قوم يلحقون المراكب فى البحر سباحة وهى تجرى فى تيارها ، فيبيعونهم العنبر بالحديد ، ويحملون الحديد فى افواههـم ، ويرجعون الى الجـزيرة ولا ندرى ما يصنعون به • وحكى الجيهانى ان بهذه الجزيرة الكركدن ، وهو حيوان على شكل البقر ، الا ان على راسه قرنا واحـدا معقوفا ، وفيه منافع كثيرة ، منهـا أنه يصنع منه انصـبة لسكاكين الملوك ، وتوضع على المائدة ، فان كان الطعام مسموما عرق النصاب واختلج ! ويصنع منه حلية للمناطق ، وتبلغ قيمة المنطقة المحلاة بقرن الكركدن أربعة آلاف مثقـال من الذهب ، واكثر هذه المناطق تصنع ببلاد الصين . وبهـذه الجزيرة جواميس بغير اذناب . وبها شجر الكافور والبقم ، والخيزران ، وعرقه دواء من سم الحيات والافاعى . وبهـا طيب عطر ومعادن كثيرة »

هذه صورة جزر الهند الشرقية فى كتاب خريدة العجائب

لابن الوردى ، وهى صورة تعتمد على وصف بعض الحقائق ، وخاصة فيما يتصل بكنوز تلك الجزر من التوابل والحجارة النفيسة ، ولكنها لا تلبث أن تمتزج بها خطوط مختلفة من الخرافة ، فهناك اناس يطيرون من شجرة الى شجرة ، وسنانير لها اجنحة كأجنحة الخفاش ، وحيات عظام تبتلع الفيلة ، وقردة كأمثال الجواميس ، وورد يحترق بمجرد حمله ، وأناس طول أحدهم اربعة اشبار ، الى غير ذلك من عجائب تغلب عليها الخرافة ، وهى عجائب اقحمت على هذه الكتب ، بعضها مما رواه المخرفون من البحارة ، وبعضها مما زاده المؤلفون الذين أرادوا اجتذاب العامة لقراءة مؤلفاتهم

وليست كتب العجائب كلها بهذه الصورة الخرافية التى رايناها عند ابن الوردى ، فكتب القزوينى وكتابات الدمشقى فى « نخبة الدهر » تتوخى الواقع ، ومع ذلك ففيها كثير من الخرافة ، وربما كان الدمشقى أكثر مؤلفى كتب العجائب تحريا للصدق والدقة ، اذ كان له عقل عالم ، ويقف القزوينى بينه وبين ابن الوردى ، فهو يتوخى الحقائق ، وان كان ذلك لا يمنع ان يمزجها فى اكثر الاحيان بالمبالغة بل بالخرافة

واذا كنا وجدنا أصحاب كتب العجائب يبالغون أو يهرفون فيما يروونه عن الجزر الحقيقية التى نعرفها اليوم ، فانهم ساقوا بجانبها جزرا وهمية ، ولعل بعضها جزر حقيقية لم يلاحظوا أو لم يلاحظ اللاحون الحياة فيها ملاحظة دقيقة ، وتكثر الاخبار عن هذه الجزر وتخرج الى ضروب من الخيالات المسرفة ، حتى تصبح نوعا من نسج الاساطير ، كأن يزعموا أن ببحر الهند جزيرة تسمى الجزيرة المحترقة لان كل ما عليها من الكائنات والموجودات يحترق مرة كل ثلاثين سنة ، وبه أيضا

جزيرة تسمى جزيرة العوز ،كل أهلها بهم هذه الآفة ، وجـزيرة سكسار ، وهى لقوم لا عظام لارجلهم ولا سيقان ، وجـزيرة الدهلان وهو شيطان فى صورة انسان ، راكب على طير يشبه النعامة ، ياكل لحوم البشر ، وجزيرة الصريف وهى جزيرة تلوح لاصحاب المراكب ، فيطلبونها وكلما قربوا منها تباعدت، وجزيرة الفندج ، وهى جزيرة بها صنم من رخام اخضر ودموعه تسيل على مر الليالى والايام ، ويقال انه يبكى على قوم كانوا يعبدونه من دون الله ! وجزيرة سرندوسة ، وهى جزيرة كبيرة جـدا وعند أهلها من الذهب قناطير مقنطرة ، وكل مواعينهم وأوانيهم وقدورهم من الذهب . ومن هذه الجزر الخيالية جزيرة النساء، وفيها يقول القزوينى : « هى جزيرة فى بحر الصين ، فيهـا نساء لا رجال معهن اصلا ، وهن يلقحن من الريح ولا يلدن الا اناثى مثلهن ، وقيل انهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن ، ياكلن منها ، فيحملن ويلدن »

▱

ويظهر ان بعض ملاحى العرب نزلوا اليابان ، وهم يسمونها جزر واق الواق ، وما قصوه عنها يدل على أنهم لم يعرفوها معرفة صحيحة ، اذ يغلب على ماحكوه الاسطورة والخرافة ، بل انه ليتحول الى خرافة خالصة ، واقرا ما يقوله القزوينى عنها :

« جزر واق الواق فى بحر الصين وتتصل بجزائر الزابج (جزر الهند الشرقية) والمسير اليها بالنجوم ، قالوا انهـا الف وستمائة جزيرة . وانما سميت بهذا الاسم لان بها شجرة لها ثمار على صور النساء ، معلقات بشعورهن ، فاذا نضجن يسمع منهن صوت واق واق . وهى بلاد كثيرة الذهب ، يتخذون

سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب ويلبسون القمصان المنسوجة بالذهب . وتملكهم امرأة ، حدث من رآها على سرير عريانة وعلى رأسها تاج ، وعندها أربعة آلاف وصيفة عراة أبكارا »

ويزيد ابن الوردى فى الاسطورة خيوطا فيقول :

« جزائر واق الواق ألف وسبعمائة جزيرة ، وملكتهم تسمى دمهرة ، حدث من رآها عريانة على سرير من الذهب وفوق رأسها تاج من الذهب ، وبين يديها اربعة آلاف وصيفة ابكارا حسانا على مذهب المجوس ، وهن عاريات ، وفى راس كل واحدة منهن مشط من عاج مكلل بالصدف ، وهن يختلفن فى اتخاذ الامشاط ، منهن من تتخذ اثنين وثلاثة واربعة الى عشرين .. وبهذه الجزيرة شجر يحمل ثمرا كالنساء ، بصور واجسام وعيون وايد وأرجل وشعور وأثداء ، وهن حسان الوجوه معلقات بشعورهن ، يخرجن من غلف كالجوارب الكبار ، فاذا أحسسن بالهواء والشمس يصحن : واق واق ، حتى تنقطع شعورهن ، فاذا انقطعت متن . ومن تجاوز هؤلاء وقع على نساء يخرجن من الاشجار اعظم منهن قدودا واطول منهن شعورا واكمل محاسن ، ولهن رائحة عطرة طيبة ، فاذا انقطعت شعورهن ووقعن من الشجرة عشن يوما أو بعض يوم ، وهن حينئذ يعاشرن الرجال . وأرضهن اطيب الاراضى ، واكثرها عطرا وطيبا ، وبها انهار أحلى ماء من العسل والسكر المذاب ، وليس بها حيوان الا الفيلة ، وربما بلغ ارتفاع الفيل فى هذه الجزائر أحد عشر ذراعا »

واذا قابلنا بين ما كتبه القزوينى عن شجر واق الواق وماكتبه ابن الوردى ، رأينا كيف تطورت الخرافة من شجر له ثمر

يشبه صورة النساء الى نساء حقيقيات يعشن يوما أو بعض يوم ،بل ان ابن الوردى يجعلهن يأنسن للرجال فيقبلن عليهم • والدمشقى هو الوحيد بين هؤلاء القصاصين الذى حاول ان يتبين الحقيقة من خلال هذه الخرافة ، اذ قال :

« واما جزائر واق الواق الداخلة فى المحيط فيوصل اليهامن بحر الصين . والواق شجر صينى شبيه بشجر الجوز ، ويحمل حملا كصورة الانسان ، فاذا نضجت الثمرة سمع السامع منها واق واق مرات ، ثم تسقط »

فهى ليست نساء معلقات بشعورهن كما يقول القزوينى ولا نساء حقيقيات كما يقول ابن الوردى ، وانما هى ثمار حقيقية كثمار جوز الهند ، وربما كانت هى نفس ثمار هذا الجوز ، تحركها الريح ، فيخرج منها ما يشبه هذا الصوت : واق واق . وهذا التفسير الصحيح لم يلتفت اليه القصاصون ، فقد كانت بغيتهم القصص من حيث هو ، وبذلك ثبتوا الخرافة فى اذهان العامة وفى ادبنا الشعبى العربى ، فدارت فى الحكايات

وليست حكايات واق الواق وجزر النساء هى الحكايات الخيالية او الخرافية فقط عند مؤلفى العرب ومن رووا عنهم من البحارة ، فأكثر منها خيالا وخرافة ماروره عن أحياء شاهدوها ببحر الهند فى جزيرة الحوت ، كما شاهدوها فى العيون والغدران وعلى شواطىء بعض البحيرات وهى أحياء صورتها بين الانس والحيوانات المائية . وتبلغ بهم الخرافة ان يزعموا انها قد تعاشر الانسان ، وأن منها نساء تزوجن فعلا بعض البشر ، وأنجبن منهم البنين والبنات • وعند الامم القديمة أساطير كثيرة تدخل فى هذا الباب ، ويظهر ان العرب اخذوها ونموها ، وخاصة انهم راوا على سطح المياه اسماكا تشبه الآدميين ، من

أنواع سبع البحر، اذ رأوا لها شوارب ورءوسا وعيونا، ورأوها تقف على قوائمها ، فظنوها أناسي واتسع بهم الخيال ، فجعلوا منها الجوارى الحسان

والدمشقى فى « نخبة الدهر » هو العالم الدقيق الذى عرف هذه الحيوانات معرفة حقيقية ، فهو كلما ذكرها أو عرض لها قال انها حيوانات مائية على صورة الانسان ، ومن وصفه لها قوله فى نوع منها :

« سمك كصورة الرجل ، فمه كتكوين فم القرد ، وليس له رجلان ، وله يدان صغيرتان ، وبدنه من نصفه الاسفل بدن سمكة بذنب مفروش ، يظهر بوجه الماء نصفه الاعلى ويتلفت براسه يمينا وشمالا ، وعيناه كبيرتان كعين البقر مستديرتان فى وجهه ، ثم يغطس على راسه فى الماء كالمنقلب سفلا من العلو »

ولكن من آمنوا بما آمن به الدمشقى قليلون ، أو قل ان الكثرة حاولت ان تخرج هذه الحقيقة الى باب الاسطورة حتى يتسلى بها الناس . ولم تصنع ذلك كتب العجائب وحدها ، فنحن نجد جغرافيى العرب ورحالتهم يحوكون حولها الاساطير فابن خرداذبة يروى فى كتابه المسالك والممالك ان راعيا كان يورد غنمه الى عين فى ناحية سمرقند ، فيرى بها سكان الماء فى صورة آدميين واضحين ، يقول :

« وكان هذا الراعى يضرب الوتر واليراع والمزمار ، وكان أهل العين يطفون على وجه الماء ويستمعون اليه ، فيتلذذون بصوت غنائه ، فبينما هو ذات يوم قد ضرب بالوترين ، ونام على راس العين ، اذ عمد له أهل العين جهارا على وجه الماء ، وقبضوه كرها

الى عندهم ، فلما تم عليه يوم وليلة ولم ينصرف الى أهله اغتموا له ، فأتوا تلك العين لاقتفاء الاثر ، فوجدوه وهو طاف على وجه الماء يسير ذاهل العينين ، يكرهونه على الزمر وضرب الوتر ، وأهله يتضرعون اليهم ويسألونهم تخليته ، فلم يجيبوهم الى سؤالهم . فبقوا على ذلك ثمانية أيام ، لا يتجرأ أحد منهم ان يدخل العين ، فيخلصه ، فلما أصبحوا بعد اليوم الثامن لم يروا الراعى ، ولا احدا منعه منهم ، وخفى عنهم أمره »

ويروى القزوينى ان بأرض الهند بحيرة كبيرة « ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتيها شيء من الانهار ، وفى تلك البحيرة حيوانات على صورة الانسان ، اذا كان الليل خرج منها عدد كثير يلعبون على ساحل الماء ويرقصون ويصفقون باليدين ، ومنهم جوار حسناوات .. والناس فى الليلة القمراء يقعدون من البعد وينظرون اليهم ، وكلما كان النظار اكثر كان الخارجون أكثر ، وربما جاءوا بالفواكه الكثيرة فأكلوها وتركوا ما فضل منها على الساحل »

ويزعم ابن الفقيه فى كتابه « مختصر البلدان » أن الاسكندرية « كانت تضيء بالليل والنهار ، فكانوا اذا غربت الشمس لم يخرج منهم احد من بيته ، ومن خرج اختطف ، وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطيء البحر ، وكان يخرج من البحر شيء ، فيأخذ من غنمه ، فكمن له الراعى فى بعض المواضع حتى خرج ، فاذا جارية قد نفشت شعرها ، فتشبث بشعرها ومانعته عن نفسها ، ولكنه قوى عليها وذهب بها الى منزله ، فأنست به وبأهله »

ويقول ابو حامد الاندلسى الذى زار البلغار (التتار) على نهر الفولجا فى القرن السادس الهجرى بكتابه تحفة الاصحاب :

« حدثت ببلغار ان سمكة مثل الجبل العظيم صادوها من بحر الخزر فى بعض السنين ، ولما صادوها ثقبوا اذنها وجعلوا فيها حبالا ، ليجروها منها ، فانفتحت اذن السمكة ، وخرجت من داخلها جارية كالجوارى الآدمية ، بيضاء ، حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، حسنة الصورة ، تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح . وقد خلق الله لها فى وسطها مثل جلد أبيض كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها الى ركبتها يستر عورتها كأنه ثوب مشدود ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم »

وعلى هذا النحو تتسع أسطورة بنات الماء ، فتشمل جميع البحار والبحيرات والعيون والآبار ، وهى دائمـــا فى صورالنساءالجميلات ذوات الشعر المسترسل،وكثيرا مايقترن الحديث عنهن بأنهن ظهرن لبعض الناس ، فأوثقوهن ، حتى الفنهم ، فاقترنوا بهن وتزوجوا منهن . وكان بينهن من تهرب الى البحر حتى بعد ان تلد الاولاد ، فان ذكريات حياتها القديمة لا تزال تعاودها ، فاذا وجدت فرصة عادت اليها مضحية بحياتها الجديدة على وجه الارض ، وبكل ما أوتيت فيها من نعمة الاولاد وغير الاولاد ، وكأن نداء خفيا لا يزال يدعوها ان ترجع الى وطنها البحرى ، وان تهجر هذا الوطن البرى الجديد الى غير رجعة

وكلنا نعرف ما تمتاز به البحار والمحيطات من حيـوانات كبيرة مثل البال (الحوت) والسلاحف والسرطان والاخطبوط، وكثير منها حيوانات مفترسة ، وكم من معركة نشبت قديما بين البال وبين بعض السفن ، واذاعرفنا أن منه مايزن سبعين طنا ، وأن طوله قد يبلغ مائة ذراع وأكثر ، عرفنا مقدار ماكان

يلقيه من هول وفزع فى نفوس الملاحين والتجار . وهو من الحيوانات الثديية ، وله أسنان مخيفة ويعيش على ابتلاع ما يصادفه فى البحار من أسماك وأخطبوطات ، وكم له من معارك مع الاخيرة التى قد يبلغ طولها فى البحار العميقة ثلاثين قدما او تزيد . وقد عرف العرب الصلة بينه وبين العنبر ، فقالوا انه موجود بجوفه وانه يلفظه ، ومعروف انه ينشأ فى امعائه بسبب بعض الامراض التى تصيبه ،فيتكون هذا الحصى ، وقد يقذف به البال اثناء حياته ويوجد فى جوفه بعد مماته . وظن بعض الملاحين من العرب حين رأوه طافيا على البحار أو راسيا فى قيعانها انه نبات ينمو فيها ، وقصوا عنه الاقاصيص كما قصوا عن البال . وأقدم ما نقرأ عنه فى كتب الرحلات عندما جاء فى رحلة التاجر سليمان ـ التى سبق أن أشرنا اليها ـ اذ نراه يقول انه : « رأى سمكا مثل الشراع ربما رفع رأسه ، فتراه كالشىء العظيم ، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة فاذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ، ثم فتح فاه ، فيرى السمك فى جوفه يغيض كأنه يغيض فى بئر . والمراكب التى تكون فى البحر تخافه ، فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن يتكىء على المركب فيغرقه »

ويقول ابو زيد السيرافى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى عن العنبر والبال :

« أما العنبر وما يقع منه الى سواحل بحر الهند فهو شىء تقذفه الامواج ، على أنه لا يعرف مخرجه ، على أن أجوده ما وقع الى بربرا (الصومال) او حدود بلاد الزنج (موزمبيق) وهو البيض المدور الازرق . ولاهل هذه النواحى

ابل يركبونها فى ليالى القمر ويسيرون بها على سواحلهم ، قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل ، فاذا رآه البعير برك بصاحبه فأخذه . ومنه مايوجد فوق البحر ويزن وزنا كثيرا ، وربما كان كهيئة الثور ودونه ، فاذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه ، فاذا حصل فى جوفه قتله ، وطفا الحوت فوق الماء . وله قوم يراعونه فى قوارب قد عرفوا الاوقات التى توجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر ، فاذا عاينوا منها شيئا اجتذبوه الى الارض بكلاليب من حديد فيها حبال متينة تنشب فى ظهر الحوت ، فيشقون عنه ، ويخرجون العنبر منه . . وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عمل من فقار ظهره كراسى يقعد عليها الرجل ويتمكن . وذكروا أن بقرية بالقرب من سيراف (ميناء على خليج فارس) بيوتا عادية لطافا ، سقوفها من اضلاع هذا الحوت . وسمعت من يقول : انه وقع فى قديم الايام الى قرب سيراف منه واحدة ، فقصد للنظر اليها ، فوجد قوما يصعدون الى ظهرها بسلم لطيف ، والصيادون اذا ظفروا بها طرحوها فى الشمس وقطعوا لحمها ، وحفروا له حفرا يجتمع فيها الودك (الدهن) ويغرف الودك من عينيها بالحرارة اذا اذابتها الشمس ، ويجمع ، فيباع على أرباب المراكب ، ويخلط بأخلاط لهم ، تمسح بها مراكب البحر ، ويسد ما انفتق من خرزها . »

▭

وتدور حكايات البال فى كتب الرحالة واختها كتب العجائب ، وقد يجعلونه خمسمائة ذراع طولا وعشرين أو خمسين عرضا ، ويجعلون له جناحا كالجبل العظيم . وكما يتحدثون عن البال يتحدثون عن السلاحف البحرية وان منها ماتبلغ استدارته أربعين ذراعا ، ويبيض ألف بيضة . ويصف ابن الوردى

الاخطبوط فيقول :

« سمكة من راسها الى صدرها مثل الترس ، ولها عيون كثيرة تنظر بها ، وباقى بدنها طويل مثل الحية فى مقدار ثلاثين ذراعا ولها أرجل كثيرة ، ومن صدرها الى ذنبهـا مثل أسنان المنشار ، كل سنة منها فى طول شبر ، كالحديد فى الصلابة او الفولاذ فى القطع ، ولا تتصل بشىء من المراكب الا شقته ، ولا تضرب شيئا الا قطعته نصفين ، ولا تنطوى على شىء الا أهلكته » .

ويتحدثون عن سرطانات البحر فيقولون انها كالترس الصغير ، ولا يلبثون ان يقولوا انها اذا صارت فى البر على الشـواطىء تحولت حجرا حالا . ولعلهم رأوا بعض أصـدافها التى كانت تعيش فيها ، فظنوا انها هى نفسها . وتلعب المبالغة دورها فاذا من الملاحين من يزعم انه كان مجتازا بناحية من بحر الزابج وأنه سلك فى بعض الايام بين قرنين ظاهرين فى البحر ، قدر أنهما جبلان فى الماء ، ولما جاوزهما غاصا فى البحر ، فعـرف انهما ظفرا سرطان. ويزعم بحار آخرانه قرب من البرفى بلاد الذهب ببحر لامرى ، ورمى بالانجر الكبير (الهلب) فى الماء ، فلم يقف به المركب ومضى على حاله ، فقال للغائص انزل واعرف الخبر ، ولما نزل رأى عجبا، اذ وجد الانجر بين ظفرى سرطان يتلاعب به ويجر المركب ، واعلم الربان الخبر ، فصاح الناس وطرحوا فى المـاء الحجارة حتى ترك السرطان الانجر ، وكان وزنه نحـو الف وخمسمائة رطل . ووراء السرطان والاخطبوطات والسلاحف والبال أنواع كثيرة من السمك يتحدثون عنها ، وخاصة السمك الطيار الذى ينطلق فى الهواء الى ارتفاع كبـير . وكان

من أشد مايلفت نظرهم السمك ذو الوميض الفسفورى ، وكثيرا ما قصوا عنه الحكايات ، حتى ليزعم بعض البحارة أن الامواج فى جوانب من بحر الهند تضطرب وتتكسر ليلا ، فتنقدح منها النار ، حتى يخيل الى الملاحين انهم يسيرون فى بحر من النار المتوهجة

ويظهر انهم راوا فى بحر الهند وغيره من البحار ضروبا من الحيات الكبيرة ، وقد ربطوا بينها وبين الاعاصير الدائرة فى نطاق السحب الكثيفة ، وكونوا من ذلك أسطورة التنين الذى يسكن فى السحب ، ويسير من افق الى افق ، فاذا أراد الله بسفينة شرا سقط عليها وابتلعها ابتلاعا ، وقد يسقط فى البر فيبتلع الخيل والابل والبقر والناس ويهلكهم ، ويعرفنا به القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » على هذا النحو :

« ألتنين يكون أول امره حية متمردة ، تأكل من دواب البر ما ترى ، فاذا عظم فسادها بعث الله تعالى ملكا يحتملها ويلقيها فى البحر ، فتفعل بدواب البحر ما كانت تفعله بدواب البر ، ويعظم جسمها ، فيبعث الله تعالى ملكا يحملها ويلقيها الى يأجوج ومأجوج . وروى بعضهم انه راى تنينا سقط ، فوجد طوله فرسخين ، ولونه مثل لون النمر ، وله جناحان عظيمان على هيئة جناح السمك ، وراس مثل التل العظيم كراس الانسان ، وأذنان طويلتان ، وعينان مدورتان كبيرتان جدا ، ويتشعب من عنقه ستة اعناق طوال ، كل عنق نحو عشرين ذراعا ، على كل عنق راس كراس الحية »

وتتداخل فى هذا الوصف للتنين صورة الاخطبوط كما تتداخل صورة الاعاصير العاتية التى تنشأ من التقاء ريحين مختلفتى الاتجاه ، فتدور فى شكل عمود كبير ، يعصف

بكل ما يلقاه ، فاذا لقى مركبا اغرقها ، وقد يمر بالارض فيحدث كثيرا من الخسائر . ومهما يكن فقد نشأت أسطورة التنين بين البحارة ، واكثروا حوله من القصص المخيفة ، حتى جعلوه حية تنقض انقضاضا سريعا على كل ما يصادفها ، وتمحوه من الوجود محوا . وحاول الدمشقى على عادته أن يرفض هذه الاسطورة فقال :

« كثيرا ما يظهر بالبحر الاسود التنين الذى يزعم من لا علم عنده انه حيوان حى وانه تنقله الملائكة من البحر الى جهنم عند عتوه وطغيانه على دواب البحر . والتنين يوجد فى البحر الرومى وبحر الخزر وبحرورنك وسواحل المحيط بالاندلس » وهو يوجد أيضا فى بحر الهند ومايتصل به من المحيط الهادى .

فالدمشقى لا يؤمن بأن التنين حيوان حى ، وقد وقف موقفه ياقوت فى « معجم البلدان » فكذب ما يقال عنه ، ولكن رواة العجائب وبعض البحارة وجدوا فيه مادة خصبة للخيال والقصص ، وتبعتهم العامة تروى حكاياتهم وقصصهم ، وتزيد فيها زيادات مختلفة ، حتى ليزعم بعض الرواة او القصاصين ان منه ما يتكلم ، ومنه ما يبتلع الفيل وتسمع قعقعة عظامه فى بطنه من بعد بعيد

□

ولا تقف عجائب البحر عند حيواناته المائية ، فللطير فصول فى القصة ، واذا كان التنين هو أسطورة الماء والسحاب فان طائر الرخ هو اسطورة الهواء ، وهو طائر هائل ، يزعم البحارة انه يظهر فى شكل غمامة سوداء ، حين يرتفع عن الافق ، اما حين يهبط على البحر ، فهو جبل ضخم او حصن مشيد ، وحين يطير يسمع من ريشه صوت كصوت الاشجار عند

هبوب الريح ، وهو لا يصيد الا فيلا او دابة كبيرة او تنينا . ويذكر الدمشقى انه يوجد فى غربى بحر الهند ، اذ يرى هناك طائرا فى الجو الاعلى ، ويسقط بعض ريشه فى جزيرة ملغشقر، فيتخذونه اوعية للماء . وعرض قصبة الريشة منه اكثر من شبر ونصف وطولها نحو القامة . أما ابن الوردى فيبالغ ويزيد فى الاسطورة خيوطا ، فيقول :

« الرخ طائر عظيم غريب مهول الهيئة ، حتى قيل أن طول جناح الواحد نحو عشرة آلاف باع . حكى عن بعض التجار الذين سافروا الى الصين انه احضر معه قصبة ريش من جناح فرخ الرخ وهو فى البيضة ، لم يخرج بعد منها الى الوجود ، فكانت تلك القصبة تسع قربة ماء ، وكان الناس يتعجبون لذلك »

□

وكان طبيعيا ان يتحول الحديث عن عجائب بحر الهند وغيره من البحار على السنة الملاحين والتجار والرحالة من العرب الى حكايات واقاصيص ، يروونها بعد عودتهم من الجزر والسواحل النائية ، يصفون فيها ماشاهدوه من الكائنات البحرية والبرية، والسامعون من حولهم يستزيدونهم ويستثيرونهم ، فيمعنون فى القصص ، وقد يمعنون فى الخيال ويثبون وثبا بما يقصونه عن السكان والحيوانات والاسماك والطيور الى مراقى الاساطير . وكان بين الملاحين والتجار والرحالة ــ كما بين الناس جميعا ــ من يولعون بالمبالغة والتهويل ، فاذا تحدثوا او قصوا تجاوزوا المعقول الى التهريف والخرافة ، ونتج عن ذلك تراث قصصى بديع فى ادبنا العربى الفصيح والشعبى

وتتفوق كتب العجائب على كتب الرحلات فى وفرة هذه المادة

القصصية ، لذلك سنبدأ بها فى سرد ما اخترناه من طرائفها ، حتى اذا استوفينا ذلك الممتـا بكتب الرحلات ، ونستهل حديثنا بعرض ما احتواه كتاب « عجائب الهند بره وبحره وجزائره » لبزرك بن شهريار الناخـداه ، ومعنى كلمة « الناخداه » ربان السفينة ، وكان يعيش فى القرن الرابع للهجرة . وهو لا يروى فى الكتاب عن نفسه ، وانما يروى عن غيره من الربابنة والملاحين الذين لججوا فى المحيطين الهندى والهادى ، وشاهدوا غرائب الاحياء والحيوانات المائية والبرية . وقد زيدت على الكتاب حكايات على مر العصور، وكأن القصاص أعجبوا بما فيه من مادة قصصية ، فزادوا عليها ماسمعوه أو تخيلوه . وبذلك أصبح هذا الكتاب أشبه بكتاب الف ليلة وليلة ، الذى اضافت اليه العصور المتعاقبة قصصا جديدة دخلت على قصصه القديمة ، فزادتها روعة وجمالا

ولا تستند الحكاية عند بزرك بن شهريار على الحقيقة الواقعة، بل انها فى أكثر الاحيان تتحول الى أسطورة خالصة من صنع الخيال ، وهذا مما يضاعف قيمتها القصصية ، اذ تتحـول من باب الواقع الذى لايتجاوز الخبر الى باب القصص الخيالى الذى يبالغ الى حد الخرافة

من كتاب عجائب الهند

أعصار بالقرب من جزيرة النساء

. سافر رجل فى مركب عظيم ومعه خلق من أخلاط التجار من كل بلد ، وهم يسيرون فى بحر ملايو ، وقد قربوا من أطراف أرض الصين وابصروا بعض جبالها ، فلم يشعروا الا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التى يقصدونها ، فلم يسعهم الا الانصراف معها حيث توجهت، وركبهم من هول البحر مالا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح الى سمت سهيل (نجم) . ومن اضطر فى ذلك البحر الى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحرا لا رجعة له منه ، وتنكس فى لجة هابطة الى الجنوب تصوبه الى تلك الجهة ، فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهو فى لجج البحار المحيطة . فلما رأوا امرهم يؤدى الى الدخول تحت سهيل ، ودخل عليهم الليل ، وأظلم وادلهم ، وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره (ارتفاع أمواجه) بينهم وبين النجاة، وهم يجرون فى قار وضباب طول ليلهم، واصبحوا فلم يشعروا بالصباح لشدة ظلمة ماهم فيه ، واتصال قار البحر مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته ، وهم فى قبضة الهلاك ، قد حكمت فيهم الريح العاصفة ، والبحار الزاخرة ، والامواج الهائلة ، ومركبهم يئط (يصوت) ويئن ويتقعقع ، توادعوا (ودع بعضهم بعضا) وصلى كل منهم الى جهة معبوده ، لانهم

كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر،واستسلموا للموت ، وجروا هكذا يومين وليلتين لا يفرقون فيهما بين الليل والنهار • فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل ، رأوا بين أيديهم نارا عظيمة (هى الوميض الفسفورى ظنـــوه نارا) قد أضاء أفقها فخافوا خوفا شديدا ، وفزعوا الى ربانهم ، وقالوا : ياربان ! اما ترى هذه النار الهائلة التى مـــلأت الآفاق ونحن نجرى الى سمتها ، والغرق أحب الينا من الحريق،فبحق معبودك الا قلبت بنا المركب فى هذه اللجة والظلمة ، لايرى احد منا الآخر ، ولايدرى ماكانت ميتته ، ولا يتجرع لوعة صاحبه،وانت فى حل مما يجرى علينا ، فقد متنا فى هذه الايام والليالى ألف ألف ميتة ، فميتة واحدة اروح ، فقال لهم : اعلموا انه قديجرى على المسافرين والتجار أهوال ، هذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربابنة علينا العهود والمواثيق الا نعرض سفينة الى العطب وهى باقية لم يجر عليها قدر ، ونحن معشر ربابنة السفن لانقلع بها الا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذى يصرفهما كيف يشاء • فلما يئسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل ، وندب كل منهم شجوه . وصار الربان اذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بجذب حبل أو ارخائه ، ليصلح شأن المركب ، لاتسمع الرجال ذلك من دوى البحر وحس تلاطم الامواج وهدير الرياح فى القلوع والشرع والحبال وضجيج الخلائق • فأشرف المركب على التلف . وكان فى المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الاندلس ، قد طلع الى المركب فى ازدحام النـاس عند طلوعهم ليلة الســـفر ، ولم يشعر به ربان المركب ، وكان فى زاوية منها مهجورة ، وهو مختف فيها خوفا أن يعلم به الربان فيؤنبه

ويوبخه ، فلما راى القوم وما نزل بالنـــاس وما هم عليـــه من الاخطار بانفسـهم ومركبهم ، وانهم قد اصبحوا عونا مع اهوال البحر على أنفسهم ، مسرعين لهلاكهم ، رأى أن يخرج اليهم ، فخرج اليهم ، وقال لهم : ما شأنكم ، هل انخـــرق المركب ؟ قالوا : لا ، قال : فهل انكسر السكان (الدفة) ؟ قالوا : لا ، قال فهل ركبكم البحر ؟ قالوا : لا ، قال : فما شأنكم ؟ قالوا : كأنك لست معنا فى المركب ، اما تنظر هول هذا البحر وأمواجه وظلمة الهواء الذى لم نر معه نهارا ولا شمسا ولا قمـرا ولا نجوما نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سهيل ، وحكمت البحار والرياح فينا ؟ واشد ما علينا هذه النار التى نحن نجرى اليها ، وقد ملأت الافق ، والغرق اهون علينا من الحريق ، وقد سألنا الربان ان يقلب المركب بنا فى البحر والظلمة ، لا يرى واحد منا صاحبه ، ونموت غرقا ولانموت حرقا،يرى بعضنا بعضا،ونسمع ماتفعل النار فيه ، فقال : اوصلونى الى الربان ، فأطلعوه اليه ، فسلم عليه بالهندية ، فرد عليه وتعجب منه ونظر اليه،وقال له: من أنت أمن التجار أم من أتباعهم فلا نعرفك فى رجال المركب ؟ قال له : ما أنا من التجار ولا من أتباعهم ، قال : فمن أطلعك ؟ وما بضاعتك ؟ قال له : أما من أطلعنى فانى طلعت فى جمهور الناس ليلة الاسراء (السفر) واويت الى مكان فى المركب ، قال الربان : من اين تأكل ومن اين تشرب ؟ قال : كان بانيـــــان (نوتى) المركب يضع كل يوم قريبا منى صفحة أرز بسمن لملائكة المركب وماء ، فكنت اتقوت بذلك ، وأما بضاعتى فقربة عجوة . فتعجب الربان منه ، واشتغل الناس بسماع حديثـه عما كانوا فيه من الضجيج ، وأصلح الرجال أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير الاقلاع ، واهتدى المركب،فقال الشيخ:

ياربان ! ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون ؟ قال له : أما ترى ما نزل بهم من هول البحر والرياح والظلمة ؟ وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون اليه من هذه النار التى ملأت الافق ، والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ مع أبى ، وكان قد أذهب عمره فى ركوبه ، وهأنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائى فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا أخبر عنه ، فقال : يا ربان ! لا بأس عليك ولا خوف ، نجوتم بقدرة الله ، هذه جزيرة يحيط بهـــا ويكنفها جبال ، تتكسر عليها أمواج البحار ، فتظن فى الليل نارا هائلة يخافها الجاهل ، فاذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء . فتباشر الناس وسكنوا الى قول الشيخ ، وتناولوا طعامهم وشرابهم ؛ وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف وتناقص الريح ، وصـــار البحر رهوا (ســـهلا) والريح رخوا (لينا) . وقدموا الجزيرة مع شروق الشمس وأصحت السماء ، وتخيروا مرسى كنينا (مستترا) ووردوا الجـزيرة بجملتهم ، وكانوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الارض شوقا اليها . ولم يبق منهم فى المركب أحد ، فبينما هم كذلك اذ ورد عليهم نسوان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وما لبثن أن حملنهم الى الجبال ، وماتوا جميعا ولم يبق منهم سوى الشيخ الاندلسى ، وكانت تزوره امرأة فى الليل ، فاذا أصبح اكتنته (سترته) فى موضع قريب من البحر، وجاءت له بشىء تقوته به ، فلم يزل كذلك الى أن انقلب الريح من تلك الجزيرة الى الجهة التى خرج منها المركب من الهند ، فأخذ الشيخ قارب المركب الذى يسمى الفلو ، ووضـــع فيه بالليل ماء وزادا . فلما فطنت المرأة الى نيته أخذت بيده وجاءت به الى موضع ، فنبشت التراب بيديها عن معدن تبر ، فنقلت

هى وهو منه ما زخرا به القارب ، وأخذها معه ، ووصل الى البلد التى خرج منها المركب ، فأخبر أهلها الخبـــر • وأقامت المرأة معه الى أن تفصحت وأسلمت ورزق منها الاولاد ، وسألها عن تلك النساء فى الجزيرة وانفرادهن دون الرجال ، فقـــالت له : نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ،وكل من بأقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون هذه النـــــار التى تظهر لهم ليلا فى البحر ويسمون جزيرتهم بيت الشمس لان الشمس تشرق من طرفها الشرقى وتغرب فى جانبها الغربى، فيظنون أنها تبيت فى هذه الجزيرة ، فاذا أصـــبحوا وأشرقت الشمس من جانبهـــا الشرقى خفيت نار البحـــر وارتفعت الشمس ، فيقولون هى هى ، واذا غربت فى جانبهـــا الغربى وأمسوا ، ظهرت نار البحر ، فيقولون هى هى ، فيعبدونهـــا ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات • ثم ان الله سبحانه وتعالى جعل المرأة فى بلدنا تلد أول بطن ذكرا وثانى بطن أنثيين وكذلك باقى عمرها ، فما أقل الرجـــال فى بلدنا وأكثر النسوان • فلما كثرن وأردن أن يغلبن على الرجال صنعوا لهن مراكب وحملوا منهن آلافا وطرحوهن فى هذه الجزيرة ، وقالوا للشمس : يا ربنا انت احق بما خلقت ، وليس لنا بهن طاقة ، وما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم ولايطرق بلادنا أحد على مر الازمنة ، وان بلادنا فى البحر الاعظم تحت سهيل ، ولا أحد يجىء الينا فيرجع ، واذا جاءنا أحد لا يفارق الساحل والبر خوفا من أن تشربه البحار ، وذلك تقدير العزيز العليم

جزائر الحوت

روى بعض البحارة هذه الاقصوصة العجيبة ، وهى من أقاصيص بنات الماء اللائى كانوا يزعمون توالدها بين الانسان وبعض الكائنات البحرية ! قال :

« سرنا فى مركب كبير نطلب جزيرة فنصور (لعلها سومطرة) فأسقطنا الريح الى جون (خليج) أقمنا فيه ثلاثة وثلاثين يوما فى ركود لا ريح فيه ... والتيار يمضى بالمركب ونحن نندفع معه الى أن أدخلنا بين جزائر كثيرة ، فأرسينا المركب الى واحدة منها ، على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن ، فأنسنا بهن ، ولما قربنا منهن هربن فى الجزيرة ، وجاءنا رجال ونساء عقلاء عارفون ، فلم ندر لغتهم ، فأشرنا اليهم وأشاروا الينا ، ففهمنا عنهم وفهموا عنا ، فأشرنا اليهم أعندكم طعام تبيعونه لنا ، قالوا : نعم ، فجاءونا بالارز الكثير والدجاج والغنم والعسل والسمن والادم وأشياء كثيرة من المأكولات والفواكه ، فاشترينا منهم بالحديد والنحاس والكحل والخرز والثياب ، وأشرنا اليهم أعندكم بضائع نشتريها منكم فقالوا ما عندنا الا الرقيق ، فقلنا لهم : مبارك احضروه ، فأتونا برقيق ما رأينا أحسن منهن ضاحكات السن ، يغنين ويلعبن ويتهارشن ويتداعبن بأبدان عبلة (بضة) وأجسام كأنها الزبد نعومة ، ويكدن يطرن خفة ونشاطا ، الا ان رءوسهن صغار وتحت خصر كل منهن جناحين كجناحى السلحفاة . فقلنا

لهن ماهذا ، فتضاحكن وقلن أهل هذه الجزائر كلهم بهـــذه الصورة ، وأشاروا الى السماء أى أن الله تعالى خلقهم كذلك ، فأغضينا عما رأينا ، وقلنا هذه فرصة ، واشترى كل منا بجيد ما عنده من الامتعة ، وأفرغنا المركب من البضايع وشحنــاه رقيقا وزادا ، وكنا كلما اشترينا رقيقا جاءونا بمن هن أحسن منه ، فملأنا المركب بخلق ما رأى الراءون أجمل منهن ولا أحسن ولو تم لنا ذلك لأثرينا الى عقب العقب ٠ولما حان السفر وعصفت لنا الرياح من صوب الجزائر الى جهة بلادنا شيعونا وقالــوا لنا تعودون لنا فى قابل (العام المقبل) ان شاء الله وطمــع ربابنا فى العودة بمركبه وحده بغير تجار ، فكان يقف رجاله طوال الليل على النجوم ، وينبههم على منازل الكواكب وجهات الآفاق وطريق الاقلاع فى المجىء والعودة ٠ وفرحنا غاية الفرح والسرور ، وسرنا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار ٠ فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرقيق الذى معنــا ، فضاقت صدورنا لبكائهن ، ثم قمن بعضهن لبعض وقلن فيم البــكاء ؟ قمن بنا نرقص ونغنى ونتضاحك ، فأعجبنا ذلك منهـــن ، واشتغل كل واحد منا بشأنه ، وأصابوا منا غفلة واذا هـــن يتطايرن والله فى البحر تطاير الجراد ، والمركب يجرى كالبرق الخاطف فى موج كالجبال ، فما أشرفنا عليهن حتى تجاوزتهن المركب بنحو ميل ، ونحن نسمعهن يغنين ويصفقن ويتضاحكن فعلمنا أنهن ما فعلن بنفوسهن ذلك الا بقدرة لهن على احتمال هول ذلك البحر ، ولم يمكنا الرجوع اليهن ويئسنا منهـــن وكان الربان قد وضع احداهن فى مقصورة ، فلما مضـــين نزل اليها ، فوجدها تريد أن تثقب الجدار ، وتطرح نفسهـــا فى البحر ، فقيدها ٠ وسرنا الى أن دخلنا بلاد الهند ، ومعنــا

بعض العروض فبعناها وتقاسمنا أثمانها ، ولم يتجـــاوز نصيب كل منا عشر رأس ماله • فلما سمع الناس بخبرنا ، جاءنا رجل من أهل هذه الجزائر ، جزائر الحوت بعينهـــا ، قد أخذ صغيرا وبقى فى الهند الى أن هرم ، فقال لنا : أنتم وقعتم الى جزائر تسمى جزائر الحوت ، وهى بلدى ، ونحن قوم توالد رجالنا ونساؤنا مع حيوانات البحر ، فنتج منهم هؤلاء السكان منذ قديم الدهور •• وأما المرأة التى بقيت مع الربان فاستولدها ستة أولاد وأقامت عنده ثمانى عشرة سنة مقيدة ، وكان هذا الشيخ الجزائرى قد قال له : لا تحل عنها القيد ، فتطرح نفسها فى البحر وتمضى ، فلا تراها أبدا ، فاننا لا صبر لنا عن الماء ، ففعل بها ذلك • ولما كبر أولاده كانوا يلومونه فى تقييدها بغير علم ، فلما مات لم يكن لهم بعد موته عمل الا أن يطلقوها من القيد رحمة لها وبرا بها وحنوا عليها • فخرجت كأنها الفرس السابق ، وانطلقوا خلفها ، فلم يدركوها • وقال لها بعض من قرب اليها : أتمضين وتخلين أولادك وبنـاتك ؟ فقالت : انشرتو ، ومعناه : ماذا أعمل لهم ؟ وطرحت نفسهـا فى البحر ، وغاصت فيه كأقوى حوت يكون • سبحان الخالق البارىء المصور ، تبارك الله أحسن الخالقين »

الرخ يطير بالناس

ذكر بعض شيوخ الهند أن مركبا كسر له ، فسلم نفر من اهله فى قارب ، ووقعوا الى جزيرة بقرب الهند ، فبقوا بها مدة الى ان مات اكثرهم وبقى منهم سبعة ، وكانوا فى مدة مقامهم قد راوا طيرا عظيما يقع فى الجزيرة ويرعى ، فاذا كان وقت العصر طار ، فلا يدرون الى اين يمضى ، فأجمع رايهم على ان يتعلق واحد منهم برجليه ، ليحمله ، فاذا حمله وطار به صنعوا من بعده صنيعه . وصمموا على ذلك لما ضـاقت صدورهم وعلموا انه لابد من الموت . وتعلقت نفوسهم بالطائر ، وقالوا ان طرحهم بقرب بلد فهو الذى يتمنونه ، وان قتلهم فهو الذى يتوقعونه . فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر ، وجاء الطائر على الرسم ، فرعى ، فلما حان وقت انصرافه تلطف الرجل فى الدنو منه ، واخذ برجليه وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشجر ، فطار به فى الهواء، وهومتعلق بفخذيه ، فعبر بحرا وطرحه وقت غروب الشمس على جبل ، فحـل وثاقه وسقط كالميت مما تعب ، ومما مر به ، وعاين من الاهوال، فمكث لا يتحرك الى أن طلعت الشمس من غد . فقام ينظر فاذا راعى غنم ، فسأله بالهندية عن الموضع ، فذكر له قرية من قرى الهند ، وسقاه لبنا ، فتحامل على نفسه ؛ حتى دخـل القرية . ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم فى القرية ، ثم نفذوا الى بعض

بلاد الهند التى توجد فيها المراكب وعادوا الى بلدهم . وتبين لهم حين تحدثوا عن كسر مركبهم والجزيرة التى وقعوا بها أن مقدار مسافة ما حملهم الطائر الى القرية الهندية يزيـــد على مائتى فرسخ

ومن عجائب الرخ ما يرويه الربابنة عن ريشه ، وتعظم المبالغة فى وصفه الى حد ان يقول بعض الملاحين انه راى ريشة من ريشه تسع خمسا وعشرين قربة من الماء !. ويزعمون أنه يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخالبه ويحمله فى الهواء ، ثم يرمى به ليموت وينكسر ثم يسقط عليه فيأكله ، ومع ذلك يقولون انه اذا راى الانسان هرب منه ، وفر من صـــورته لبشاعة خلقته !

لحم الرخ يعيد الشباب

مما اجمع عليه جماعة من البحريين ، ان بعض المراكب الخارجة الى الصين أصيب فى اللج،وسلم منه ستة أنفس على شراع ، ومكثوا اياما فى البحر ، ثم وقعوا الى جزيرة ، واقاموا بها شهورا ، حتى كادت نفوسهم تتلف من ضيق الصدر ، وبينما هم فى بعض الايام يتحدثون على ساحل البحر اذ سقط طائر ، قدر الثور أو نحوه ، فقالوا : قد ضاقت صدورنا من الحياة ، فقوموا بنا نجتمع على هـــذا الطير فنصرعه ونذبحه ونشويه ونأكل من لحمه ، فاما أن يقتلنا بمخالبه ومنقـــاره فنستريح مما نحن فيه ، واما ان نظفر به فنأكله ، فقاموا اليه ، وتعلق بعضهم برجليه وبعضهم بعنقه ، واخذ بعضهم يضرب ساقه بالخشب ، وجاهدوا حتى صرعوه . فعمـــدوا الى حجارة ، فضربوا بعضـــها ببعض حتى تكسرت وصـــارت كالسكاكين ، وذبحوه ، ونتفوا ريشه ، وأوقدوا نار عظيمة ،

وطرحوه فيها ، وقلبوه ، حتى استوى لحمه . ثم جلسوا فاكلوا منه حتى شبعوا ، واكلوا منه بالعشى . فلما كان اليوم الثالث واصبحوا قاموا الى البحر ، ليتوضئوا للصلاة ، فجعلوا لا يمسون شيئا من ابدانهم الا تساقط الشعر عنه حتى لم يبق على أحد منهم شعرة واحدة فى سائر جسده ، وصاروا مردا جردا . وكان فيهم ثلاثة شيوخ فتحيروا ، وقالوا : كان لحمه مسموما ، وقد تساقط الشعر ، واليوم نتلف ونهلك كلنا ونستريح مما نحن فيه . وأمسوا وهم فى عافية ، وأصبحوا كذلك . فلما مضى عليهم خمسة أيام عاد شعرهم الى الظهور وظل يتكامل بعد ذلك ، وهو فى نهاية السواد والبريق ، ولم يحدث أن ابيض منه شيء بعد ذلك . فمكثوا شهرا أو نحوه حتى اجتاز بهم مركب ، فلوحوا له فجاء اليهم ، وحملهم وسلموا ، وتفرقوا فى البلاد ، وعاشوا بقية اعمارهم وشعرهم أسود غاية السواد ، لا يشيخون ولا يهرمون

بال (حوت) ضخم

وقعت فى سنة ثلثمائة سمكة ببعض سواحل عمان ، وجزر (انحسر) الماء عنها ، فصيدت ، فسحبت الى البلد ، فركب أحمد بن هلال الامير والعسكر معه ، وحضر الناس للنظر اليها وكان الفارس يدخل من فكها ، ويخرج من الجانب الآخر ، وهو راكب لعظمها ، فانها ذرعت ، فكان طولها يزيد على مائتى ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذراعا . وبيع من دهن عينيها ، على ما قيل ، بعشرات الآلاف من الدراهم

ويروى بعض العراقيين أنه رأى باليمن عند بعض اخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه ، وبقى عظمه صحيحا ، فدخل الرجل من احدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر ، وهو

قائم من غير أن ينحنى • وهذا السمك كثير ببحر الـــزنج (غربى المحيط الهندى) وهو بكسر المراكب مولع ، فاذا تعرض للمركب ضربوا الطبول وصاحوا ، وربما نفخ الماء ، فيرتفع مثل المنار ، وربما لعب بذنبه فيرى من بعد مثل شراع المراكب

ملازمة البال للمراكب

سئل بعض البحارة عن ملازمة البال للمراكب فى السواحـ المعمورة والبحار المهجورة ، فقال : « ذلك يختلف باختــلا البال ، فمنه ما يحاذى المراكب ليسقط منها شىء فيلتقمـ وربما عثر قبل ذلك على مركب قد عطبت فنال منها ، فصـ اذا رأى مركبا حاذاها طمعا أن يحدث منها ماحدث من غيرها. ومنه ما يرى المركب فيتعجب من شكلها ، ويظنها حيوانا بعضه فى الماء وبعضه فى الهواء ، فيمرح معها ويجاريها عشقا لهـــا وتأنسابها ، ويظل كذلك مدة حدة قوته ونشاطه الى أن يعيا فيفارق المركب • ومنه ما يجارى المركب على سبيل المنافسة والمعاندة ، فاذا أحس بالاعياء والتقصير ورأى المركب تتقــدم رجع اليها فحمل عليها حملة واحدة ، فان سلمت والا فنسأل الله العفو . ومنه الضارى المتدرب على تحطيم المراكب ، يحمل على المركب حملات حتى يقلبها • ومنه ما اذا ركب المركب فر منها وهرب خوفا على نفسه . فأحواله واخــلاقه تختلف باختلاف انواعه »

بال فى البحر الاحمر

حكى بعض البحريين أنه خرج فى مركب من عدن الى جدة وأن سمكة نطحت المركب بحذاء زيلع نطحة منكرة لم يشـــك من فى المركب أنها كسرته • وانحدر البانانية (النوتية) الى قاع المركب ، فلم يجدوا فيها أثرا للحادث . فعجبوا من ذلك

ومن أن هذه النطحة العظيمة لم تؤثر فى مركبهم ٠فلماوصلوا الى جدة أخلوا المركب ودفعوه الى البر ، فوجدوا رأس السمكة فى جوفه قد سجن به ، وسد الموضع الذى ثقبه حتى لا يرى فيه خلل ٠ واذا هى نطحت المركب ، ولم يمكنها الخـــلاص ، فانقطعت من حلقها وبقى راسها فى موضعه

سلاحف البحر

ذكر بعض شيوخ المراكب أن مركبا خرج من بلاد الهند الى بعض النواحى ، فاندفع من يد صاحبه بقوة عاصفة عاتيـــة عابته بعض العيب . ولاحت جزيرة صغيرة ، فقدموا اليهـــا وأرسوا عليها كى يصلحوا العيب ، ولم يجدوا بها ماءولاشجرا، ولكن الضرورة دفعتهم اليها فأنزلوا حمولة المركب بهـــــا وأقاموا مدة حتى رتقوا العيب وردوا الى المركب حمولتــــه وعزموا على المسير ، فاتفق أن كان اليوم يوم عيد فجمعـــوا بعض خشبات مما معهم وبعض خوص وقماش وأوقدوهـــا فتحركت الجزيرة من تحتهم ، فرموا بأنفسهم فى الماء وتعلقوا بالقوارب ، وغاصت الجزيرة ٠ ولحقهم من اضطراب البحـــر بحركتها ما أشرفوا به على الغرق ٠ وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم ٠ واذا بها سلحفاة قائمة على وجهالماء ، ولما أحست حر النار ولذعها هربت

وعقب الشيخ على حكايته بقوله : « ان للسلحفاة أياما فى كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها فى كهوف الجبال ٠ وفى البحر غابات وأشجار هائلة اهول وأعظم من شجرنا فوق الارض . فتخرج السلحفاة على وجه الماء وتمكث أياما ، وتسكن كالسكران ، فاذا رجعت اليها نفسها وسئمت ماهى فيه غاصت فى القاع »

أسطورة التنين

حدث بعض البحارة أن فى البحر حيات يقال لهـا التنين عظيمة هائلة ، واذا مر السحاب فى الشتاء على وجه المـــاء خرج هذا التنين من الماء ودخل فيه ، لما يجد فى البحـــر من حرارة الماء ، لان ماء البحر فى الشتاء يسخن كالمرجل ، فاذا أحس ببرودة السحاب دخل فيه ، وتهب الرياح فترفعه مع السحاب ويسير من أفق الى أفق ، فاذا أفرغت ما فيها من الماء وخفت وتفرقت وصــــارت كالهباء لايجد التنين ما يحمله ، فيسقط اما فى البحر واما فى البر ، فاذا أراد الله تعـــالى بقوم شرا أسقطه على سفينتهم أو فى أرضهم ، فيبتلع السفينة كما يبتلع الخيل والجمال والبقر والمواشى ! . ويظل حتى لا يجد شيئا يأكله فيموت أو يهلكه الله . والبحارة يبصرونه فى السحاب ، يعبر على رءوسهم أسود ممدودا ، وكلمـــا تراخى هبط الى أسفل ورسب ، وربما تدلى طرف ذنبه فى الهـــواء فاذا أحس ببرودته دفع نفسه فى السحاب وغاب عن الابصار

حية تأكل الفيلة

وعلى نحو ما كان الملاحون يحكون عن التنين وسلاحف البحر والبال والرخ حكايات عجيبة ينكرها العقل ، كذلك حكوا عن الحيات فى الهند وجزرها ، فمن ذلك هذه الحكاية :

كان يسير ربان فى مركب ، فاشتدت عليه الريح وعصف به اعصار شديد الجأه الى خليج ، فدخـــله ، واقام به يومه وليلته ، فلما كان من الغد اجتازت به حية هائلة المنظر عظيمة لا تقاس بشىء لكبرها ، ثم نزلت الى جانب من الخليج فعبرت منه الى الجانب الآخر كأنها البرق لسرعتها . وبعد العصرعادت فعبرت الخليج على رفق ، ولم تزل على ذلك خمسة أيام ، تجىء

فى كل يوم غدوة ، فتعبر وتعود بعد العصر • فلما كان اليوم السادس قال الربان للنوتية : انزلوا الى البر ، وانظروا الى اين تمضى هذه الحية ، فنزلوا بعد انصرافها فى اليوم السادس الى البر ، ومشوا فى تلك الارض نحو ميل ، فاذا هم بأجمة وغيضة ومستنقع ماء مملوء بأنياب الفيلة كبارا وصغارا • فجاءوا بالخبر الى الربان ، فنزل معهم فى الغد ، وحملوا بعض الانياب الى المركب ، وظلوا ينقلونها بعد أن تنصرف الحية ، حتى جلبوا منها شيئا كثيرا يعظم مقداره ،ورموا من المركب كل ما استغنوا عنه ، حتى يستطيع السير بما جلبوه • وخرجوا من الخليج بعد أن أقاموا فيه عشرين يوما ، واذا بتلك الحية كانت تأكل الفيلة وتبقى أنيابها !

الرقية من لدغ الحيات

ذكر بعض البحريين أن بكولم ملى (آخر ثغور شاطىء المليبار) حية تسمى الناغران ، منقطة ، وعلى رأسها مثل صليب أخضر ، وترفع رأسها من الارض مقدار ذراع وذراعين على قدر كبرها ، ثم تنفخ راسها واصداغها فتصير مثل رأس الكلب ، واذا سعت لم تلحق ، واذا نهشت قتلت • وان بكولم ملى رجلا مسلما يسمى بالهندية بنجى ، وهو صاحب الصلاة ، يرقى نهشة هذه الحية ، فاذا لم يتمكن سمها ممن لدغته نفعت رقيته ، وفى الاكثر يعيش من يرقيه • ويرقى أيضا من نهشتها ونهشة غيرها من الافاعى والحيات بهذه الناحية جماعة من الهند • وهناك بهذه الناحية ضرب من الحيات الصغيرة ، لها رأسان احدهما صغير واذا نهشت به لم تمهل طرفة عين

حية تبتلع تمساحا

وحكى بعض الربابنة أن حية جاءت الى خليج صيمور (جنوبى

بومباى) فابتلعت تمساحا كبيرا ، وبلغ صــاحب صيمور الخبر ، فوجه من يطلبها ، فاجتمع عليها أكثر من ثلاثة آلاف رجل وظلوا يداورونها حتى ظفروا بها ، وشدوا فى عنقهـــا الحبال ، وجاء جماعة من أصحاب الحيات ، فقلعوا أنيابهـــا وقد شجت من رأسها الى اذنها • وذرعوها (قاسوها) فكانت أربعين ذراعا ، وحملها الرجال على أعناقهم وكانت تزن آلاف الارطال ، وكان ذلك فى سنة أربعين وثلثمائة

جزيرة القردة

كان مركب يمضى من عمان الى بلاد الصنف(الهندالصينية)، فأصيب فى طريقه ، وسلم من أهله نحو عشرة فى قارب ، فحملتهم الرياح الى جزيرة مجهولة ، لا يعرفونها ، فرموا بأنفسهم على ساحلها ، وليس لهم قدرةعلى حركة لشدة مالحقهم فى البحر من الاهوال والشدائد ، فمكثوا هنالك بقية يومهم ثم قاموا فجروا القارب الى الساحل ، وباتوا ليلتهم عنده . فلما أصبحوا مشوا فى الجزيرة ، فوجدوا فيها ماء عذبا كثيرا وغوطة (روضة) حسنة ، واشجارا متكاثفة ، فيها ثمار شتى وموز كثير ، وقصب سكر ، ولم يروا فيها انسيا ، فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء ، وانصرفوا الى قاربهم فسندوه بالخشب وظللوه بورق الموز والشجر وأحكموا أمره واصلحوا لانفسهم الى جانبه موضعا يسترهم . فلما مضت عليهم خمسة ايام أو ستة فاذا هم بقطيع قرود قد اقبل يتقدمه قرد كبير جسيم ، واجتمعت القرود حول القارب وفزع القوم منهم . ولم تلبث القردة أن صعدت الى القارب فلم يتعرض لها أحد ، ووقف رئيسهم يفرقهم يمينا وشمالا ، وجعل بعض القردة يومىء الى بعض كأنهم يتحدثون بشىء . ولما أمسوا انصرفوا ، فخاف القوم على نفوسهم ان تقتلهم القردة ، وجعلوا طوال ليلهم يفكرون فى الخلاص ، وباتوا بأسوأ حال لايهتدون لحيلة ، ولا يعرفون طريق النجاة . فلما أصبحوا جاءتهم قردة

فطافت بهم ، ثم مضت ثم عادت ومعها قردة أخرى ، فأومأت الى القوم بشيء ، فتبعها واحد منهم ، ودخل وراءها الغوطة ، ثم خاف على نفسه فرجع • فلما كان من غد عاودت القـــرود الايماء والاشارة . وجلس رئيسـهم فى القارب ، وانفذ جماعة منهم الى الغوطة • ولما مضت ساعة من النهار جـــاء قردان ، ومع كل منهما قطع ذهب فى نهاية الجودة ، فطرحاها بين يديه . ثم عادت القردة بأجمعها ، ونزل القوم الى الارض فأخذوا الذهب ، فاذا هو مثل العروق الغـلاظ وفى نهـاية الجودة ، فسروا سرورا عظيما ، نسوا به ماهم فيه . ولما أصبحوا جاءت قرده تشتمل بهم ثم مضت ، فمضى خلفها واحد من القـــوم ، وامعنت فى الغوطة ، ثم خرجت الى صحراء أرضها رملة سوداء فحفرت القردة بين يديه ، وحفر معها الرجل فوجد عـــروق الذهب مشتبكة ، ولم يزل يستخرجها ويقلعهـــا الى أن أدمت اصابعه ، وجمع ما استخرجه وحمله ورجع ، الا انه ضل فى بعض الطريق ، ودخل عليه الليل ، فتعلق ببعض الشجر وبات فيه ليلته • ولما أصبح رأى جماعة القردة تسعى ، وتبعها الى أن رأى البحر ووافى أصحابه ، فتلقوه وهم يبكون وقالوا له : انا لم نشك فى انك قد تلفت . وحدثهم بما راى وطرح الذهب بين أيديهم ، وفرحوا ولكن لم يلبث أن أخذهم الهم والغم ، لانهم وجدوا هذه الكنوز ولم يجدوا مركبا كبيرا يحملونهـــا فيه ، واذا حملوها فى القارب لم يأمنوا الغرق لصغره ، وهم لا يعرفون طريق العودة • وأجمع رأيهم على أن يمضوا الى تلك الصحراء ويستخرجوا الذهب ويحملوه الى قاربهم ويتوكلوا على الله ، لعله ينقذهم . فكانوا يمضون فى كل غدوة لا تأتيهم فيها القرود ويقلعون الذهب ويحملونه ، وحفروا حفرة كبيرة

عند القارب ودفنوه فيها . ولم يزالوا يقلعون الذهب وينقلونه
مدة سنة وهم ياكلون من ثمار تلك الجزيرة ويشربون من مائها
وبينما هم على حالهم تلك اذ مر بهم مركب مسافر الى عمان
قد أسقطته اليهم الرياح ، فمات أكثر رجاله غرقا وعطشا .
فلما رأوا الجزيرة أرادوا الالتجاء اليها ، ولم يستطيعوا لضحولة
المياه قرب الساحل ، واحدوا النظـر الى البر ، فراوهم وراوا
القارب ملقى على الارض ، وتطارح لهم رجلان من رجـــال
المركب بحبل ، ورأوهما فأخـذوا حبالهم وتطارحوا اليهما فى
البحر ، وربطت الحبال بالحبال . ولما صارت حبال المركب
فى البر مضى اليها اثنان من القوم ، فاذا من فيها قد اشرفوا على
الموت ، وتوسلوا اليهما أن يجذبا المركب الى البر ، وقال الربان
يا اخواننا اجذبونا الى الارض وخذوا المركب لكم ملكا ، فقـال
الرجلان ليس لنا مأرب فى ذلك ، انما نريد أن تعطونا نصف
المركب ، لنملأه بما معنا ولايشاركنا فيه ولا يعترضنا احد ،
فقال الربان لكما ولقومكما ذلك . وتعـاقدوا وشـهد بعضهم
على بعض . وتطارح القوم وأخذوا يجذبون المركب بالحبـال
ولما راتهم القردة يصنعون ذلك أيدتهم وجذبت الحبـال معهم
فجاءت المركب فى أسرع وقت ، ونزل من فيهـــا الى البر ،
واستلقوا عليه شوقا اليه ، لما جرى عليهم . ولمـا اصبحوا
عرفهم القوم موضع الثمار فأكلوا وشربوا ورجعت لهم نفوسهم
وجاءت القرود من الغد بالذهب على العادة ، فآثرهم القـوم
به ، لانهم كانوا قد اخذوا كفايتهم منـــه . وما زال الربان
وجماعته يستخرجون الذهب حتى اكتفوا ، ورأوا الاقـــلاع
وواتت الرياح ، فشحنوا المركب ذهبا ، نصفها للقوم ونصفها
للربان ومن معه ، ورحلوا ، فدخلوا الهند وأخذ كل منهم نصيبه

وقد حصل لكل منهم ــ كما يقول الراوى ــ ألف ألف (مليون) مثقال ومائة الف واربعة واربعون ألف مثقال

من نوادر القردة

يقال انه كان فى قرية من قرى عمان قـــــرد بمنزل بعض التجار ، كان يخـــدمه ، فيكنس منزله ، ويفتح لمن دخل ويغلقه خلفه ، ويوقد النار تحت القدر ، وينفخ فيهـــا حتى تشتعل ، ويرمى لها بالحطب ، وينش الذباب على المـــائدة ويروح على سيده بالمروحة !

وكان بمدينة من مدن اليمن حداد عنده قرد ، ينفخ على الكور طوال نهاره ، وقد ظل عند الحداد يقوم بهذا العمل ســنين طويلة !

ومن أغرب نوادر القردة ما يحكى من أن قردا كان فى منزل رجل ببعض بلاد اليمن وان الرجل اشترى لحما ، وجاء به الى منزله ، فأومأ الى القرد : أن احفظ اللحم ، فجاءت حـــدأة ، فخطفت اللحم ، فبقى القرد متحيرا ، وكان فى الدار شجرة فصعد الى رأسها ورفع مؤخرته الى السماء وأدلى رأسه الىأسفل وجعل يديه الى جانبى مؤخرته . فظنت الحدأة أن مؤخــرته من جملة اللحم الذى اختطفته ، فانقضت عليه ، فتلقاها القرد بيديه فقبض عليها ، وأنزلها الى الدار ، فوضعها تحت جفنة (قدر) وغطاها بشىء ثقيل . فجاء صاحب المنزل ، فلم يجد اللحم ، فقام الى القرد ليضربه . فجرى القرد الى الجفنة ، واخرج الحدأة ، ففطن الرجل لما جرى ، واخذ الحداة فنتف ريشـــها وصلبها على الشجرة

المد والجزر

ومن احاديث البحريين مايحكى عن عبهرة الربان ، واصلهمن كرمان (في ايران) وكان ببعض قراها يرعى الغنم ، ثم صار صيادا، ثم صار احد بانانية (نوتية) مركب يختلف الى الهند، ثم تحول الى مركب صيني ، ثم صار بعد ذلك ربانا ، وكان يعرف بحر الهندوطرائقه ، وسافرالى الصين سبع مرات . وحدثان انكسر به مركبه ذات مرة ، فنزل في مطيال (قارب النجاة) وأخذمعه قربة ماء ، فمكث في البحر اياما . وحكى عن شهريارى الربان وكان أحد ربابنة الصين أنه قال :

« كنت أمضي من سيراف الى الصين فلما صرت بين الصنف (الهند الصينية) والصين بالقرب من صندر فولات (جزر هاى نن شرقي الهند الصينية) وهى رأس بحر صنخى ،وهو بحر الصين ، وقفت الريح فلم تتحرك وسكن البحر ، وطرحنا الاناجر (جمع انجر : الهلب) واقمنا بمكاننا يومين ، فلما كان في اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئا في البحر ، فطرحت الدونيج (قاربا) الى البحر ، وانفذت فيه أربعة من البانانية وقلت : اقصدوا ذلك السواد فانظروا ما هو ؟ فمضوا وعادوا فقلنا ما ذلك الشيء ؟ فقالوا عبهرة الربان على مطياله (قاربه) ومعه قربة ماء ، قلت لهم : فلم لم تحملوه ؟ فقالوا : قد اجتهدنا به ، فقال : لا أصعد الى المركب الا بشرط أن اكون الربان فأدير المركب وآخذ اجرتي ، وهي قيمة ألف دينار متاعا

بشراء سيراف (ثغر على خليج العرب) والا لم اصعد . فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ونزلت وجماعة من المركب اليه ، وهو فى البحر ترفعه الامواج وتضعه ، فسلمنا عليه وتضرعنا اليه فى الصعود (معنا) ، فقال : حالكم اقبح من حالى ، وانا الى السلامة اقرب منكم ، فان دفعتم لى قيمة ألف دينار متاعا بشراء سيراف ورددتم الى أمر المركب صعدت ، فقلنا هذا مركب فيه امتعة واموال عظيمة وخلق من النـاس ولا يضرنا أن نعرف ما عند عبهرة من الرأى بألف دينـار . وصعد والدونيج والقربة معه الى المركب فلما حصل فيه قال سلمونى متاعا بألف دينار ، فسلمناه أليه ، فلما أحرزه قال للربان : اجلس الى ناحيـــة ، فتباعد ذلك عن موضـــعه (من قيادة المركب) وقال (عبهرة) : ينبغى ان تجدوا فىأمركم مادام عليكم مهلة ، فقلنا فيم ذا ؟ فقال : ارموا الثقل (الحمولة) كله الى البحر ، فرمينا نحوا من نصف حمولة المركب أو اكثر ثم قال : اقطعوا الدقل الاكبر (سهم المركب الكبير) فقطعناه ورمينا به الى البحر ، فلمـــا أصبح قال : ارفعـــوا الاناجر واتركوا المركب يسير لنفسه ، ففعلنا ، فقال : اقطعوا الانجر الكبير ، فقطعناه ، وبقى فى البحر ، ثم قال : ارموا بالانجر الفلانى ، فلم يزل كذلك حتى رمينا فى البحر ستة اناجر . فلما كان فى اليوم الثالث ارتفعت سحابة مثل المنارة ، ثم تفرقت فى البحر ، وأخذنا الخب (اعصار حلزونى شديد) فلولا انا كنا قد رمينا بالحمولة وقطعنا الدقل لكنا قد غرقنا من أول موجة أخذتنا . ولم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها ، والمركب يصعد وينزل بغير أنجر ولا شراع ، لا ندرى كيف نمضى . فلما كان فى اليوم الرابع اخذت الريح فى السكون ، وتم سكونها

وصلاح أمر البحر فى آخر النهار • وأصبحنا فى اليـــوم الخامس والبحر طيب ، والريح مستقيمة ، فأصلحنـــا دقلا ورفعنا الشرع وسرنا وسلم الله . ووردنا الى الصين ، وأقمنا الى ان بعنا واشترينا واصلحنا المركب واخذنا دقـلا بدل الدقل الذى رمينا به فى البحر . وخرجنا من الصين نريد سيراف ولما قاربنا الموضع الذى قدرنا انا راينا فيه عبهـرة اجتزنا بجزيرة وجبال ، فقال عبهرة : اطرحوا الاناجر ففعلنا ، ثم طرحنا القارب الى البحر ، ونزل فيه خمسة عشر رجلا ، وقال لهم : امضوا الى تلك المواضع وأومأ الى بعض الجبال ، فهاتوا الانجر الفلانى ، فعجبنا من ذلك ولم نخالفه ، ومضوا وعادوا وهو معهم ، ثم قال : امضوا الى ذلك الجبل الآخـر واومأ اليه فهاتوا الانجر الفلانى ، فمضوا وعادوا والانجرمعهم . ثم قال ارفعوا الشرع ، فرفعناها وسرنا ، فقلنا له : كيف عرفت أمر هذه الاناجر ؟ فقال : نعم لقبتكم فى هذا الموضع فى وقت مد الماء وقد نقص الماء قدرا صالحا وكنتم فى وسط الجبال والجزيرة ، فأمرتكم بطرح الثقل من الامتعة ففعلتم . ثم فكرت فى امر الاناجر ، فاذا حاجتنا اليها فى الصين غير ماسة ، ولم يبق فى المركب من الامتعة الا ماقيمة وزن الاناجر منه أضعاف قيمة الاناجر ، فرميت بها لذلك لانه لم يكن بد من تخفيف المركب ، فحصلت هذه الاناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة ، وحصلت الثلاثة تحت الماء . فقلنا له : كيف أستدليت على هـــذا النقصـــان والخب (الاعصـــار) فقال : نعم قـــد جرب هـــذا البحـــر قبلى وجربته ، فوجدنا فى راس كل ثلاثين (يوما) ينقص نقصـــا عظيمـــا حتى تنكشف هذه الجبال ، ويكون فى وقت هـــذا النقصـــان خب

عظيم ... وقد انكسر المركب الذى كنت فيه على راس جبل من هذه الجبال ، لان النقصان (الجزر) لحقنى وانا أسير عليه ليلا ، وسلمت فى ذلك المطيال (القارب) ولو بقيتم فى موضعكم (الذى لقيتكم فيه) لما بقيتم فى البحـــر أكثر من ساعة ، ثم يجنح مركبكم وينكسر ، لانكم كنتم على الجزيرة ان جنحتم عليها انكسرتم »

ملح وبركة

كان سعيد الفقير رجلا صالحا من اهل عدن يضفر القفاف والخوص ، ويلزم مسجدا يصلى فيه سائر الصلوات ، وكان له ثلاثة بنين يعيشون معيشة كفاف . وحدث أن بعض البحريين جهز مركبـــا الى كلاه (فى شـــبه جـزيرة المـلايو) وكان صديقا لسعيد ، فلما عزم على المسير قال له : اسألنى أى حاجة أؤديها لك ، فاشترى سعيد بنصف درهم جرة من خزف خضراء وبربع درهم ملحا جريشا وجعله فيها ، ودفعها اليه ، وقال له : هذه بضاعتى ، قال له : فما اشترى لك ؟ قال : اشترلى بركة كما تقول الناس . وابحر المركب ووصل الى كلاه ، وباع الربان مافيه . ونسى الجرة ، فبينما هو ذات يوم فى سوق كلاه وقد حان وقت رحيله اذا رجل يجر سمكة فى حبل وينادى : من يشترى بركة . فلما سمع ذلك ذكر جرة سعيد الفقـــير ، فدعا صاحب السمكة وسأله عنها ، فقال : هـــذا جنس من السمك يسميه الصيادون بركة ، فقال فى نفسه : لعـــل الرجل أراد هذه السمكة بعينها فاشتراها على أن يعطيـــه بالثمن وزن أوقيتين من الملح ، وأجلسه ، وأرســـل بعض أصحابه الى المركب ، فجاء بالجرة ، واعطى الرجل من الملح ما اتفق عليه . وامر الربان بحمل السمكة الى المنزل الذى

يسكنة ، ووضع السمكة لتملح ببقية الملح • وبينما هـم يخرجون ما فى جوفها اذ وجدوا صدفة ، فشقوها ، فوجدوا فيها درة . فقال الربان : هـذا رزق الله الى سعيد ، وملح السمكة ، وحفظ الدرة . وابحروا من كلاه الى عدن ، واعطى الدرة الى سعيد ،فعاش بعد حصولها فى يده مدة يسيرة ثم مات ، فأخذها ابنه الاصغر ، وخـرج الى سر من رأى (بلدة بجوار بغداد) الى الخليفة ، وهو يومئذ المعتمد ، فباعهـا ل بمائة الف درهم ، وكانت قيمتها أضعاف ذلك

خاتم غريق

خرج مركب من سيراف (ميناء بخليج العرب) الى البصرة فاستقبله خب (اعصار) بعد خروجه بأيام ، وانقطعت المراكب، وتعلقت القلوب بأخبار البحر وتأخرت المراكب فيه . وكان فى المركب المذكور خلق كثير من الركاب ، وأمتعة ذات قـدر ، وتصادف ان امراة اشترت سمكا ، وبينما هى تنظفه اذ وجدت فى واحدة منه خاتما ، وامعنت النظر فيه،فاذا هو خاتم أخيها، وكان ممن ركب فى ذلك المركب،فصرخت وارتفع معها الصراخ. وشاع الخبر ، فصارت منازل جميع من كان له فى المركب قريب او صديق او عزيز مأتما . ثم جاء الخبر بعد أيام ان المركب انكسر ولم يسلم منه أحد

اكلة لحوم البشر

حكى رجلٌ من أهلِ البصرة كان ينزل فى شارع قريش انه خرج من بلدته فى مركب الى بحر الهند ، فانكسرت ، والقت به الامواج الى جزيرة ، قال :

« فصعدت تلك الجزيرة ، وتعلقت بشجرة كبيرة ، وواريت شخصى بين أوراقها وبت ليلتى ، فلما اصبحت رايت غنما قد اقبلت نحو مائتى راس ، يسوقها رجل لم أر مثله ، عظيم الخلقة ، طويل عريض ، بشع المنظر ، ومعه عصاة يسوق بها غنمه ، فقعد على ساحل البحر ساعة ، والغنم ترعى بين الشجر ، ثم طرح نفسه على وجهه ، فنام الى حدود نصف النهار ، ثم قام فرمى بنفسه فى الماء ، واغتسل وخرج ، وهو عريان ليس عليه الا ورقة تشبه ورق الموز ، الا انها اعرض منه ، وقدجعلها فى وسطه كالمئزر (ثوب نصفى) ثم عمد الى شاة فقبض رجلها ، واخذ ضرعها فى فيه ، وامتصه ، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم ، ثم استلقى فى ظل شجرة . ولم يلبث أن وقع طائر على الشجرة التى أنا فيها ، فأخذ حجرا ثقيلاً وقذف به الطائر ، فأصابه وسقط بالقرب منى ، فأومأ الى بيده أن انزل . ولخوفى منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا . وأخذ الطائر ورمى به الى الارض ، وقدرت أن وزنه لا يقل عن مائة رطل ، ونتف ريشه وهو حى يضطرب ، ولما نتفه اخذ حجرا قدر عشرين رطلا ، فضرب به راسه ، وتركه حتى مات . ثم لم يزل يضربه

بالحجر حتى شقه ، ثم جعل ينهشه باسنانه ، وياكل منه كما تاكل السباع حتى أتى عليه ، ولم يبق الا عظامه . ولما اصفرت الشمس قام واخذ العصا وساق الغنم بعد ان صاح صيحة افزعتنى . واجتمعت الغنم الى موضع واحد ، وأوردها خليجا فى الجزيرة فيه ماء عذب ، فسقاها ، وشرب وشربت وقد أيقنت بالموت · ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعا بين الاشجار ، حوله خشب كثير طولا وعرضا ، وله شبه باب ، ودخلت الغنم ودخلت معها ، واذا فى وسط ذلك الموضع شبه بيت اقيم على خشب وثيق فى ارتفاع نحو عشرين ذراعا . وماعمل شيئا سوى ان اخذ شاة كانت من اصغر الغنم واهزلها، فدق راسها بحجر ، ثم اجج نارا ، وجعل يقطع اللحم بيديه واسنانه كما تفعل السباع ، ورمى اللحم مع الجلد والصوف فى النار ، واكل جميع مافى جوف الشاة نيئا ، ثم عمد الى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وتلك حتى شرب من عدد كثير . ثم صعد فأخذ معه شيئا كان يشربه . ثم نام فجعل يغط كما يغط الثور . ولما انتصف الليل جعلت ادب قليلا قليلا الى موضع النار وتتبعت مابقى من اللحم ، فأكلت مايمسك رمقى ، وكنت خائفا أن تنفر الغنم فينتبه ، فيجعلنى مثل الطائر او كالشاة . وبقيت مطروحا الى الغد . فلما اصبح نزل وساق الغنم وساقنى معها ، وكان يكلمنى فلا أفهم كلامه ، وكلمته بما اعرف من اللغات فلم يفهم منى شيئا ، وكان قد صار على شعر عظيم ، واظنه لما رآنى على تلك الصورة القبيحة عافتنى نفسه ، فأخر اكلى . ولم أزل معه فى تلك الحال عشرة أيام ، يفعل كل يوم مثل مافعله فى سابقه ، ولا يمضى يوم دون أن يصطاد طائرا او طائرين ، وان حصل له من الطيور مايشبعه لم يأكل شيئا

من الغنم ، وان قلت الطيور اكل شاة . وصرت أعاونه فى وقود النار وجمع الحطب واخدمه ، وأدبر الحيلة لنفسى حتى أخلص منه ، الى أن مضى لى عنده شهران ، وصلح جسمى . ورايت فى وجهه آثار السرور ، وفهمت انه عزم على أكلى ، وكان يأخذ ثمرا من شجر فى الجزيرة ينقعه فى الماء ، ثم يصفيه ويشربه ، فيسكر طوال ليلته ، حتى لا يعقل . وكنت ارى فى تلك الجزيرة طيورا كبارا كالفيل والجاموس واكبر واصغر ، ومنها شىء قد اكل بعض غنمه ، ولذلك يبيت هو وغنمه فى تلك الحظيرة خوفا من تلك الطيور . وفى ليلة من الليالى صبرت حتى سكر ونام ، فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصنا من اغصانها الى الارض ، ومضيت على وجهى اطلب صحراء قد كنت رايتها من تلك الشجرة . ولم ازل أمشى الى الصباح ، ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعى خشبة قد أعددتها ، حتى ان لحقنى ضربت بها راسه ، فاما ان أقتله واما ان يقتلنى ، والموت على كل حال لابد منه . ومكثت يومى هذا فى الشجرة ، ولم اره ، وقد كنت أخذت معى قطعة من اللحم ، فلما امسيت أكلتها ، ونزلت فمشيت الى الصباح ، فوجدت نفسى فى صحراء وفيها اشجار متفرقة فمشيت وانا لا ارى احدا الا الطيور وحيات ووحوشا لا أعرفها ، ورايت ماء عذبا ، فاقمت بجانبه . وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز وآكل منها والطيور تطوف بالغوطة ، وعاينت طائرا منها ضخما ، فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال ، ولم ازل ارصد الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه ، فتعلقت بساقه وهو مشغول برعيه ، وشددت نفسى بالحبال . ولما فرغ من اكله شرب ماء ، وحلق فى الهواء ، واشرفنا على البحر ، واستسلمت للموت ، ولم يلبث أن انحط

على جبل فى الجزيرة ، فحللت نفسى من ساقه ، وانا ضعيف ، وجعلت اجر نفسى خوفا منه ، ونزلت من الجبل وتعلقت بشجرة ، واخفيت شخصى فيها . ولما اصبحت رايت دخانا ، فقلت لابد ان عنده ناسا ، ونزلت امشى الى ناحيته ، فما مشيت قليلا حتى استقبلتنى جماعة ، واخذونى وكلمونى كلاما لم افهمه ، وحملونى الى قريتهم ، وادخلونى فى منزل حبسونى به مع تسع انفس ، فسألونى عن خبرى ، فحدثتهم وسألتهم عن خبرهم فحدثونى انهم اهل مركب كان قد خرج من الصنف (الهندالصينية) الى الزابج(جزرالهندالشرقية) فخرج عليهم خب (اعصار) كسر مركبهم ، وتخلصوا فى قارب نحو عشرين رجلا ، فوقعوا الى هذه الجزيرة ، فأخذهم قوم فاقتسموهم ، واكلوا منهم نفرا الى هذا الوقت . وتعجبت وقلت فى نفسى : ان مقامى عند صاحب الغنم كان أصلح لى ، وجعلت اتأسى بالقوم . ولما كان الغد جاءونا بسمسم أو شىء يشبهه وموز وسمن وعسل ، وقال لى القوم : هذا طعامنا منذ وقعنا ها هنا . واكلنا مقدار مايمسك رمقنا ، ثم جاءوا فنظروا الينا ، واخذوا احسننا حالا فى جسده فودعناه ، واخرجوه الى وسط المنزل ودهنوه من راسه الى قدمه بالسمن ، ثم اقعدوه فى الشمس مقدار ساعتين ، ثم اجتمعوا عليه ، فذبحوه وقطعوه قطعا ، ونحن نرى ، ثم شووه واكلوه واكلوا اجزاء منه نيئة ، ثم شربوا شرابا ، وسكروا فناموا ، فقلت للقوم : قوموا فنقتل هؤلاء فانهم سكارى ، ونخرج على وجوهنا ، فان سلمنا فالحمد لله ، وان هلكنا فالهلاك اسهل من هذا البلاء ، واختلف راينا بقية يومنا ، واظلنا الليل ، واصبحنا ، فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد . ومضت اربعة أيام على تلك الحال ،

فلما كان اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا رجلا ، ففعلوا به ما فعلوه بالاول . ولما سكروا وناموا قمنا اليهم فذبحناهم بأسرهم ، واخذ كل واحد منا سكينا وشيئا من العسل والسمن والسمسم . ولما اظلمت الدنيا خرجنا من المنزل ، ومشينا نطلب الساحل من جانب آخر غير جانب القرية . ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن ثمانية ، خوفا من القوم . ولما جن الليل نزلنا ومشينا مهتدين بالكواكب ، وامنا من هؤلاء الناس ، فكنا نمشي نهارا ونستريح ونأكل من ثمار الجزيرة وهي كثيرة الموز ، وما زلنا نمشي حتى وقعنا في غوطة حسنة ، وفيها ماء عذب طيب ، فعزمنا على المقام بها ابدا الى ان يقع الينا مركب أو نموت فيها ، فمات منا ثلاثة ، وبقينا خمسة . وبينما نحن في بعض الايام نمشي واذا بقارب قذف به الموج وفيه جماعة قدماتوا ، والقارب جانح في الطين والموج يضربه وهو مطروح ورمينا بهم في البحر وغسلنا القارب ، وصنعنا له دقلا من الشجر ، وسوينا حبالا من خوص النارجيل (جوز الهند) وشراعا من الليف ، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة واخذنا معنا ماء ، وكان بيننا ملاح يعرف السفر في البحر ، وسرنا نحو خمسة عشر يوما ، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد اهوال وعجائب مرت بنا ، واخبرنا الناس بخبرنا ، فجمعوا لكل منا زادا ، وخرج كل منا يقصد بلدا . ورجعت الى البصرة بعد أربعين سنة من غيبتي ، وقد مات أكثر أهلي ووجدت لابي ولدا لم اكن أعرفه ، وكانوا لما انقطع خبري قسموا مالي ، فلم يصل الى منه شيء »

وزغة بجاوه

قال بعض الملاحين : كنت عند صاحب صنداپور (جاوه)

يوما ما أتحدث اذ ضحك ، فقال : اتدرى لم ضحكت ؟ قلت : لا ، فقال : على الحائط وزغة تقول : الساعة يجيء ضيف غريب. فعجبت من حماقته ، وأردت الانصراف بعد ساعة ، فقال : لاتبرح حتى تنظر آخر امر هذه الوزغة . وانا لفى حديثنا اذ دخل بعض اصحابه ، فقال : وافى الخور (الخليج) من عمان مركب ، ثم لم نلبث الا ساعة ، حتى دخل جماعة ومعهم اقفاص فيها قماش ومتاع وماء ورد ، ففتح منها قفص ماء ورد ، فقفزت منه وزغة كبيرة ، وصعدت الى الحائط تعدو الى الوزغة الاولى ، فصارت الوزغة وزغتين وانا ارى

تماسيح مسحورة

دخل الى سرنديب رجل هندى صاحب رقى وكهانة وسحر ، فصادف صديقا ، فقال له : اتريد ان اريك شيئا ظريفا ، فقال نعم ، فجلس على الخور (الخليج) وتكلم بكلام ، ثم قال له : ان شئت فادخل الخور ، فان التمساح لايؤذيك ، وان شئت فأحضر من يدخل ، وان شئت دخلت انا ، فقال له : تدخل أنت ، فدخل هو ، ثم دخل الآخر ، ثم دخل ثالث ، فجعل التمساح يطوف بهم ولا يؤذيهم . ثم صعدوا ، فقال له: تحب ان اخلى عن التماسيح ، فقال : افعل ، وطرحوا كلبا ، فقطعه التمساح . فبلغ صاحب سرنديب خبره ، فأحضره ، وقال : عندك كذا وكذا من سحر التماسيح ، فقال : نعم ، فركب معه الى الخليج ، واحضر رجلين يريد قتلهما لجناية ، فقال له : تكلم على الخور ، فتكلم ، وادخل احد الرجلين الخور ، فأطافت به التماسيح ، ولم تعرض له ، ثم قال له : خل عنها ، فتكلم ، فقطعت التماسيح الرجل عضوا عضوا ، ثم قال له : قد فعلت فعلا حسنا ، ووجبت مجازاتك ، فخلع

عليه ، ووهب له شيئا ووعده ومناه . ولم يزل الرجل يتحول من موضع الى آخر حتى رقى جميع التماسيح . فخور سرنديب لايؤذى التمساح فيه احدا

رضيع تتقاذفه الامواج

قالت امراة من أهل الابلة (ميناء البصرة) : كان لوالدى صديق من بانانية (نوتية) المراكب المختلفة من عمان الى البصرة ، وكان اذا ورد المركب الذى هو فيه من عمان نزل الينا واقام عندنا اياما ، واهدى الينا ، واذا اراد الخروج فعلنا مثل ذلك ، واهدينا اليه مايمكننا . وكان رجلا مستورا ، فزوجنى ابى به ، وما مضت غير ثلاث سنين حتى توفى ابى ، فقال لى : قومى حتى احملك الى عمان ، فان لى بها والدة واهلا ، فخرجت معه الى عمان ، وكنت مع اهله بها مقدار اربع سنين ، وهو يختلف بين عمان والبصرة . ثم توفى بعمان بعد أن ولدت هذا الصبى بخمسة اشهر . فلم يطب لى المقام بعمان ، لان مقامى بها كان بسببه ، فقلت لوالدته وأهله : أريد أن ارجع الى أهلى بالابلة ، فقالوا لى : ان أقمت عندنا قاسمناك حياتنا ، فليس لنا فى الدنيا غير هذا الصبى ، وسالونى ذلك ، فأبيت . ولما عزمت على الخروج اشتريت للصبى سريرا وثيقا من خيزران ، وجعلت فيه ثيابا كنت قد جمعتها لى وللصبى وذخيرة من الدراهم كنت قد ادخرتها . وغطيت ذلك كله واحكمته ، وجعلت الصبى فوقه . وخرجت فى مركب يريد البصرة ، فبينما نحن سائرون اذ اخذنا خب (أعصار) فانكسر المركب فى نصف الليل ، وتفرقت الركاب والبانانية فى البحر ، فلم ير أحد منا صاحبه . وتعلقت بلوح من الالواح ، واحكمت نفسى عليه ، وظللت فوقه الى نصف النهار فى الغد ،

اذ رآنا صاحب مركب مجتاز ، فجمع من الماء نحو عشرة انفس كنت أنا أحدهم . وحملنا الى مركبه ، ونكسوا رءوسنا لنقذف الماء الذى شربناه فى البحر ، وسقونا أدوية ، وعالجونا حتى رجعت نفوسنا الينا . وانا فى هذه الاثناء قد نسيت ابنى لما انا فيه وزال الفكر فيه عن قلبى . وظللت هكذا مدة طويلة ، حتى سمعت صاحب المركب يقول : انظروا هذه المرأة واسألوها : ألها لبن ، فان هذا الصبى الذى انقذناه من فوق اللجج يموت ، فقالوا لى : ألك لبن ؟ . فتذكرت ابنى ، وقلت : قد كان لى لبن ، ولاأظن انه بقى منه شىء لما مر بى من الاهوال ، فقالوا : الحقى هذا الصبى قبل أن يموت . فجاءونى بالسرير ، وفيه الطفل بحاله ، مافتحوه ولا اخذوا منه شيئا ، فلما رأيته وقعت على وجهى وصرخت وغشى على . فرشوا على الماء ، وأفقت بعد ساعة ، واقبلت ابكى واضم الطفل ، فقالوا : ايتها المرأة مالك ؟ فقلت : هذا الطفل ابنى . فقام صاحب المركب الى ، وقال : ان كان ابنك فاى شىء الذى تحته ؟ فاقبلت اعد عليهم ماتحته ، وجعلوا يخرجون شيئا بعد شىء كأنه انما وضع الساعة ، فما منهم أحد الا بكى بكاء عظيما، وحمدت الله وشكرته أن جمع بينى وبين ابنى على تلك الصورة

الدرة اليتيمة

كان بعمان رجل يقال له مسلم بن بشر ، وكان مستورا جميل الطريقة ، وكان ممن يجهز الغواصة فى طلب اللؤلؤ ، وكانت بيده بضاعة ، فلم يزل يجهز الرجال للغوص ، ولاترجع اليه فائدة ، حتى ذهب جميع ماكان يملكه ، ولم تبق له حيلة ، ولا ذخيرة ، ولا ثوب ، ولا شىء يمكن بيعه ، الا خلخالا لزوجته بمائة دينار ، فقال لها : اقرضينى هذا الخلخال الأجهز الغواصة به ، فلعل الله تعالى يرسل لنا شيئا ، فقالت له : يأيها الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شىء نعول عليه ، وقد هلكنا وافتقرنا ، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن نتلفه فى البحر . فتلطف بها وأخذ الخلخال وباعه وجهز بجميعه الرجال للغوص وخرج معهم . ومن شرط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين للعمل لاغير ، وعلى هذا يتشارطون . فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوما ويخرجون الصدف ويفتحونه ، فلا يحصل لهم شىء ، فلما كان اليوم الستون غاصوا على اسم ابليس لعنه الله ، فوجدوا فيما اخرجوه صدفة ، استخرجوا منها حبة لها قيمة كبيرة ، لعل ثمنها يوفى بجميع ماكان يملكه مسلم منذ كان ، والى وقته ، فقالوا له : هذه وجدناها على اسم ابليس ، لعنه الله ، فأخذها وسحقها ورمى بها فى البحر . فقالوا له : ايها الرجل لم فعلت هذا ؟ لقد افتقرت وهلكت ، ولم يبق لك أمل فى ان يقع لك مثل هذه الحبة التى لعلها تساوى آلافا من الدنانير ، فتسحقها! فقال : سبحان الله ! كيف أستحل أن أنتفع بمال استخرج على

اسم ابليس ، وانا اعلم ان الله تبارك وتعالى لايباركلى فيه ،وانما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ، ويعرف الناس اعتقادى . ولئن انتفعت بها ليقتـدين كل الناس بى ، فـلا يغوصون الا على اسم ابليس ، لعنه الله ، فاثم ذلك اكبر من كل فائدة وان كبرت ، ووالله لو كان مكانها كل لؤلؤ فى البحر ما اخذته . امضوا فغوصوا وقولوا : باسم الله وبركة الله . فغاصوا على مارسم لهم ، فما صلى صلاة المغرب فى ذلك اليوم ، وهو آخر يوم من الستين المشترطة حتى حصل بيده درتان : احداهما اليتيمة ، والاخرى دونها بكثير ، فحملهما الى هارون الرشيد ، فباع اليتيمة بسبعين الف درهم ، والصغرى بثلاثين الف درهم . وانصرف الى عمان بمائة الف درهم ، فبنىبها دارا عظيمة ، واشترى ضياعا واعتقر عقارا ، وداره معروفة بعمان

ربان ضرير فى بحر الصين

ركبت هذا البحر فى جمع من التجار ، فهبت علينا ريح عاصفة فى بعض الايام ، صرفت المركب عن قصده ، ومشت به ماشاء الله ، وكان ربان المركب شيخا حاذقا الا انه كان أعمى ، وكان يستصحب كل مرة يسافر فيها حبالا كثيرة، وكان أصحابه ينكرون عليه ذلك ، ويقولون له : لو حملنا مكان الحبال أحمال التجار لاصبنا خيرا كثيرا ، وكان يرد عليهم قولهم ويمنعهم منه . فلما أصابنا ما اصابنا من الريح كان يقول لاصحابه فى كل وقت : انظروا ماذا ترون ؟ وهم يخبرونه بالحال الى ان قالوا : نرى طيورا سوداء على وجه الماء ، فجعل يدعو بالويل والثبور، ولطم وجهه، وقال : هلكنا والله، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : سترون عيانا ما يغنيكم عن اخبارى ، فما مر ألا يسير حتى وقعنا فى الدردور (الاعصار الحلزونى الدائر) وهو اذا وقع فيه مركب لا يزال يدور ولا يخرج منه البتة . ونظرنا فرأينا الطيور السوداء مراكب قد اغرقها الدردور، وانتشر على سطح البحر من كانوا فيها جثثا طافية . فأخذنا الخوف والفزع ، وانقطع رجاؤنا من الحياة ، وانتظرنا الموت المحقق . فلما شاهد منا الربان تلك الحالة قال : ياقوم ! اجعلوا لى نصف أموالكم على اخراجكم من هذه الغمة ، وانا أحتال فى خلاصكم

ان شاء الله تعالى ، فقلنا نعم قد رضينا ، فأمر بأخذ قربات مملوءة من الدهن (الزيت) وادلائها فى البحر ، فصنعنا ما أمر به فاجتمع عليها من السمك عدد لايحصى . ثم امرنا أن نجمع الجثث الطافية ونشدها بالحبال التى كانت عنده فى المركب ونرمى بها فى البحر ،ففعلنا واجتمع عليها السمك . ثم امرنا بضرب الطبول والاخشاب والصياح والتصفيق ، واذا بالمركب قد تحرك من مكانه وجرى ولم يزل يجرى حتى خرجنا من الدردور . فصاح : اقطعوا الحبال عاجلا ، فقطعناها ونجونا بقدرة الله من الهلاك والموت .

آية للناس

قال رجل من اصبهان (فى ايران) : ركبتنى ديون كثيرة ونفقة عيال عجزت عنها ، ففارقت أصبهان ، ودارت بى الدوائر حتى ركبت البحر فى جمع من التجار ، فتلاطمت بنا الامواج حتى صار المركب فى الدردور فى بحر الهند ، فقال الربان : ياقوم هذا الدردور لا يتخلص منه مركب الا اذا شاء الله ، فقال القوم هل تعرف لنا طريقا للخلاص فنسعى فيه ، فقال : أن سمح احدكم بنفسه لاصحابه تخلصنا ، فقلت : ياقوم نحن كلنا فى معرض الهلاك ، وانا رجل كرهت الحياة ، وسئمت البقاء ، وكنت اتمنى الموت . وكان فى السفينة جمع من التجار الاصبهانيين ، فقلت : احلفوا لى انكم تقضون ديونى ، وتحسنون الى اولادى ، وانا افديكم بنفسى وأوثركم بحياتى ، فحلفوا لى على ذلك ، فقلت للربان : انا اسمح بنفسى لاصحابى فماذا تأمرنى أن افعل ، فقد سلمت نفسى لله طلبا لخلاصكم ان شاء الله تعالى ، فقال لى الربان : آمرك أن تقف ثلاثة أيام بلياليها على ساحل هذه الجزيرة ، وكانت بقرب الدردور ، ولا

تفتر عن الضرب على هذا الطبل أبدا ، فقلت لهم افعل ذلك ، فحلفوا لى ايمانا مغلظة على ماشرطته عليهم ، وأعطونى من الماء والزاد مايكفينى أياما ، وانزلونى على ساحل الجزيرة ، فوقفت وشرعت فى ضرب الطبل ، فرأيت المياه تحركت وجرت بالمركب وانا انظر اليه ، حتى غاب عن بصرى . فلما فرغت من ذلك جعلت اطوف بتلك الجزيرة فاذا انا بشجرة عظيمة لم أر أعظم منها ، وعليها شبه سطح عريض . فلما كـــان آخر النهار احسست بهدوء شديد ، فاذا طائر عظيم ابيض اللون ، لم ار حيوانا أعظم منه ، وقع على ذلك السطح . فاختفيت خوفا منه ان يصطادنى ، الى أن بدا ضوء الصباح ، فنفض جناحيه وطار . فلما كانت الليلة الثانية ، جاء الطير وسقط على سطح الشجرة كما فعل البارحة ، فـدنوت منه ، فلم يتعرض لى بسوء ولا التفت الى ، وطار عند الصباح . فلما كانت الليلة الثالثة جاء الطير على عادته ، فقعدت عنده من غير خوف ، الى ان نفض جناحيه عند الفجر ، فتعلقت برجليه ، بكلتا يدى ،فحملنى وطار بى أسرع طيران الى أن ارتفع النهار ،فنظرت نحو الارض ، فما رايت غير لجة البحر ، وكدت اترك رجليه لشدة ما نالنى من التعب ، ثم حملت نفسى على الصبر ، الى ان نظرت نحـــو الارض ، فرأيت القرى والعمارات تحتى ، فذهب ما كان بى من شدة التعب . ودنا من الارض ، فرميت بنفسى على كومة تبن فى بعض القرى ، والناس ينظرون الى . ودوم (دار) الطائر فى الهواء وغاب عنا ، فاجتمع النـــاس على وحملونى الى حاكمهم ، فأحضر رجلا يفهم لسانى ، فقال لى : من انت ، فحدثته بحديثى كله فتعجبوا منه ، وتبركوا بى ، وامر لى الحاكم بمال كثير ، واقمت عنـــدهم اياما .

وخرجت يوما لاتفرج ، فمشيت الى طرف بحر ، كنت اراه على بعد ، فاذا انا بالمركب الذى كنت فيه قد ارسى ، ولم يلبث اصحابى أن راونى ، فاسرعوا الى سائلين عن حالى ، فقلت لهم: انى بذلت نفسى لله فانقذنى ، وجعلنى آية للناس ورزقنى المال وأوصلنى الى وجهتنا قبلكم ، فتعجبوا غاية التعجب ، وحملونى معهم الى أهلى ، وقاموا لى بمال فوق ما اشـــترطت ، فعدت بخير وغنى وسلامة

الجزيرة المحترقة

حكى بعض التجار قال : ركبت بحر الزنج (غربى المحيط الهندى) فدارت بى الدوائر حتى حصلت فى هذه الجزيرة ، فرأيت فيها خلقا كثيراً ، فبقيت بها زمانا واستأنست بأهلها وتعلمت شيئا من لغتهم ، فلمـــــا كانت بعض الليالى رأيت الناس مجتمعين ينظرون الى كوكب طلع من افقهم ، وهم يبكون ويلطمون وينادون بالويل والثبور ، فسألت بعضهم عن سبب ذلك ، فقال : ان هذا الكوكب يطلع فى كل ثلاثين سنة مرة ، فاذا وصل الى سمت رءوسنا احترق جميع ما فى هذه الجزيرة ، ورأيتهم يشتغلون بأعداد مراكب ، نقلوا اليها جميع ما يخافون عليه من المال والامتعة . ولما قرب الكوكب من سمت رءوسهم ركبوا السفن وركبت انا ايضا معهم ، وسرنا فى البحر وغبنا عن الجزيرة مدة . ولما زال الكوكب عن سمت رءوسنا عدنا الى الجزيرة فوجدنا جميع ما كان بها من الاشجار والبنيان قد احترق وصار رمادا . وشرعوا فى العمارة ثانيا . ولا يزالون كذلك على الدوام فى كل ثلاثين سنة تحترق الجزيرة ويجددون بناءهـــا

من كتاب خريدة العجائب :

بيضة الرخ

ذكر عبد الرحمن المغربى انه سافر فى بحر الصين ، فألقتهم الريح فى جزيرة عظيمة كبيرة واسعة ، فنزل بها أهل السفينة ليتزودوا منها ، ونزل معهم ، فرأوا فى الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لماعة براقة أعلى من مائة ذراع ، فقصدوها ، ودنــــوا منها ، فاذا هى بيضة الرخ ، فجعلـوا يضربونهـــا بالفئوس والصخور والخشب ، حتى انشقت عن فرخ الرخ وكأنه جبل راسخ ، فتعلقوا بريشة من جناحه ، واجتذبوها حتى قلعوها ، وقتلوه ، وحملوا ما أمكنهم من لحمه ، ورحلوا ، وطبخ بعضهم من هذا اللحم وأكلوا وكان فيهم مشايخ بيضَ اللحى ، فلمـــا أصبحوا وجدوا لحاهم قد اسودت ، ولم يعد الشيب بعد ذلك الى أحد منهم ، فكانوا يقولون ان العود الذى حركوا به ما فى القدر من لحم فرخ الرخ كان من شجرة الشباب . ولما طلعت الشمس ونحن فى السفينة وهى تجرى بنا أقبل رخ ضخم يهوى كالسحابة العظيمة ، وفى رجليه قطعة من جبل كالبيت الكبير ولما حاذى سفينتنا من الجو القى ذلك الحجر عليها ، غير أنها كانت مسرعة سرعة شديدة ، فسبقت الحجر ووقع فى البحر وكان لوقوعه هول عظيم . وكتب الله لنا السلامة ونجانا من الهلاك

جزيرة الحكماء

هى جزيرة خيالية ، روى ابن الوردى ان الاسكندر ذا القرنين وصل اليها ، فرأى بها قوما لباسهم ورق الشجر ، وبيوتهم كهوف فى الصخر والحجر ، فسألهم مسائل فى الحكمة ، فأجابوه بأحسن جواب والطف خطاب ، فقال لهم : سلوا حوائجكم لتقضى ، فقالوا له : نسألك الخلد فى الدنيا ، فقال : وأنى ذلك لنفسى ؟! ومن لايقدر على زيادة نفس من انفاسه كيف يبلغكم الخلد ، فقالوا له : نسألك صحة فى ابداننا مابقينا ، قال : وهذا ايضا لا اقدر عليه ، قالوا : فعرفنا مابقى من أعمارنا ، فقال : انى لا أعرف ذلك لنفسى ، فكيف اعرفه لكم . فقالوا : دعنا نطلب ذلك ممن يقدر عليه وعلى أعظم منه ، وهو ربنا وربك ورب العالمين .

وجعل الحكماء ينظرون الى كثرة جنود الاسكندر ، وعظمة موكبه ، وكان بينهم حكيم لم يهتم بذلك ولا رفع راسه اليه ، فقال له الاسكندر : مالك لاتنظر الى ماينظر اليه النـــاس متعجبين ، فأجابه بقوله : ما أعجبنى الملك الذى رأيته قبلك حتى انظر اليك والى جنودك وموكبك ، فقال الاسكندر ، وكيف ذاك ، قال الحكيم : كان عندنا ملك وآخر مسكين فماتا فى يوم واحد ، وكنت غائبا ، ورجعت ، فاجتهدت أن أعرف الملك من المسكين فلم اعرفه

الاسكندر والتنين

ظهر فى جزيرة ببعض السنين تنين عظيم ، فكاد ان يهلك الجزيرة وما بها من السكان والحيوان ، فاستغاث الناس منه بالاسكندر ، وكان قد قارب جزيرتهم ، فذهبوا اليه ، وقالوا له : ان التنين قد اكل مواشينا ، واتلف أموالنا ، وقطع الطريق

على الناس ، وفى كل يوم نقدم له ثورين عظيمين ننصبهما له ، فيأتى اليهما فى سحابة سوداء ، وعيناه تتوقدان وتلمعان كالبرق الخاطف ، بينما يلفظ النار والدخان من فمه . ويهجم على الثورين ، فيبتلعهما ، ويرجع الى مكانه فى السحاب • فسار الاسكندر الى الجزيرة وأمر بالثورين فسلخا ، وحشا جلودهما زفتا وكبريتا وزرنيخا ونفطا وزئبقا ، وجعل مع ذلك كلاليب من حديد . واقامهما فى نفس المكان المعهود ، فجاء التنين من الغد اليهما على العادة فابتلع الثـورين وجلودهما ، فاشتعلت النار بجوفه ، وتعلقت الكلاليب بأحشائه ، وسرى الزئبق فى جسده ، وذهب يضطرب الى مقره . فانتظروه فى الغـد ، فلم يأت ، فذهبوا الى موضعه الذى يجىء منه ، واذا هو ميت ، وقد فتح فاه كأوسع قنطرة وأعلاها ، ففرحوا بذلك ،وشكروا للاسكندر سعيه ، وحملوا اليه هدايا عجيبة ، منها دابة يقال لهـا المعـراج ، مثل الارنب صفراء اللون ، وعلى راسهـا قرن واحد أسـود ، وهى دابة لا يراها شىء من السـباع الضوارى والوحوش الكاسرة الا هرب منها ، لا يلوى على شىء

من كتاب سلسلة التواريخ :

تقليد متوارث فى الزابج

للزابج ملك يسمى المهراج ، قصره على واد كوادى دجلة ، يطغى عليه ماء البحر بالمد، وينضب عنه بالجزر، ويتصل به غدير صغير يلاصق قصر الملك . ومن تقاليدهم المتوارثة أن قهرمان الملك يدخل عليه فى صبيحة كل يوم ، ومعه لبنة قد سبكها من ذهب ، خفى عنى مقدار قيمتها ، فيطرحها بين يديه ، ثم يلقيها فى ذلك الغدير ، فاذا كان المد علاها هى وما اجتمع معهـــا من أمثالها ، واذا كان الجزر انحسر عن اللبنات جميعا ، فلاحت فى الشمس ، فيراها الملك من مجلسه المطل عليها ٠ ولايزال ذلك الحال: القهرمان يطرح كل يوم فى ذلك الغدير لبنة من ذهب ماعاش الملك من الزمان ، ولا يمس شيئا منها ٠ فاذا مات الملك أخرجها القائم من بعده كلها ، ولا يدع منها شيئا ، وتحصى ، ثم تـذاب وتفرق على أهل بيت المملكة ، رجالهم ونسائهم وأولادهم وقوادهم وخدمهم ، على قدر منازلهم ومارسم لكل صنف منهم ٠ وما فضل بعد ذلك أعطى لاهل المسكنة والضعف ٠ ويدون عدد لبنـــات الذهب ووزنها ، ويقال ان فلانا ملك من الزمان كذا سنة وخلف من اللبنات فى غدير الملوك كذا لبنة ، وأنها فرقت بعد وفاته على أهل مملكته ٠ والفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد لبنات الذهب فى تركته

حرب بين الزابج والقمار (سيام)

ومن أخبارهم فى القديم ، أن ملكا تقلد الملك على بلاد القمار فى قديم الزمان ، وكان صغيرا متسرعا ليست عنده حنكة ، فجلس يوما فى قصره ووزيره بين يديه ، فقال له ، وقد جرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها وكثرة عمارتها وماتحت يده من الجزائر الكثيرة : فى نفسى رغبة أحب بلوغها • فقال له الوزير وكان ناصحا وقد عرف منه طيشه وتسرعه : ما هى أيها الملك ؟ قال : أحب ان أرى رأس المهراج ملك الزابج فى طست بين يدى فعلم الوزير أن الحسد أثار هذا الفكر فى نفسه ، فقال : أيها الملك ما كنت أحب أن يحدث الملك نفسه بمثل هذا ، اذ لم يجر بيننا وبين هؤلاء القوم لا فى فعل ولا فى حديث ترة (ثأر) ولا رأينا منهم شرا ، وهم فى جزر نائية ، ولا يجاوروننا ولا يطمعون فى ملكنا ، ولا ينبغى أن يقف على هذا الكلام أحد ولايعيد الملك فيه قولا . فغضب الملك ولم يسمع من ناصحه ، وأذاع رغبته تلك فى قواده ومن كان يحضره من وجوه أصحابه فتناقلته الالسن حتى شاع واتصل بالمهراج ، وكان محنكا ، قد بلغ فى السن مبلغا متوسطا ، فدعا بوزيره وأخبره بما اتصل به وقال له : لا يصح ، مع ما شاع من أمر هذا الجاهل وتمنيه ما تمناه بحداثة سنه وقلة تجربته وانتشار ذلك من قوله ، أن نمسك عنه ، فان ذلك مما يفت فى عضد ملكنا ويضع منه ، وأمره بستر ما جرى بينهما ، وأن يعد له ألف مركب من أوساط المراكب بآلاتها ، وينتدب لكل مركب منها جملة من عدة السلاح وشجعان الحرب ، وأظهر أنه يريد التنزه فى جزائر مملكته . وكتب الى ملوكها الداخلين فى طاعته بما عزم عليه من زيارتهم والفرجة فى جزائرهم حتى شاع ذلك ،وتأهب

ملك كل جزيرة لاستقباله . ولما استتب له أمر المراكب وأعدها عبر بها وبالجيش الى مملكة القمار ، واتجه توا الى الوادى المفضى الى قصر الملك ، وأحاط بالقصر فجأة،ووقع الملك أسيرا فى يده. فأمر أن ينادى فى قمار بالامان ، وأحضر الملك ووزيره ، وقال له : ما حملك على تمنى ما ليس فى وسعك ؟ فلم يحر جوابا ، ثم قال له : أما انك لو تمنيت مع ما تمنيته من النظر الى رأسى فى طست بين يديك اباحة أرضى وملكها لاستعملت ذلك فى مملكتك ، ولكنك تمنيت شيئا بعينه ، فأنا منزله بك ، وراجع الى بلدى من غير أن أمد يدى الى شىء من بلادك مما دق وعظم ، لتكون عظة لمن بعدك . ثم ضرب عنقه ورجع الى بلاده . واتصل الخبر بملوك الهند والصين ، فعظم المهراج فى أعينهم ، وصارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما أصبحوا قاموا وحولوا وجوههم نحو بلاد الزابج ، فسجدوا للمهراج تعظيما له !

لؤلؤة فى فم ثعلب

من عجائب الرزق أن أعرابيا ورد البصرة فى قديم الايام ، ومعه حبة لؤلؤ لا يعرف قيمتها ، فصار بها الى عطار كان يألفه فأظهرها له ، وسأله عنها وعن قيمتها ، فأخبره انها لؤلؤة،فقال له : وما قيمتها ؟ قال العطار : مائةدرهم،فاستكثر الاعرابى ذلك، وقال له : هل أحد يبتاعها منى بما قلت ؟ . فدفع له العطار : مائة درهم وأخذها ، فقصد بها مدينة دار السلام (بغداد) فباعها بجملة من المال ، واتسع العطار فى تجارته . وكان قد سأل الاعرابى عن كيفية عثوره على حبة اللؤلؤ ، فقال له : مررت بالصمان من أرض البحرين ، فى موضع بينه وبين الساحل مدة قريبة ، فرأيت فى الرمل ثعلبا ميتا ، قد أطبق فمه على شىء ، وأمعنت النظر فوجدت هذا الشىء كمثل الطبق ، وجوفه

يلمع بياضا ، ووجدت هذه اللؤلؤة فى الطبق (الصدف) فأخذتها
قال العطار : فعرفت سبب حصولها فى فم الثعلب ، فان الصدفة
خرجت الى الساحل ، ومر بها الثعلب ، فلما عاينها ورأى جوفها
وهى فاتحة فمها وثب بسرعة ، فأدخل فمه فيها ، فأطبقت عليه
الصدفة ، ومن شأنها اذا أحست بيد تلمسها أو أى شىء أطبقت
فمها عليه ، ولم تفتحه بأية حيلة ، حتى تشق من آخرها بالحديد
ضنا منها باللؤلؤ وصيانة لها كصيانة المرأة لولدها • فلما
أخذت بفم الثعلب وضاق بها أمعن فى العدو يضرب بها الارض
يمينا وشمالا الى أن أخذت بنفسه فمات • وظفر بها الاعرابى
فكانت من نصيبه

من كتاب نزهة المشتاق :

أقصوصة الفتية المغررين

وهى ليست من قصص المحيط الهندى ، وانما هى من أقاصيص المحيط الاطلسى (آلاوقيانوس أو بحر الظلمات) ، وهى ترمز الى رحلات العرب فى الأندلس نحو الجنوب الغربى من بلادهم ، ومن المؤكد أنهم زاروا جـزائر أزورا وماديرا والخالدات وهى نفسها الجزائر التى يظن أن هؤلاء الفتية فى الاقصوصة زاروها • والادريسى يروى القصة على أنها قصة حقيقية ليس فيها شىء من الخيال ! قال :

« من مدينة أشبونة (لشبونة) كان خروج الفتية المغررين (المخاطرين)الى بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه ، والى أين انتهاؤه ، وذلك انهم اجتمعوا ، ثمانية رجال كلهـم أبناء عم ، فأنشئوا مركبا حمالا ، وادخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر مع هبوب الريح الشرقية ، فجروا به نحوا من احد عشريوما ، فوصلوا الى بحر غليظ الموج،كدر الروائح ، كثير الربوش (الاعشاب) والضباب ، فايقنوا بالتلف فسارعوا الى تغيير وجهتهم ، وجروا فى ناحية الجنـوب أثنى عشر يوما ، فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وهى جزيرة فيها من الغنم ما لاياخذه عد ولا تحصيل،والغنم فيها سارحة ، لاراعى

لها ولا ناظر اليها ، فأرسوا عليها ، ونزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة تين برى ، فأخـذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومهـا مرة لا يقـدر أحد على أكلهـا • فأخذوا من جلودها . وعادوا الى البحر ، فساروا الى الجنوب اثنى عشر يوما ، الى آن لاحت لهم جزيرة ، ولما اقتربوا منهـا راوا فيها عمارة وحرثا فقصدوا اليها ليروا مافيها . فما كان غير بعيد حتى احيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا ، وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار فرأوا بها رجالا شقراً ، شعورهم مسترسلة ، وهم طوال القدود • ولنسائهم جمال عجيب • فاعتقلوا فى هـذه الدار ثلاثة أيام ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم ، وفيم جاءوا واين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا ، واعلمهم انه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسالهم عما سالهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالامس ، من أنهم اقتحموا البحر ليروا مابه من الاخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان اخبر القوم ان ابى امر قوما من عبيده ان يركبوا هذا البحر ، وانهم جروا فى عرضه شـهراً ، الى ان انقطع عنهم الضـوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى . ثم امر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا ، وان يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم حتى جرت الريح الغربية ، فوضعوهم فى زورق وعصبوا اعينهم ، وجروا بهم فى البحر مدة من الدهر ، قال القوم : قدرنا انهم جروا بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جاءوا بنا الى البر ، فأخرجونا من الزورق ، وكتفونا الى خلف ، وتركونا

بالساحل ومضوا ، وظللنا على هذه الصورة الى ان تضاحى النهار ، وعلت الشمس فى السماء ، ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، وبينما نحن كذلك سمعنا ضوضاء واصوات ناس ، فصحنا بأجمعنا . فأقبل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلوا وثاقنا ، وسألونا ماخبرنا ، فأخبرناهم ، وكانوا من البربر ، فقال لنا احدهم : اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا لا ، فقال : ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال : زعيم القوم واأسفا . فسمى المكان الى اليوم أسفا ، وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب » . وبعد أهوال ومخاطرات وصلوا الى بلدهم ، فأطلق الناس عليهم اسم الفتية المغررين يقصدون انهم غرروا وخاطروا بأنفسهم فى مغامرات ومجازفات غير مجدية

من رحلة ابن بطوطة :

مسلم فى هيئة جوكية

نزلنا بجزيرة صغرى على ساحل الملبار او بالقرب منه فوجدنا بها جوكيا (ساحرا)مستندا الى حائط بيت للاصنام،وهو بين صنمين منها ،وعليه أثر المجاهدة التى يقوم بها الجوكية ، اذ لا يأكلون ولا يشربون لمدة طويلة ، وكلمناه فلم يتكلم ، ونظرنا هل معه طعام ؟ فلم نر معه طعاما . وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة ، فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل (جوز الهند) بين يديه ، ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها . واتيناه بزاد فرده . وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة ، فقلبتها بيدى فدفعها الى ،وكانت بيدى سبحة فقلبها فى يدى فأعطيته اياها ، ففركها بيده وشمها وقبلها واشار الى السماء ، ثم الى سمت

القبلة ، فلم يفهم اصحابى اشارته ، ففهمت انا عنه انه أشار انه مسلم يخفى اسلامه عن اهل تلك الجزيرة ، ويتعيش من ذلك الجوز . ولما ودعناه قبلت يده ، فانكر اصحابى ذلك ففهم انكارهم ، فأخذ يدى فقبلها وتبسم ، واشار لنابالانصراف فانصرفنا . وكنت آخر اصحابى فجذب ثوبى فرددت رأسى اليه ، فأعطانى عشرة دنانير . فلما خرجنا عنه قال لى أصحابى: لم جذبك ؟ فقلت لهم : أعطانى هذه الدنانير ، وهو رجل مسلم الا ترون كيف اشار الى السماء ، يشير الى انه يعرف الله تعالى ، واشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام ، واخذه السبحة مصداق ذلك ، فرجعوا لما قلت لهم ذلك اليه ، فلم يجدوه !

شجرة عجيبة

ونزلنا بمدينة « ده فتن » وهى مدينة كبيرة بساحل الملبار على خليج ، كثيرة البساتين ، وفيها حوض عظيم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلثمائة خطوة .. وبازائه مسجد جامع للمسلمين ، والذى بنى المسجد والحوض أحد أجداد كويل اكبر سلاطين الملبار ، ولأسلامه خبر عجيب

ورأيت بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة ، تشبه أوراقها اوراق التين الا انها لينة ، وعليها حائط يطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين . واسم هذه الشجرة عندهم « درخت الشهادة » . وأخبرت هنالك انه اذا كان الخريف من كل سنة ، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة ، ثم الى الحمرة ، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة : لا اله الا الله محمد رسول الله . وأخبرنى جماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرءوا المكتوب الذى فيها .

وذكروا أنه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها تقاة من المسلمين والكفار ، فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها والكفار نصفها . وهم يستشفون بها

وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جدكويل الذى عمر المسجد والحوض ، فانه كان يقرأ الخط العربى ، فلما قراها وفهم ما فيها أسلم وحسن اسلامه ، وحكايته عندهم متـــواترة • وحدثونى ان أحد أولاده كفر بعد ابيه وطغى وامر باقتـــلاع الشجرة من اصلها ، فاقتلعت ولم يترك لها اثر . ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ماكانت عليه ، وهلك الكافر سريعا

عفريت من الجن

وقال الثقات أن أهل جزائر ذيبة المهل (المالديف) كانوا كفارا ، وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت من الجن ، يأتى من ناحيــــةالبحر كأنه مركب ممــــلوء بالقنــــاديل ، وكانت عادتهم انهم اذا رأوه أخــــذوا جــــارية بــــكرا فزينوها ، وأدخلوها بيت الاصــــــنام ، وكان مبنيــــا على ضفة البحر ، وله طاق ينظــــر اليه منــــه ، ويتركونها هنــــاك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها ميتة . ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته . ثم انه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرى ، وكان حافظا للقرآن العظيم . فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل ، فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها ، وهن يبكين كأنهن فى مأتم ، فاستفهم عن شأنهن ، فلم يفهمنه . فأتى بترجمان ، فأخبره ان العجوز خرجت القرعة عليها ، وليس لها الا بنت واحــــدة ، وسيقتلها العفريت . فقال لها ابو البركات : أنا أتوجه عوضا عن بنتك بالليل ، ولم تكن له لحية ، فاحتملوه فى تلك الليلة، وادخلوه بيت الاصنام وهو متوضىء ، واقام يتلو القرآن . ثم ظهر له العفريت من الطاق ، فداوم التلاوة . فلما اقترب منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر ، واصبح المغربى وهو يتلو على حاله ، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا

البنت على عادتهم ، فيحرقوها ، فوجدوا المغربي يتلو القرآن، فمضوا به الى ملكهم ، واعلموه بخبره ، فعجب منه . وعرض عليه المغربي الاسلام ورغبه فيه ، فقال له : اقم عندنا الى الشهر الاخر ، فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت اسلمت . فأقام عندهم، وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، واسلم اهله واولاده واهل دولته . ثم حمل المغربي لما دخل الشهر الى بيت الاصنام فجعل يتلو حتى الصباح ولم يأت العفريت . وجاء السلطان والناس معه ، فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الاصنام وهدموا بيتها . واسلم أهل الجزيرة، وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم اهلها ، وأقام المغربي عندهم معظما ، وتمذهبوا بمذهبه ، وهو مذهب الامام مالك رضى الله عنه . وقد قرات على مقصورة الجامع هناك منقوشا فى الخشب: أسلم السلطان احمد شنورازة على يد ابى البركات البربرى المغربى

القرود بجزيرة سيلان

القرود بتلك البلاد كثيرة جدا ، وهى سود الالوان ، لها اذناب طوال ، ولذكورها لحى كما هى للآدميين . ولهذه القرود مقدم تتبعه كأنه سلطان ، يشد على راسه عصابة من أوراق الاشجار، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود ، لها عصى بأيديها . واذا جلس القرد المقدم تقف القرود الاربعة على رأسه ، وتأتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم . وتأتى القردة فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها احد القرود الاربعة ، فتنصرف القرود كلها . ثم يأتى كل قرد منها بموزة او ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الاربعة . واخبرنى بعض الناس انه راى القرود الاربعة بين يدى مقدمها،

وهى تضرب بعض القرود بالعصى ، ثم تنتف وبرها بعد ضربها

قدم آدم

وصعدنا جبل سرنديب لنرى عليه موضع قدم آدم عليه السلام ، وهو من اعلى جبال الدنيا ، رأيناه من البحر ، وبيننا وبينه مسيرة تسع ليال ، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا ، وفيه كثير من الاشجار التى لا يسقط لها ورق ، والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف . وفى الجبل طريقان الى القدم ، أحدهما يعرف بطريق « بابا » والآخر بطريق « ماما » يعنون آدم وحواء عليهما السلام ، فأما طريق ماما فطريق سهل ، وعليه يرجع الزوار اذا رجعوا ، ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر . وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى ، وفى أسفل الجبل مغارة تنسب للاسكندر وعين ماء . ونحت الاولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا فيها السلاسل ، ليتمسك بها من يصعده . وهى عشر سلاسل ، اثنتان فى أسفل الجبل ، وسبع متوالية بعدها ، والعاشرة هى سلسلة الشهادة ، لان الانسان اذا وصل اليها ، ونظر الى اسفل الجبل أدركه الخوف ، فيتشهد خوف السقوط . ثم اذا جاوزت هذه السلسلة العاشرة وجدت طريقا سهلا . ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر عليه السلام سبعة أميال ، وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء ، تنسب اليه ايضا ، ملأى بالحيتان ولا يصطادها احد ، وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جنبى الطريق . وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين الى أعلى الجبل حيث القدم . وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع

فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عادموضعها منخفضا ، وطولها أحد عشر شبرا . وأتى اليها أهل الصين قديما ، فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون (ثغر كان على المحيط الهــادى) يقصدونها من أقصى البلاد . وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر . فترى الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر ، يتسابقون منها لاخذ ما بالحفر ، ولم نجد نحن بها الا يسيرا من حجيرات وذهب أعطيناها الدليل . والعادة ان يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا . وكذلك فعلنا . ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما ، فنزلنا بمغارة « شيم » وهو شيت بن آدم عليهما السلام . ثم ذهبنا الى خليج السمك ، ثم الى قرية كرملة . وتحت هذا الجبل الخليج العظيم الذى يخرج منه الياقوت ، وماؤه يظهر فى مراى العين شديد الزرقة . والياقوت يوجد بجزيرة سيلان فى جميع مواضعها ، وتتخذ منه نساؤها القلائد ويجعلنه فى أيديهن وارجلهن عوضا عن الاسورة والخلاخيل

بلاد طوالسى

وركبنا البحر الكاهل (المحيط الهادى) .. ثم وصلنا الى بلاد طوالسى وهى بلاد عريضة ، وملكها يضاهى ملك الصين ! وأهل هــذه البلاد عبدة أوثان ، حســان الصــور ، أشبه الناس بالترك فى صورهم . والغالب على الوانهم الحمرة ، ولهم شجاعة ونجدة ، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . ولما ارسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل الناخداه (الربان) اليهم ومعه هدية لابن الملك ، فسألهم

عنه ، فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيرهم ، وولى بنتـه بتلك المدينة ، واسمها اردجا . ولما كان اليوم الثانى من حلولنا ، استدعت هذه الملكة الناخداه صاحب المركب والكاتب والتجار والرؤساء ومقدم الرجال ومقدم الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها . ورغب الناخداه منى أن أحضر معهم ، فأبيت ، لانهم كفار لا يجوز اكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقى احد منكم لم يحضر ؟ فقال لها الناخداه : لم يبق الا رجل واحد وهو القاضى ، وهو لا يأكل طعامكم ، فقالت : ادعوه ، فجاء اعوانها واصحاب الناخداه ، فقالوا : اجب الملكة . فأتيتها ، وهى بمجلسها الاعظم ، وبين يديها نسوة ، وحولها النساء القواعد ، وهن وزيراتها ، وقد جلسن تحت السرير على كراسى الصندل ، وبين يديها الرجال . ومجلسها مفـروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل ، وعليـه صفائح الذهب . وبالمجلس مصاطب خشب منقوش ، عليهـا اوانى ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابى والقلال . واخبرنى الناخداه انها مملوءة بشراب مصنوع من السكر ، مخـلوط بالافاويه ، يشربونه بعد الطعام ، وانه عطر الرائحة حلو المطعم ، يفرج ويهضم . فلمـا سلمت على الملـكة قالت لى بالتركية كيف حـالك ؟ وكيف انت ؟ واجلستنى على قرب منها ، وكانت تحسن الكتاب العربى فقـالت لبعض خـدامها : الدواة والكـاغد (الـورق) فأتى بذلك ، فكتبت فيـه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت : ماهذا ؟ فقلت لها : اسم الله، فقالت : جيد . ثم سألتنى من اى البلاد قدمت ؟ فقلت لها : من بلاد الهند ، فقالت : بلاد الفلفل ؟ فقلت : نعم ، فسألتنى عن تلك البلاد واخبارها ، فأجبتها ، فقالت : لابد ان اغزوها

وآخذها لنفسى ، فانى يعجبنى كثرة مالها وعساكرها ، فقلت لها : افعلى . وامرت لى باثواب وحمل فيلين من الارز ، وبجاموستين ، وعشر من الضأن ، واربعة أرطال جلاب ، واربعة مرطبانات ، وهى أوان ضخمة ، مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا (المانجو) كل ذلك مملوح مما يعد للبحر

واخبرنى الناخداه : ان هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخوادم وجوار يقاتلن كالرجال ، وانها تخرج فى العساكر من رجال ونساء ، فتغير على عدوها ، وتشاهد القتال وتبارز الابطال . واخبرنى انه وقع بينها وبين بعض اعدائها قتال شديد ، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون ، فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش ، حتى وصلت الى الملك الذى كانت تقاتله ، فطعنته طعنة كان فيها حتفه ، فمات وانهزمت عساكره، وجاءت برأسه على رمح ، فافتداه اهله منها بمال كثير . فلما عادت الى ابيها ملكها تلك المدينة التى كانت بيد اخيها . واخبرنى ان ابناء الملوك يخطبونها ، فتقول : لا اتزوج الا من يبارزنى فيغلبنى ، فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم

ثم سافرنا عن بلاد طوالسى ، فوصلنا الصين بعد سبعة عشر يوما . وبعد ان زرنا بلادها عزمنا على الرجوع ؛ ولما وصلت الى ثغر الزيتون وجدت المراكب على اهبة السفر الى الهند ؛ وفى جملتها مركب للسلطان الظاهر صاحب جاوة ، واهله كلهم مسلمون ، وعرفنى وكيله ، وسر بقدومى معه ، وصادفتنا الريح الطيبة عشرة ايام . ولما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح واظلم الجو وكثر المطر ، واقمنا عشرة ايام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحرا لا نعرفه ، وخاف اهل المركب ، فأرادوا الرجوع

الى الصين ، فلم يمكن ذلك . واقمنا اثنين واربعين يومـــا لا نعرف فى أى البحار نحن

ولما كان اليوم الثالث والاربعون ظهر لنا بعد طلوع الفجــر جبل فى البحر ، بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا الى صوبه ، فعجب البحرية وقالوا : لسنا بقرب البر ولا يعهد فى البحر جبل ، وان دفعتنا الريح اليه هلكنا . فلجأ النــاس الى التضرع لله والاخلاص وجددوا التوبة . وابتهلنا الى الله بالدعاء . ونذر التجار التصدقات الكثيرة ، وكتبتها لهم فى دفتر بخطى . وسكنت الريح بعض سكون . ثم راينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء ، وظهر الضوء فيمــا بينه وبين البحر ، فعجبنا من ذلك . ورايت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا ، فقلت : ماشأنكم ؟ فقالوا : ان الذى تخيلنـــاه جبلا هو الرخ ، وان رآنا أهلكنا ، وبيننا وبينه اقل من عشرة اميال . ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه ، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى جاوة

عرس بسومطرة

ونزلنا سومطرة فوجدنا سلطانها الظاهر قدم من غزوة له ، وجاء بسبى كثير ، فبعث لى جاريتين وغلامين ، وانزلنى منزلا طيبا واحضرنى أعراس ولده مع بنت اخيه . وشــاهدت يوم الجلوة ، فرأيتهم قد نصبوا فى وسط المجلس منبرا كبيرا ، وكسوة بثياب الحرير . وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها ، بادية الوجه ، ومعها نحو اربعين من الوصيفات يرفعن اذيالها ، من نساء السلطان ونساء امرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجوه ، ينظر اليهن كل من حضر ، من رفيع أو وضيع،

وليست تلك بعادة لهن الا فى الاعراس خاصة

وصعدت العروس المنبر وبين يديها اهـــل الطرب رجالا ونساء ، يلعبون ويغنون ، ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وفوقه قبة ، والتاج على راسه ، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك ، وأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رءوسهم الشواشى (ثيـــاب رفيعة) المرصعة . وهم اتراب العروس ، وليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله ، وصعد المنبر الى العروس ، فقامت اليه وقبلت يده ، وجلس الى جانبها ، والوصيفات يروحن عليها . وجاءوا بالفوفل والتانبول (شجر عندهم) فأخذ منه الزوج بيده وجعل ما أخذه فى فمها ، ثم أخذت هى بيديها وجعلت ما اخذته فى فمه . ثم وضع عليها الستر ، ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر . واكل الناس وانصرفوا . ثم لما كان من الغد جمع الناس ، وأجرى له ابوه ولاية العهد ، وبايعه الناس ، واعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب

فی عالم البر

الارض المعمورة

كتب العرب عن الارض المعمورة كتابات جغرافية وتاريخية كثيرة ، وطافوا بأقاليمها وبلدانها وسجلوا ماشاهدوه وسمعوه، وفى كل ذلك يختلط الواقع بالخرافة ، والحقيقة بالاسطورة ، سواء فى حديثهم عن تاريخ الامم الاسطورى القديم ، أو عن عتيق البنيان وما أقيم عليه من تماثيل هى دائما فى رأيهم طلاسم وارصاد ، او عن مظاهر الطبيعة المختلفة من جبال وانهار وبحيرات وآبار وأشجار وحيوانات ، أو عن الافلاك والكواكب ومبدأ الخليفة . ولهم فى هذا المبدأ ونشأة الكون اساطير كثيرة، فمن ذلك هذه الاسطورة :

« لما اراد الله تعالى أن يخلق السموات والارض ، خلق جوهرة خضراء اضعاف طبقات الارض والسموات ، ثم نظر اليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ونظر الى الماء ، فغلى وارتفع منه زبد ودخان وبخار ، وارعد من خشية الله ، فمن حين ذلك يرعد الى يوم القيامة .. ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط تحت الارض فوضعها على عاتقه ، واحدى يديه فى المشرق والاخرى فى المغرب .. ولم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون الف قرن ، واربعون الف قائمة ، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه ، فلم تستقر قدماه ، فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور الى اذنه،

فاستقرت عليها قدماه .. ومنخر ذلك الثور فى البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسا ، فاذا تنفس مد البحر ، واذا رد نفسه جزر .. ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار . فخلق الله تعالى صخرة خضراء غلظها كغلظ السموات والارض ، فاستقرت قوائم الثور عليها .. ولم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى حوتا عظيما وضع الصخرة على ظهره ، ووضع الحوت على البحر »

ولعل العرب لم يصوروا أساطير أمة فى مبدأ الخلق ونشأة الكون ، كما صوروا أساطير الهند ، فقد سجل البيرونى المتوفى فىالقرن الحادىعشر الميلادى هذهالاساطير،وفصل الحديث فيها بكتابه : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » ومما ذكره فى هذا الكتاب أن أهل الهند يزعمون أن تحت الارض السفلى حية ذات الف راس ، تحمل الارضين من غير أن يئودها (يتعبها) ثقلها ، وتستدير السماء على القطب كدوارة الخزف ، ويدور القطب حول نفسه ، وتحرك الرياح الكواكب من حوله ، وهى مربوطة به برباطات لايراها الناس . وتحت القطب « جبل ميرو » الذى يعلو وجه الارض علوا مفرطا ، وتدور الكواكب حول سفحه ، وهى مسكن الملائكة ، وفيه أنهار عذبة ومساكن ذهبية وجبال لا تحصى ، منها جبال مملوءة بالجواهر ، ورأس هذه الجبال « جبل قاف » الذى تدور الشمس منه نحو جبل ميرو . ويقول البيرونى أنهم يزعمون أن فى الارض اجناسا كثيرة غير جنس البشر ، فمن ذلك جنس لونه لون الذهب ، يعيش طويلا ، ولا يمرض مدى حياته ، ولا يرتكب وزرا ولا يتحاسد ، وغذاؤه مايعصره من ثمار النخيل ، وجنس لونه لون الفضة يعمر احد عشر الف سنة ،

لا يلتحى ، وطعامه قصب السكر . وفى الارض جبال لاتحصى ، منها جبال تسكنها الشياطين ، وجبال من جواهر كريمة أو من ذهب . ويزعمون ان نهر الكنج المقدس كان يجرى فى القديم على ارض الجنة ، ثم هبط الى الارض وانقسم الى سبع شعب ، وعليه وعلى شعبه قرى للاطهار القديسين واخرى لاناس وجوههم كأوجه الدواب او شفاههم منقلبة كآذانهم أو آذانهم على أكتافهم ... الى جم من هذه الاساطير

واذا كان البيرونى قد وضع تحت أعيننا أساطير الهند وخاصة ما اتصل منها بالبراهمة فان غيره من جغرافيى العرب ومؤرخيهم ورحالتهم قد جمعوا عن الامم والشعوب التى وصفوها أو زاروها كل ما سمعوه عنها من أساطير وخرافات وعجائب وهى تطالعنا فى كثير من المصنفات ، سواء عن عالم الانس او عالم الجن أو عالم الملائكة او عالم الطير والحيوان أو عالم الكواكب والافلاك

ولنضرب بعض الامثلة، فنحن نقرأ فيما نقرأ ان كثيرا من الكواكب كانت ملائكة عصت ربها فى السماء فأهبطها الى الارض فى صورة أناسى ثم عرج بها ثانية فمسخها شهبا . ويقال ان كوكب الزهرة كان بغيا صعدت الى السماء عن طريق معرفتها باسم الله الاعظم فمسخت كوكبا ، وكذلك كان نجم سهيل عشارا ، يجمع الاتاوات باليمن ، فجعله الله شهابا فى السماء . ويزعمون أن أم ذى القرنين كانت آدمية ، اما أبوه فكان من الملائكة . وكذلك جرهم تولد بين انسية وملك من الملائكة . وزعم بعض الزاعمين أن الفأرة كانت طحانة ومسخت وان الكلاب أمة من الجن مسخت فى هذه الصورة ، وانالحية كانت فى صورة جمل ، فعاقبها الله حين احتملت دخول ابليس فى

جوفهـــا حتى وســـــوس الى آدم من فمهـــا ، فعوقبـــت بقطـــع ارجلهـــا والمشى على بطنهـــا وشـــق لسانها.
وقالـوا ان الســـــنور (الهر) خلق من عطســـة الاســـد ، وأن الضب خاصم الضفدع فأخذ منها ذنبها . وزعموا أن الجن تتوالد مع الانسان، وأكثروا من توليد الحكايات عن جن سليمان وقماقمة وخاتمة ، وعن الشياطين واغوائها للعباد وتمثلها لهم فى هيئة البشر ، وقالوا أن طيرا تخطف بعض الفيلة وان فى النيل خيولا تأكل التماسيح !

ومدار كل هذا التهريف أن من الناس من يبلغ من حبهم للغرائب والعجائب أن يجعلوا آذانهم هدفا للاساطير والخرافات فيدخلون الغث فى السمين ، والممكن فى الممتنع ، والاسطورة فى الحقيقة . وربما كان أقدم من صنع ذلك بين أصحاب الرحلات سلاما الترجمان ، الذى أرسله الخليفة الواثق (٢٢٧–٢٣٢ هـ) فى بعثة الى بلاد الخزر ، ليشاهد السد الذى بناه الاســـكندر ذو القرنين فى ديار يأجوج ومأجوج ، وتبعه الرحالتان اللذان مضى ذكرهما فى عالم البحر ، وهما سليمان البصرى وابن وهب القرشى ، يصفان سياحتهما فى بحر الهند وعلى شواطئه فى الصين وغير الصين ، فنسجا فى وصفهما كثيرا من خيوط الخيال والخرافة ، وصنع صنيعهما ابن فضلان الذى ارسله المقتدر الخليفة العباسى سنة (٣٠٩هـ) مع وفد الى ملك البلغار «التتار» على نهر الفولجا حين طلب اليه هذا الملك ان يرسل اليـــه من يفقهه فى الدين هو وقومه . وعاد ابن فضلان فوصف البـــلاد الواقعة على بحر قزوين وما وراءه وصفا يعتمد على الخرافة فى كثير من جوانبه

وتبدأ فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى ، سلسلة

كتب العجائب ، اذ يصف أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى بلاد ايران وآسيا الوسطى والصين والهند وصفا مسهبا تتداخل فيه الاسطورة . وفى نفس القرن يكتب بزرك بن شهريار كتابه : « عجائب الهند » . وتتوالى كتب هواة العجائب ومن يكلفون بالغرائب ، وهم تارة يسردونها سردا ، وتارة يقصونها قصصا ممتعا . وقد فتح المؤرخون فصولا واسعة للملوك الاسطوريين ، وخاصة الاسكندر ذا القرنين وملوك الفرس الاولين ، على نحو مانرى فى كتاب : « غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم » للثعالبى ، وسنسوق اطرافا من حكاياته وأقاصيصه

بين الحقيقة والخيال

سد ياجوج وماجوج

قال سلام الترجمان ان الخليفة العباسى الواثق بالله رأى فى المنـــام أن الســـد الـذى بنـاه ذو القـــرنين بيننـــا وبين يأجوح وماجوج مفتـــوح ، فأرعبـــه هـــذا المنـــام ، فاحضرنى ، وامرنى بقصده والنظر اليه ، والرجوع اليـــه بالخبر ، وضم خمسين رجلا، واعطانى عشرة آلاف درهم، ومائتى بغل تحمل الزاد والماء . فخرجنا من سرمن رأى (بالقرب من بغداد) بكتـــاب منه الى اسحق بن اسماعيل حاكم ارمينية ، يأمره فيه بانفاذنا وقضاء حوائجنا ، ومكـــاتبة الملوك الذين فى طريقنا ليساعدونا ، فلما وصلنا اليه كتب الى صـــاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير الى ملك اللان ، وكتب لنا ملك اللان الى فيلانشاه ، وكتب فيلانشاه الى ملك الخزر . فوجه ملك الخزر معنا خمسة من الادلاء ، فسرنا ستة وعشرين يوما فوصلنا الى ارض سوداء كريهة الرائحة ، وكنا قد حملنا معنا خلا لدفع غائلة رائحتها باشارة الإدلاء ، فسرنا فى تلك الارض عشرة أيام، ثم صرنا الى مدن خراب، فسرنا فيها سبعة وعشرين يوما ، فسألنا الادلاء عن سبب خراب تلك المدن ، فقالوا خربها يأجوج ومأجوج ، ثم صرنا الى حصن قريب من الجبل الذى يوجد السد فى بعض شعابه ، ومنه جزنا الى حصن آخـــر وبلاد ومدن فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية ، وهم

مسلمون يقرءون القرآن ، ولهم مساجد وكتاتيب ، فسألونا . من اين اقبلتم ؟ واين تريدون ؟ فأخبرناهم انا رسل الخليفة ، فاقبلوا يتعجبون من قولنا ، ويقولون : الخليفة ؟ فنقول : نعم ، فقالوا : اهو شيخ ام شاب ؟ قلنا : شاب ، قالوا : واين يكون ؟ قلنا : بالعراق فى مدينة يقال لها سر من راى ، فقالوا : ماسمعنا بهذا قط

ثم ساروا معنا الى جبل املس ، ليس عليه من النبات شىء ، واذا هو مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا ، واذا عضادتان (جانباباب) مبنيتان مما يلى الجبل من جنبى الوادى ، عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا ، الظاهر من سمكها عشرة اذرع خارج الباب وكله مبنى بحديد ، غيب فى نحاس ، فى سمك خمسين ذراعا ، واذا باب حديد طرفاه فى العضادتين ، طوله مائة وعشرون ذراعا ، وفوقه بناء بالحديد والنحاس الى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر . وفوق ذلك شرفات حديد ، فى طرف كل شرفة قرنان ينثنى كل قرن الى صاحبه ، واذا مصراعا باب حديد مغلقان ، عرض كل مصراع ستون ذراعا فى ارتفاع سبعين ذراعا فى سمك خمسة اذرع . وعلى الباب قفل طوله سبعة اذرع فى غلظ باع ؛ وارتفاع القفل من الارض خمسة وعشرون ذراعا .. وبه مفتاح معلق طوله سبعة اذرع ، وهو فى سلسلة طولها ثمانية اذرع فى استدارة اربعة اشبار ، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق، وارتفاع عتبة الباب عشرة اذرع فى طول مائة ذراع

ورئيس تلك الحصون يركب فى كل يوم جمعة فى عشرة فوارس ، مع كل فارس مرزبة حديد ، فيجيئون الى الباب ، ويضرب كل واحد منهم القفل والباب ضربات كثيرة ، ليسمع

من وراء الباب ذلك ، فيعلموا ان هناك حفظة ويعلم الرئيس وأصحابه ان يأجوج ومأجوج لم يحدثوا فى الباب حدثا . واذا ضربوا الباب وضعوا آذانهم ، فيسمعون من وراء الباب دويا عظيما

وبالقرب من الباب حصن كبير ، يكون فرسخا فى مثله ، يقال انه يأوى اليه الصانع زمان العمل ، ومع الباب حصنان كل واحد منهما مائتا ذراع فى مثلها . وعلى بابى هذين الحصنين شجر كبير لا يدرى ماهو ، وبين الحصنين عين عذبة ، وفى احدهما آلة البناء التى بنى بها السد ، من القدور والحديد والمغارف . وهناك بقية من قطع الحديد قد التصق بعضها ببعض من الصدأ ، والقطعة ذراع ونصف فى سمك شبر

وسألنا من هناك من اهل هذه البلاد : هل راوا احدا من يأجوج ومأجوج ، فذكروا انهم راوا منهم مرة عددا فوق الشرفات ، فهبت ريح سوداء ، فألقتهم الى جانبنا ، فكان مقدار الواحد منهم فى راى العين شبرا ونصف شبر . وهممنا بالانصراف ، فأخذ بنا الادلاء نحو خراسان ، فسرنا حتى خرجنا خلف سمرقند ، واخذنا طريق العراق حتى وصلنا . وكان بين خروجنا من سر من رأى الى رجوعنا اليها ثمانية عشر شهرا

قال ياقوت الحموى بعد روايته لهذا الخبر : الله اعلم بصحة ذلك ، وعلى كل حال فليس فى صحة امر السد ريب . ونقول ان الريب فى الخبر وما ذكره سلام لا فى السد ، فقد جاء ذكره فى الكتاب العزيز

فى الصين

اقدم من تحدثوا عن الصين من رحالة العرب التاجر سليمان البصرى ،الذى ركب البحر اليهافى سنة (٢٣٧هـ) وتجول فى ربوعها، ونرى سليمان يصف الصين وبعض مدنها ومنتجاتها وعقائدها ، وسنقف عند بعض أخباره العجيبة ، فمن ذلك ما حكاه من أنه :

«فى كل مدينة شىء يدعى «آلدرا» وهو جرس على راس حاكم تلك المدينة مربوط بخيط ممدود على ظهر الطريق للعامة كافة ،وبينه وبين الحاكم أو الملك نحو من فرسخ ، فاذا حرك الخيط الممدود ادنى حركة تحرك الجرس ، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط ، فيتحرك الجرس منه على راس الحاكم أو الملك ، فيؤذن له بالدخول حتى ينهى حاله بنفسه ، ويشرح ظلامته ، وجميع البلاد فيها مثل ذلك . ولهم حجر منصوب ، طوله عشر أذرع ، مكتوب فيه نقشا ذكر الادوية والامراض ، مرض كذا دواؤه كذا ، واذا كان الرجل فقيرا اعطى ثمن الدواء من بيت المال . واهل الصين اهل ملاه ، وكل من قتل بالسيف عندهم اكلوا لحمه ! وبيوتهم من الخشب ، ويتزوج الرجل منهم ماشاء من النساء ، ويزعمون أن الاصنام تكلمهم وانما يكلمهم عبادها ، وهم يؤمنون بالتناسخ ، وهم من احذق خلق الله كفا بالنقش والصناعة »

وتبع سليمان فى الرحلة الى الصين ابن وهب القرشى ، الذى زارها فى سنة (٢٥٦ هـ) ، وهو يقص علينا أن همته نزعت به بعد نزوله بخانفو (كانتون) الى زيارة ملك الصين فى عاصمته « حمدان » وهى تبعد عن خانفو نحو شهرين ، ويقول انه أقام بباب الملك مدة طويلة ، يرفع اليه الرقاع ، ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب . وأمر الملك بعد مدة بانزاله فى بعض المساكن ، وكتب الى واليه بخانفو يأمره بالبحث عن حقيقة الرجل وما يدعيه من قرابة نبى العرب ، وسؤال التجار عن ذلك .فكتب الوالى بصحة نسبة وصدق قوله ، فأذن له فى حضور مجلسه ، ولما مثل بين يديه سأله : أتعرف صاحبك يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ابن وهب : وكيف لى برؤيته وقد توفاه الله من زمن بعيد ؟. فقال الملك : لم ارد هذا ، انما أردت صورته . وأمر باحضار سفط (سلة) فوضع بين يديه ، فتناول منه درجا (كتابا كبيرا) وقال للترجمان : اره صاحبه قال ابن وهب : فرأيت فى الدرج صـــــور الانبيـــــاء ... منهم من قد اشار بيده اليمنى وجمع بين الابهام والسبابة ، كأنه يومىء فى اشارته الى الحق ، ومنهم قائم على رجليه مشير بأصابعه الى السماء وغير ذلك . ثم سأله الملك لم عدلت عن ملكك وهو اقرب اليك منا دارا ونسبا . فقال ابن وهب: ما بلغنى من جلال ملك الصين وكثرة الخير به ، فأحببت الوقوع الى تلك الناحية ومشاهدتها . فسره ذلك وأمر له بجائزة سنية وبحمله على بغال البريد الى مدينة خانفو ، وكتب الى واليها باكرامه . فكان فى أخصب عيش وأنعمه الى ان خرج من بلاد الصين

ويروى ابن وهب ان رجلا وفد على خانفو من سمرقند ،

يقطع اليها البلاد بلدا بلدا ، وهو يحمل على ظهره مسكا فى زقّ، ليبيعه فى مجمع التجار القاصدين الى هذا البلد ، ويقول ابن وهب ان اجـود المسك ماجلب من بلاد التبت ، حيث تحكه الظباء على احجار الجبال ، اذ هو مادة تتجمع فى سرة الظبى ، وتتضام دما سائلا ، كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل ، فاذا نضج حكه واضجره الحك ، فيفزع الى الحجارة حتى يخرقه ، فيسيل ما فيه ، فاذا خرج من مكانه جف واندمل وعادت المادة تتجمع فيه من جديد . ويخرج أهل التبت لجمعه والتقاطه وايداعه فى النوافج وحمله الى ملوكهم . ويقول ابن وهب ان ظباء هذا المسك تشبه الظباء فى بلادنا ،الا أن لهانابين دقيقين ابيضين فىالفكين طول كل واحدمنهما مقدار فتر ودونه على هيئة ناب الفيل

▭

وزار الصين بعد هذين الرحالتين أبو دلف مسعر بن مهلهل حول سنة (٣٣١ هـ) مع بعثـــة أرسلها الامـــير نصر بن أحمد السامانى ، الى ملك الصين ، ليخطب منه ابنته لابنه . وقد عنى أبو دلف بذكر عجائب البلدان والاقوام الذين مر بهم ، وفى مادة الصين بمعجم البلدان لياقوت ملخص لما ذكره من هذه العجائب ، فمن ذلك :

انهم مروا بقبيـــلة تعـــرف بالكيمـــاك ، بيوتهم من جلود ياكلون لحوم ذكران الضأن والماعز ، ولا يرون ذبح الاناث منها ، وعندهم عنب نصف الحبة ابيض ونصفها أسود ، وعندهم حجارة هى مغناطيس المطر ، يستمطرون بها متى شاءوا ! ولهم معادن ذهب فى سهل من الارض يجدونه قطعا ،

وعندهم ماس يكشف عنـه السيل ونبات حلو الطعم ينوم ويخدر ، ومن تجاوز منهم ثمانين سنة عبدوه . ومروا بقبيلة تعرف بالتغزغز لهم عند ظهور قوس قزح عيد ، وصلاتهم الى مغرب الشمس وخـرجوا منها الى قبيلة الخرخير ، وهم يصلون الى الجنوب ويعظمون زحل والزهرة ، وعندهم حجارة تضيىء بالليل يستغنون بها عن المصباح

وما يزال أبو دلف يتحدث عن القبائل التى يمرون بها حتى يصلوا الى سندابل حاضرة ملك الصين ، فيقول : هى مدينة عظيمة ، يبلغ السير حولها يوما ، ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها الى دار الملك ، وسرنا الى باب من أبوابها ، فوجدنا أرتفاع سورها تسعين ذراعا وكذلك عرضه ، وعلى رأسه نهر عظيم يتفرق على ستين جزءا ، كل جزء منها ينزل على باب من الابواب ، تتلقاه رحى تصبه الى ما دونها ، ثم الى غيرها حتى يصب فى الارض . ويخـرج نصفه تحت السـور فيسقى البساتين ، ويرجع نصفه الى المدينة ، فيسقى أهل ذلك الشارع الى دار الملك ، ثم يخرج فى الشارع الآخر الى خارج البلد ، فكل شارع فيه نهران ، وكل خلاء فيه مجريان ، كل واحد فيهمـا يخالف صاحبه ، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم . ولهم بيت عبادة عظيم ، ولهم سياسة واحكام متقنة ، وبيت عبادتهم أعظم من مسجد بيت المقدس ، وفيه تماثيل وتصاوير واصنام ، وهم لايذبحون ولا ياكلون اللحوم اصلا ، ومن قتل شيئا من الحيوان قتل

▱

ومما رواه القزوينى من عجائب الصين أن باقصاها هيكلا مدورا ، له سبعة ابواب ، وفى داخله قبة عظيمة البنيان عالية

السمك ، وفى أعلاها جوهرة كرأس العجــل ، يضىء منهـ جميع اقطار الهيكل ، ومن دنا منها قدر عشرة أذرع خر ميتا ! وان تعرض احدلهدم الهيكل مات ! وفى هذا الهيكل بئر واسعة، من اكب عليها وقع فى قعرها ، وعلى راس البئر شبه طوق مكتوب عليه : هذه البئر مخزن الكتب التى هى تاريخ الدنيــا وعلوم السماء والارض وما كان فيها وما يكون ، ولا يصل اليها الا من وازن علمه علمنا . والارض التى عليها هذا الهيكل أرض حجرية عالية كجبل شامخ لايرام قلعه ولا يتأتى نقبه . ومن عجائب الصين ان بها طاحونة يدور حجرها الاسفل والاعلى ساكن ، ويخرج من تحت الحجر دقيق لانخالة فيه ، ونخالة لادقيق فيها ، وكل واحد منهما منفرد عن الآخر . وبالصين قرية عندها غدير فيه ماء يجتمع اليه أهل القرية فى كل سنة، ويلقون فيه فرسا ، وكلما ارادت الخــروج منعوها ، حتى يسقط عليهم المطر ، فاذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلأ الغدير اخرجوا الفرس وذبحوها فوق جبل وتركوها للطير ، فاذا لم يفعلوا ذلك فى احدى السنين لم تمطرهم السماء . وعندهم دابة المسك ، وهى دابة تخرج من ماء البحر فى كل سنة فى وقت معلوم فيصطادون منها شيئا كثيرا ، وهى تشبه الظباء ، ويذبحونها ويأخذون الدم من سرتها ، وهو المسك ولا رائحة له هناك حتى يحمل الى غيرها من الاماكن !

وزار ابن بطوطة الصين وتحدث عن عجائبها واحكام أهلها للصناعات ، وخاصة التصوير ، ومن عجيب ما شاهده من ذلك كما يقول : انه مادخل قط مدينة من مدنهم ، ثم عاد اليها الا وراى صورته وصور رفقائه منقوشة على الحيطان أو على الاوراق موضوعة فى الاسواق . وقد لاحظ أنهم يجرون على المكفوفين وذوى العاهات نفقة وكسوة من أوقاف معابدهم

فى بلاد الهند

عرف العرب الهند منذ فتحها محمد بن القاسم الثقفى ، فى أواخر القرن الاول للهجرة ، وقد اخذوا منذ هذا الفتح يختلطون بأهلها ، وينقلون عنهم عروض تجارتهم بحرا وبرا ، كما نقلوا عنهم كثيرا من حكمهم وكتبهم وأساطيرهم ومعتقداتهم. وبعض مانقلوه عنهم من ذلك أخذوه عمن أسلموا منهم ، أو عن الفرس ، مثل كتاب كليلة ودمنة . وقد نقلوا عنهم فى الرياضيات والفلك والنجوم كثيرا ، كما عرفوا أطرافا من تأملاتهم المتصلة بنزعاتهم الصوفية ، وكان لهذه التأملات أثرها فى التصوف الاسلامى ، وايضا فانهم عرفوا كثيرا عن نساكهم من البراهمة وغيرهم ، وتعذيبهم لانفسهم تطهيرا لها من الآثام ، وما اشتهر عندهم من حرقهم لاجسادهم أو اغراق أنفسهم فى نهر الكنج المقدس

واسترعى هذا الاحراق والاغراق نظر ابن وهب القرشى ، فتحدث عنه ، ولاحظ أن منشأ ذلك عندهم ايمانهم بالتناسخ، وتمكنه من قلوبهم ، وزوال الشك عنهم فيه . يقول : واذا احرق الملك نفسه أو مات احرق رجاله المقربون اليه انفسهم بالنار ، حتى لايبقى منهم عين ولا اثر ، ومنهم من اذا عزم على احراق نفسه أوقدت له النار ، حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا ، ويدورون به فى اسواقهم ، وبين يديه الصنوج ، وعلى

راسه اكليل من الريحان ، ويصبون عليه الزيت والنفط ، وقد يمشى بين النـــاس وهو يحترق حتى تأتى النـــار عليه ، ويصبح هشيما تذروه الرياح • ومنهم من يشق صدره قبل دخوله فى النار أو يشق بطنه ، وينزع قطعة من كبده ، استهانة بالموت وصبرا على الالم ، ومنهم من يغرق نفسه فى الكنج، كل ذلك ثقة منهم بالرجعة الى الحياة فى صورة اخرى

ويقول ابن وهب : للهند عباد وأهل علم بلاهوتهم يعرفون بالبراهمة ولهم شعراء يغشون الملوك ، ومنجمون وفلاسفـــة وكهان وسحرة ، يظهرون ضروبا غريبة من السحر والتخاييل. ومن البراهمة قوم عراة قد غطت شعورهم أبدانهم ، واظفارهم مستطيلة كالحراب ، وهم يسيحون فى الهند ، وفى عنـــق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم البشر ، فاذا اشتد بواحد منهم الجوع وقف بباب بعض الهنود ، فاذا راوه اسرعوا اليه بالارز المطبوخ ، مستبشرين به ، فيأكل فى تلك الجمجمة ، واذا شبع انصرف ، ولا يعود الى طلب الطعام • وينهى ابن وهب حديثه بأن للهند شرائع يتقربون بها ــ كما زعموا ــ الى خالقهم . جل الله وعز عما يقولون ، وتعالى علوا كبيرا . ولهم هياكل كبيرة ، وأصنام عظيمة يعبدونها ، ويقوم عليها سدنة ، ومن أصنامهم مايقصدونه من مسيرة أشهر كثيرة

□

وتحدث أبو دلف مسعر بن مهلهل عن عجائب الهند ومـــا بها من هياكل لعبادتهم ، وقال انهم لايذبحون الحيوان ، ولا يأكلون السمك ولا البيض ، وهم من عبدة الكواكب ، ولهم حساب محكم ، ومعرفة بالنجوم كاملة ، وتعمل الاوهام فى طباعهم ، فمن ذلك مايحكون من أن بعض ملوكهم بعث الى أحد

الاكاسرة (ملوك الفرس) هدايا فيها صندوقان مقفلان ، فلما فتحوهما وجدوا فى كل صندوق رجلا ، فسألوهما عن شأنهما، فقالا : « نحن اذا أردنا شيئا صرفنا همتنا اليه ، فيحدث » فاستنكر كسرى ذلك واستبعده ، فقالا : « جربنافى عدو لك لاتستطيع قهره بالحرب ، فانا اذا صرفنا همتنا اليه مات » فقال كسرى لهما : اصرفا همتكما الى موتكما ، قالا : « أغلقوا علينا صندوقينا » فأغلقوهما ، ثم كشفوا عنهما ، فوجدوهما ميتين

ونزل مسعر فى مدينة « الملتان » (فى الجزء الغربى من البنجاب) وهى بيت حجهم ، ودار عبادتهم ، وبها صنمهم الاكبر الذى كانوا يحجون اليه ، ويقدمون له ولسدنته القرابين والنذور ، وهو مبنى فى هيكل كبير ، وعليه قبة سمكها فى الهواء ثلثمائة ذراع ، اما طوله فعشرون ذراعا ، وصورته انسان جالس متربع على كرسى ، وعيناه جوهرتان ، وعلى راسه اكليل من الذهب ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه ، وجعلت اصابعه كالقابض على اربعة فى الحساب ، وهو معلق فى جوف القبة ، لاتمسكه قائمة من اسفله ولا علاقة من اعلاه ، وهو ثابت فى مكانه بتأثير مغناطيس يجذبه . وزعم مسعر انه راى فى السند هيكلا من ذهب ، فى صحراء قدرها أربعة فراسخ ، والثلج لايقع عليه بينما يقع على ما حوله !

▱

واكبر من تحدثوا عن الهند وأعظمهم شانا ابو الريحان البيرونى المتوفى سنة (٤٤٠ هـ) فقد مكث فى الهند أربعين سنة درس فيها لغتهم السنسكريتية وثقافتهم ومعارفهم فى الميثولوجيا وفى الفلك والتنجيم ، ودون دراسته

فى كتابه : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل او مرذولة » . وكان فيلسوفا ناقدا بصيرا ، فأحاط بكتبهم المقدسة ، وجملة اساطيرهم وعلومهم ومعارفهم ، وصور ذلك فى كتابه تصويرا دقيقا

ونحن لانكاد نقرا فى هذا الكتاب ، حتى نرانا ندخل فى عبادة او ديانة وثنية معقدة ، تكثر فيها الآلهة وتكثر الارواح وتنبث فى قوى الطبيعة ، فاذا كل قوة لها الهها الذى يرمز اليها ، من مثل اندر ويرمز الى العاصفة ، وهو رئيس الملائكة ، ومثل سومى وهو يرمز لنبات مقدس يسكر عصيره الآلهة والناس جميعا ، ومثل أجنى رمز النار ، وبراهما هو كبير آلهتهم · وكانوا يعتقدون ان الكون يمتلىء بالارواح من حولهم ، ومنها الخيرة والشريرة ، وهى ارواح الشياطين ، ولا ينجى الانسان منها الا مهارته فى السحر ومعرفته بالرقى والتعاويذ ، ولذلك كان للسحر عندهم شأن عظيم . ومن مزاعمهم فى نشأة العالم ان الها عظيما شعر بالوحدة ، فانشق نصفين ، نشأ منهما كل الخلق ، اذ انقسم الى زوج وزوجة ، مازالت تختفى منه فى صور الكائنات ، وهو يتمثل لها ذكرا سويا فى كل صورة تتحول اليها ، فاذا تحولت بقرة تحول ثورا واذا تحولت فرسا تحول حصانا ، واذا تحولت أتانا تحول حمارا ، واذا تحولت نعجة تحول كبشا ، وهكذا خلقت الكائنات زوجين زوجين ، وهى جميعا ترجع الى خالق واحد ، اذ ليست أكثر من صور مختلفة له · وواضح ماتحمله هذه الاسطورة من فكرة وحدة الوجود ، وتناسخ الارواح ، فى صور مختلفة . ويحكى البيرونى من مزاعمهم :

ان براهما الاكبر رأى شرارة تحت الارض ، فأخرجها وجعلها اثلاثا ، الاول النار المعهودة التى توقد بالحطب ويطفئها الماء ،

والثانى الشمس ، والثالث البرق . وعندهم أن العالم ينقسم الى علو وسفل ، وفى العالم العلوى الجنة ، وفى العالم السفلى مجمع الحيات وهو جهنم ، وفى العالم الاوسط الناس ، وهم يثابون بالصعود الى العالم الاعلى ، ويعاقبون بالهبوط الى العالم الاسفل ، كل حسب عمله ، وفى اعتقادهم ان النفس ترتبط بالعالم عن طريق وثاق جسدها ، ولذلك يتهاونون بالبدن ويحاولون فراقه بالحرق أو الغرق . واجناس الخلائق عندهم ثلاثة : الروحانيون فى الاعلى ، والبشر فى الوسط ، وفى الاسفل الحيوانات ، أما انواع الخلائق فاربعة عشر ، منها للروحانيين ثمانية هى براهما واندر وسوما الخ . وللحيوانات خمسة : بهائم ووحش وطير وزحافة ونابتة ، وهى الاشجار ، أما البشر فنوع واحد ، ومع كل هؤلاء الابالسة والشياطين . ويتقدم النساك وسدنة النار عندهم على الاطباء والمنجمين وأصحاب العلوم . ويوغل البيرونى فى بحث شرائعهم وعبادتهم للاصنام ، حاكيا لاساطيرهم فى ذلك كله ، ومن طريف ماقصه عن مبدأ عبادتهم للاصنام والتماثيل هذه الاسطورة :

« كان فيما مضى من الازمنة ملك يسمى أنبرش ، نال من الملك مناه فرغب عنه ، وزهد فى الدنيا ، وتخلى للعبادة والتسبيح زمانا طويلا ، حتى تجلى له الهه فى صورة «اندر» رئيس الملائكة ، راكبا فيلا ، وقال له : سل مابدا لك لاعطيك اياه ، فأجابه : بأنى سررت لرؤيتك ، وأشكر ما بذلته من الاسعاف ، لكنى لست أطلب منك شيئا ، انما أطلب ممن خلقك قال اندر : ان الغرض من العبادة حسن المكافأة عليها ، فحصل الغرض ممن وجدته منه ، ولا تقل : انى لا أريد منك بل من غيرك . قال الملك : أما الدنيا فقد حصلت لى ، وقد رغبت عن

جميع مافيها ، وانما مقصودى من العبادة رؤية الرب ، وليست اليك ، فكيف أطلب حاجتى منك ؟ قال اندر: كل العالم ومن فيه فى طاعتى فمن أنت حتى تخالفنى ؟ · قال الملك : أنا كذلك سامع مطيع الا أنى أعبد من وجدت أنت هذه القوة من لدنه ، وهورب الكل الذى حرسك من الغوائل ، فخلنى وما آثرته ، وارجع عنى بسلام . قال اندر : فاذا ابيت الا مخالفتى فانى قاتلك ومهلكك قال الملك : قد قيل : ان الخير محسود والشر له ضد،ومن تخلى عن الدنيا حسدته الملائكة ، فلم يخل من اضلالهم اياه ، وأنا من جملة من أعرض عن الدنيـــا ، واقبل على العبادة ، ولست بتاركها مادمت حيا ، ولا أعرف لنفسى ذنبا أستحق به منك قتلا فان كنت فاعله بلا جرم منى فشأنك وما تريد · على أن نيتى ان أنا خلصت لله ولم يشب يقينى شوب لم تقدر على الاضرار بى وكفانى الآن ما شغلتنى به عن العبادة وانى راجع اليها · ولما أخذ فيها تجلى له الرب فى صورة انسان ، على لون النيلوفر الاكهب (الاسود) ، بلباس أصفر ، راكبا الطائر المسمى جرد،فى احدى أيديه الاربع الحلزون الذى ينفخ فيه على ظهـور الفيلة ، وفى الثانية سلاح مستدير حاد ، وفى الثالثة حرز ، وفى الرابعـة نيلوفر أحمر · فلما رآه الملك اقشعر جلده من الهيبة وسجد وسبح كثيرا ، فآنس وحشته وبشره بالظفر بمرامه ، فقـــال الملك : كنت نلت ملكا لم ينازعنى فيه أحد وحالة لم ينغصهـا على حزن أو مرض فكأنى نلت الدنيا بحذافيرها ، ثم أعرضت عنها لما تحققت أن خيرها فى العاقبة شر عند التحقيق ، ولـم أتمن غير ما نلته الآن ، ولست أريد بعده غير التخلص من هذا الرباط . قال الرب : هو بالتخلى عن الدنيا بالوحدة والاعتصام بالفكرة وقبض الحواس اليك · قال الملك : هب أنى قدرت

علىذلك بسبب ما أهلت له من الكرامة فكيف يقدر عليهغيرى ، ولابد للانسان من مطعوم وملبوس ، وهما واصلان بينه وبين الدنيا فهل من طريق غير ذلك ؟ • قال الرب له : استعمل بملكك وبالدنيا الوجه الاجود والاحسن ، واصرف النية الى فيما تعمله من تعمير الدنيا وحماية أهلها ، وفيما تتصدق به وفي كل الحركات ، فان غلبك نسيان الانسية ، فاتخذ تمثالا كما رأيتني عليه ، وتقرب بالطيب والازهار اليه ، واجعله تذكارا لى لئلا تنساني ، حتى ان فكرت فبذكرى ، وان حدثت فباسمى ، وان فعلت فمن أجلى • قال الملك : ثم غاب الشخص عن عينه ، فرجع الى مقره وفعل ما أمره به • قالوا فمن حينئذ تعمل الاصنام ، بعضها ذوات أربع أيد كما وصفنا ، وبعضها ذوات يدين . واخبروا ايضا انه كان لراس البراهمة ابن لم تكن له همة غير رؤية الرب ، وكان يمسك عصا معه ويلقيها فتصير حية ، ويعمل بها العجائب ، وكانت لا تفارقه وبينما هو فى فكره يتأمل يوما اذ رأى نورا من بعيد ، فقصده ونودى منه : ان ما تسأله وتتمناه ممتنع الكون ؛ فليس يمكنك أن تراني الا هكذا ، ونظر فاذا شخص نورانى على مثال أشخاص الناس • ومن حينئذ وضعت الاصنام والصور • ومن أصنامهم المشهورة صنم مولتان باسم الشمس ، وفى عينيه ياقوتتان حمراوان ، ويقولون انه أقيم منذ مائتين وستة عشر ألف سنة »

ويفيض البيرونى فى ذكر اصنامهم وهيآتها ، وكيف يصنعونها ، ويتحدث بالتفصيل عن كتبهم الدينية وسائر علومهم وشعرهم وعروضه وحسابهم وأعداده التى وضعها رأس البراهمة وكانمترهبا ، عقد مجمعا من الحكماء سنشرائعهم

وهو الذى وضع نظرية أدوار حياة العالم ، كانوا يزعمون أنه قال : « ان عمر العالم أثنا عشر ألف دور مقدار كل دور ست وثلاثون ألف سنة »

وعرض البيرونى لسحر أهل الهند الذى اشتهروا به وتخاييلهم بوجه من وجوه التمويه ، وقال ان اصحاب هـذه الصـناعة مجتهدون فى اخفائها ، ومنقبضون عمن ليس من أهلها ، وهى صناعة تقوم على معاجين وتراكيب أدوية ، اكثرها من النبات وأصوله ، ويزعم أهلها أنهم يستطيعون أن يعيدوا الصحة الى المرضى والشباب الى الشيب والشيوخ • ومن أساطيرهم التى يروونها فى هذا الباب ، أنه كان فى مدينة « أوجين » رجل يسمى « بيارى » صرف الى هذا الفن همته ، وأفنى فيه عمره وما ملكه ، ولم يفـده كل ذلك ما يسـهل عليه مقصـده فجلس على شط نهر متحسرا مغتما ضجرا، وبيده الدرج الذى كان يأخذ منه نسخ الادوية ، فجعل يطرح فى المـاء منـه ورقة بعد ورقة • واتفق أن كان على شط ذلك النهر فى أسفله امراة بغى ، فمرت الاوراق عليها فجمعتها واطلعت منهـا على صناعته بالسحر وهو لا يراها ، وما زال حتى فنيت الاوراق ، فأتته سائلة عن سبب فعله بكتابه ، فأجابها : لانى لم أنتفع به ، ولم أصل الى شىء من أربى ، وأفلست بسببه بعد الاموال الكثيرة ، وشقيت بعد الامل الطويل فى نيل السعادة • قالت المرأة : لا تعرض عما أفنيت فيه عمرك ، ولا تيأس من وجود شىء قد أثبته الصناع قبلك • فربما كان الحائل بينك وبين الوصول الى حقيقته امرا تافها ، ولى اموال كثيرة وكلها لك مبذولة لتنفقها على مطلوبك • فعاد الرجل الى عمله ، وكان يجد فيه صعوبة لان كتب هذا الفن مرموزة ، فكان يقـع له

غلط من جهة اللغة فى الدهن أو فى دم الانســـان ، فيخلف الدواء ولا ينجح ، وفى يوم أخذ فى طبخ الادوية ، وأصابت النار رأسه ويبست دماغه ، فادهن بدهن كثير صـــبه على هامته ، وقام من عند المستوقد لشغل . فوافق سمت رأسه من السقف وتد ناتىء ، فشجه وأدماه ، وعاد مطرقا للالم الذى عراه ، وتقطر من يافوخه الى وعاء الادوية قطرات دم ممزوجة بالدهن ، وهو لا يفطن لذلك ، الى أن تم مزج الادوية ، فطلى بها نفسه للامتحان وصنعت صنيعه المرأة ، فطارا فى الهواء ! وعمل فى ذلك الفن كتبا مشهورة ، وهو معها الى الآن حى لم يمت . هكذا يزعمون ! »

قال البيرونى : ومن مشابه هذه الاسطورة أن فى مدينـة « دهار » على باب الوالى فى دار الامارة ، قطعة فضية مربعة مستطيلة فيها تخاييل أعضاء انســـــان ، وقد ذكروا فى أمرهـــا :

« أن رجلا فى مواضى الازمنة اشتهر بأدوية ، من عملهـــا بقى حيا لا يموت ، مظفرا لا يغلب ، قادرا على ما يروم ويطلب فسمع به ملكه ، فأحضره وأمر باحضار جميع ما طلبـــه ، وأخذ الرجل فى اغلاء دهن أياما ، ثم قال للملك : ارم بنفسك فيه حتى أتمم لك الامر ، فهال الملك ما رأى ، وخـــاف من التغرير بنفسه . فلما أحس الرجل خوفه وفزعه قال له : «ان كنت لا تجترىء على ذلك ولا تريده لنفسك فهل ترضـــاه لى حتى أفعله بنفسى ؟ » قال الملك : « ذلك اليك » فأخرج الرجل صرر أدوية ، وعرفه بعلامات تظهر منه ، ليلقى عليه عند ظهور كل واحدة منها صرة معينة . وقام الرجل الى الدهن وتردى فيه ، فتفسخ وصهر جلده وجسده ، وأخذ الملك يفعل مـــا

مثله له الى أن قرب التمام ، وبقيت صرة ، فأشفق الملك منه على ملكه ، اذا انبعث كما ذكر • فتوقف عن القـــاء الصرة ، وبرد القدر والرجل مجتمع فيه • فأخرج بما عليه ، وهو تلك القطعة من الفضة ! »

ولهم فى التعاويذ والرقى اعتقاد بالغ ، وأكثرها ينصرف الى الملدوغ ، قال البيرونى : « ويبلغ من افراطهم فى هذا الباب أنى سمعت بعضهم يزعم أنه رأى ملسوعا ميتا قام بالرقية وتكلم وأوصى ، ودل على الودائع والاشياء ، ولما استنشـــق رائحة الطعام خر ميتا هامدا »

ومن خرافاتهم أن ملكا من ملوكهم ذهب الى جبل قاف هرما قد حناه الكبر ،وانصرف منه شابا معتدل القامة ممتلئا بالقوة قد اتخذ السحاب مركبا • وعقب البيرونى على ذلك كله بقوله: « ولست أدرى ماذا أقول فى هذه الخرافات » ومما رواه منها : « زعم بعض الهنود أنهم شاهدوا ظباء ذات أربعة أعين ، وأن فى بعض براريهم دابة ذات أربع قوائم ، وعلى ظهرها أربـــع قوائم أخرى ذاهبة الى أعلى ، ولها خرطوم صغير ، وقرنان عظيمان تضرب بهما الفيل فتقطعه نصفين ، وأنها ربما نطحت دابة ، ورفعتها الى ظهرها ، فوقعت بين قوائمها العليا فتعفنت وحينئذ تحك ظهرها فى الشجر حتى تموت وأنها ربما سمعت صوت الرعد فظنته حيوانا وقصدته ، ووثبت اليه . وممـــا يزعمونه أنه يوجد نحو الشرق جبال القردة ؛ وفى كل يوم يخرج ملكها مع الجماعات منها ، ولهم مجالس مهيئة ، ويحمل أهل تلك الارض للقرود الارز المطبوخ على أوراق ، فاذا طعمت رجعت الى الغياض ، وان تغافلوا عنها كان فى ذلك هـــلاك الناحية لكثرتها وشدة صولتها • وفى رأيهم أنها أمـــة من

الناس ممسوخة ! »

وللهند فى الافلاك والكواكب والنجوم أساطير كثيرة ، عرضها البيرونى ، ونضرب لها بعض الامثلة فمن ذلك ما كانوا يزعمونه عن نجم سهيل من أنه : « لما طلعت الشمس فى المبدأ ، وسامتت جبل بند الشامخ فى مرورها أنكر علوها وبعثته الكبرياء على التعرض لها ليمنعها عن مسيرها وقصدها، ويحبس عجلتها عن المرور فوقه ، فارتفع حتى قرب من الجنة ومواطن الروحانيين ، فأسرعوا اليه لطيبه ونزهة بساتينه ورياضه واستوطنوه فرحين ، يتردد فيه نساؤهم ويلعب أولادهم حتى اذا هبت الريح على ثياب بناتهم البيض تحركت كالرايات الخافقة ، ورؤيت السباع والاسود فى شعابه حالكة الالوان ، والقرود تعلو قممه ، والزهاد فى غياضه مقتصرين على التغذى بثماره • ولما رأى سهيل ابن المساء ذلك من فعل الجبل ، عرض عليه الصحبة فيما قصده ؛ واقبل على البحر يبلع ماءه حتى غاض ، وبدت سفوح جبل بند ، فتشبثت دواب الماء به تخدشه حتى ثلمته بالحفر ، وثقبته أخاديد ، احتفظت بالجواهر واللآلىء فيها تزدان بها وبالاشجار والحيات • واعتاض البحر عن ذلك بحسن لمعان السمك فيه وظهور الجواهر فى قراره التى يتزين بها زينة السماء بالكواكب • وكل ذلك من فعل سهيل الذى يطهر الماء من الاوساخ الارضية • ومهما زادت الانهار ونقصت ، فانها تقدم ما على وجهها من أنواع النيلوفر وألوانه الى القمر وكذلك ما يسبح فيها من البط مثلما تقدم الفتاة الورود والتحف عند اقترانها • وما أشبه تردد البط الابيض فى الماء مصوتا بشفتي الحسناء قد افترتا عن اسنانها وهى تضحك ضحك

الفرح ، بل ما أشبه النيلوفر الابيض والاسود بسواد حدقتيها وما يحيط بهما من بياض . فاذا رايت الحياض قد أشرق عليها ضياء القمر ، وانفتح ما انضم من نيلوفرها الابيض والاسود ظننتها وجه حسناء تنظر بعين دعجاء من مقلة بيضاء . وقد تسيل فى الحياض الحيات والسموم والقاذورات ، ولكن طلوع سهيل عليها يطهرها من النجاسات والآفات . ومن أجل ذلك كانت خطرة ذكر سهيل على بال الانسان ماحية لآثامه الموجبة لعقابه ، فانطلاق اللسان بمدحه أبلغ فى حط الاوزار عنه واكتساب الثواب . ويجب أن يعرف وقت طلوعه ويقدم القربان اليه .. وفى أول ظهوره يكون عسر الادراك لا يهتدى له كل ناظر ، فينبغى أن يسأل المنجم عن سمت مطلعه ، وحينئذ قدم النذور له ، وافرش الارض بما يتفق من الورود والرياحين ، والق عليها ما بدا لك من الذهب والثياب والجواهر البحرية ، وقدم البخور والزعفران والصندل والمسك والكافور مع ثور وبقرة وطعام كثير وحلوى . ومن فعل ذلك سبع سنوات متوالية بنية صالحة واعتقاد قوى وثقة ملك الارض والبحر المحيط بها من الجهات الاربع ! »

ولهم مع كل كوكب وكل جبل وكل شجرة كبيرة وكل ظاهرة فى الطبيعة مثل هذه الاسطورة ، بل ما يزيد عنها خرافة وتهريفا ، فمن ذلك ما يزعمون من أنه : « كان فى الزمن القديم ستة عشر جبلا تطير بأجنحة لها ، فأحرق أجنحتها شعاع «اندر» رئيس الملائكة ، فسقطت حول البحر المحيط ، فى كل جهة منه أربعة . وفيما بين الثالث والرابع من جبالها التى سقطت فى الشرق نار تشرب ماء البحر ، ولولا ذلك لامتلأ وفاض بدوام انصباب الانهار فيه . وزعموا

أنها نار ملك قديم لهم يسمى « أورب » ورث الملك عن أبيـــه وقد قتل وهو جنين ، فلما ولد وترعرع وسمع خبر أبيه غضب على الملائكة ، وجرد سيفه لقتلهم ، بسبب اهمالهم حفظ العالم مع عبادة الناس لهم ، وتقربهم اليهم ، فتضرعوا اليه واستعطفوه حتى أمسك . فقال لهم : « ماذا أصنع بنار غضبى ؟ »، فأشاروا عليه بالقائها فى البحر ، فهى التى تشرب مياهـــه » . ومن زاعمهم فى منازل القمر أنها بنات تزوج بهن ، وأولـــع من بينهن باحداهن وآثرها عليهن ، وحملت الغيرة أخواتهـــا على شكايته الى أبيهن ، فأغلظ عليه فى التسوية بينهن ووعظه فلم ينجع فيه وعظه وحينئذ لعنه فأصاب وجهه البرص . وندم القمر على فعله ، فجاءه تائبا عن ذنبه ، فقال له الاب : « ان قولى واحد لارجوع فيه ، ولكنى أستر فضيحتك فى كل شهر مدة نصفه فلا تظهر للناس » . فقال القمر : « فالذنب السالف كيف ينمحى عنى أثره ؟ » قال : « أنصب مخدومـــا لك ، ونصب له مخدوما أو صاحبا ، وهو الذى يرمز اليـــه صنم « سومناة » وسوم هو القمر ، ونات الصاحب ، فهو صاحب القمر ، وهو من أكبر اصنامهم » . وقد قلعه محمود الغزنوى فى سنة ست عشرة واربعمائة وكسر أعلاه

وميثولوجيا الهند واسعة ومعقدة . وعلى هذا النحو يمضى البيرونى فى تصويرها من جميع أطرافها ، وقد وقف طويلا عند رسوم البراهمة فى دينهم وصدقاتهم ومجاهداتهم ، وما كانوا يبيحونه ويحرمونه من المطاعم ، كما وقف عند قرابينهم وكيف كانوا يقدمونها الى النار لتقدمها بدورها الى الآلهة ، وزعموا فى سبب ذلك أنها خجلت فى أول الزمان من آلهتهم فسقطت الى الارض السفلى ، وأقبل بعض الآلهة ، يبحث عنها

فدلته عليها الضفدع ، فدعت عليها أن تكون ناقصة الصياح وتوارت فى شجرة فدلته الببغاء على مكانها ، فدعت عليها بانقلاب اللسان • وأخيرا عثرت الآلهة عليها فأصلحتها وقومتها ، وجعلتها واسطة بينهم وبين الناس ، تأخذ قربانهم منهم وتوصله اليهم

ويقص البيرونى حجهم الى الاصنام المقدسة ، والانهار المعظمة ، وعلى رأسها نهر الكنج ، ويزعمون أنه من أنهار الجنة ، حملته الآلهة الى الارض ، وجميعهم يرون من حق الميت على الورثة أن يغسل ويعطر ويكفن ثم يحرق بما أمكن من صندل أو حطب ، وتحمل بعض عظامه المحترقة الى نهر الكنج ليلقى بها فى الجنة . ومن عجز عن الاحراق ألقى الجثة فى الماء الجارى • وتحرق الارملة التى تؤثر اتباع زوجها ، وكذلك يحرق كل من مل حياته أو تبرم بجسده من مرض عياء أو شيخوخة وضعف ، وكأنما يرون فى النار باب خروجهم الى عالم وجودهم الحقيقى • ومن شعائرهم الصوم ، ومنهم من يطيله تقربا الى الله أيام شهر متوالية ، لا يفطر فيها البتة، ويعتقدون أن من واصل جميع الشهور صائما ، فلم يفطر فى السنة الا اثنتى عشرة مرة ، مكث فى الجنة عشرة آلاف سنة ثم عاد الى الحياة فى أهل بيت ذى شرف ورفعة وحسب

◘

ولنترك البيرونى الى ما يقصه القزوينى من عجائب الهند فمن ذلك شجرة كسيوس ، وهى شجرة حلوة الثمرة يقع الحمام عليها ، ويأكل من ثمرتها فيغشى عليه ، وتراه الحيات فتقصده ، تريد أكله ، ولكنها لا تستطيع الاقتراب من الشجرة ما دام على أحد اغصانها أو فى ظلها • ومن ذلك البيش

وهو نبت سام قاتل ، اذا أكل منه أى حيوان مات ، ومن غرائبه أن فأرة تتوالد تحته ، اذا أكلت منه لم يصبها أى ضرر ، ويقال ان ملوك الهند اذا أرادوا الغدر بأحد عمـدوا الى الجـوارى اذا ولدن وفرشوا من هذا النبت تحت مهودهن زمانا ، ثم تحت فراشهن زمانا ثانيا ، ثم تحت ثيابهن زمانا ثالثا ، ثم يطعمونهن منه فى اللبن ، حتى اذا كبرت الجارية وتناولت منه شـيئا لم يضرها ، ثم يبعثون بها مع الهدايا الى من أرادوا الغـدر بهم من الملوك ، فاذا اقتربوا منها ومسوها ماتوا فى الحال . وبها من يرقون من تلسعهم الحيات فيبرءون ولا يؤذيهم السم ! . وبها طير عظيم الجثة جدا ، اذا مات اتخذوا من نصف منقاره مركبا يركبونه فى البحر ! وببعض أرضهم نوع كبـير من النمل أسرع عدوا من الكلب ، وهو يأكل من يقترب منه ! . وبها جبل عليه صورة أسدين ، يخرج من فم كل منهما ماء كثير تدور عليه ساقيتان كل ساقية تروى قرية . وبها طائر على هيئة القمرى ، اذا أحضر الطعام وكان مسموما دمعت عيناه وجرى منهما ماء وتحجر ، فاذا تحجر سحق ، وجعل على الجراحات فتلتئم فى الحال . وبهـا معبد سومنات (فى شـمالى الهند) يحجون اليه عند خسوف القمر ، ويزعمون أنه هو الذى ينشىء الارواح بعد مفارقتها لاجسادها فيمن شاء ، على مذهبهـم المشهور فى التناسخ ، ويؤمنون بأن مد البحر وجزره عبادة له ، وبينه وبين الكنج مائة فرسخ وفى كل يوم يحملون اليه منه جرارا يغسلونه بها ، ويقوم على سدانته ألف رجل من البراهمة . وبيت المعبد مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص ، وقبته مظلمة وهى تضىء بقناديل الجوهر الفائق . ومن عجائب الهند حجر اذا ألقى على النار ونظر

اليه الانسان انتفخ ،حتى يصبح ضعف ما كان ، ويروى أن بعض الهنود جلب منه عودا ووضعه فى مجمرة أمام بعض النـــاس ففزع اذ رأى وجه من كان قاعدا معه انتفخ ، وشخصت عيناه وتغير فى الحال . فأمر برفع المجمرة ، فرجع جليسه الى حاله الاول ، فقال له : انى رأيتك قد انتفخت انتفاخا عظيما ، فقال له : وأنا أيضا رأيت منك ذلك . فعرفوا أنه من خاصية العود الذى القى فى المجمرة

▱

وقد أقام ابن بطوطة فى الهند ثمانى سنوات تبدأ بسنة ٧٣٤ هـ واتصل بســـلطانها محمـــد بن تغلق ، فأكرم وفادته عليه وولاه منصب القضاء ، وقد وصف فى رحلته مدن الهند وعجائبها وصفا مسهبا ، وزعم فيما زعم أنه رأى على بعد سبعة أميال من مدينة لاهرى مدينة مسخ أهلها حجارة كما مســـخت حيـــواناتهم وحبـــوبهم من القمح والحمص والفول والعدس . وتحدث عن احراقهم لاجسادهم ، واغراقهم لانفسهم فى نهر الكنج المقدس ، كما تحدث عن الســـحرة الجوكية ، وأن منهم من يستطيع أن يتصور فى صورة سبع ، ويهجم على الدور ليلا ويفترس الصبية ، وهم يقتدرون قدرة غريبة على الصيام حتى ان منهم من يقيم الشهور المتعاقبـــة لا يأكل . والناس يذكرون أنهم يعتمدون على حبوب خاصـــة يأكلون الحبة منها لايام وأشهر معلومة ، فلا يحتاجـون الى طعـــام ولا شراب ، ويخبرون بأمور مغيبـــــة وســـلاطينهم يعظمونهم . ومنهم من يقتصر فى أكله على البقـل ولا يأكل اللحم ألبتة

يقول ابن بطوطة : والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم

الرياضة على ذلك ، وهم يعزفون عن الدنيا وطيباتها ، ويزعم أن منهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته . وتقول العامة هناك : انه اذا قتل انسان بالنظر من هؤلاء السحرة وشق عن صدره وجد دون قلب ! . وأكثر ما يكون هذا السحر فى النساء ، والمرأة التى تشتهر بذلك تسمى « كفتار » ويظل ابن بطوطة يهرف ويبالغ على هذا النحو الذى يجعل رحلته فى بعض جوانبها حديث خرافة

فى ايران وآسيا الوسطى

ربما كان أول من تكلم بالتفصيل عن عجائب ايران وآسيا الوسطى أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجى ، وكان ـ كما قدمنا ـ قد رحل من بخارى الى الصين ثم رجع من الهند ، وذكر بعض أعاجيب رآها فى رحلته نقلنا أطرافا منها فيما مر من حديثنا عن بلاد الهند والصين ، وقد تغلغل فى التركستان وايران ، وسجل فى رسائل مختلفة مشاهداته الغريبة ، ونقلتها عنه كتب الجغرافيا وكتب العجائب ، وقد طبعت وزارة التربية والتعليم احدى رسائله ، وفيها يصف كثيرا من مدن ايران وآسيا الوسطى ، متحريا ذكر المعادن والنباتات والحيوانات والمنتجات المختلفة، وأول مدينة تحدث عنها فى هذه الرسالة مدينة شيز فى شرقى ايران ، وقد ذكر أن بها بيت نار لعبادة المجوس ، على رأس قبته هلال فضة هو طلسمه ، ويقول انه يوقد منذ سبعمائة سنة فلا يوجد فيه رماد ، ولا ينقطع عنه الوقود ساعة من الزمان ! وفى وسط هذه المدينة بحيرة لايدرك لها غور ، واذا قصدها عدو ونصب منجنيقه على سورها فان ما يقذف به من حجارة يقع فى البحيرة

وواضح من هذين الخبرين عن البحيرة وبيت النار مدى ما يدخله أبو دلف على وصفه من مبالغات ، وكان له خيال

يستطيع ان يقلب به الحقيقة الى عجيبة غريبة ؛ وهـــو اول من خط هذا الاتجاه ووسع فيه ، ليتحول فيما بعد الى كتب العجائب التى نوهنا بها فى القسم الاول من هذا الـكتاب ٠ وكان يكثر من ذكر الطلاسم التى تمتاز بها المدن ، فكل تمثال وكل هيئة غريبة طلسم ، وأيضا فانه تحـــدث عن تاريخ البلدان ومنشئيها من ملوك الفــرس أو من غيرهم ، وهو تاريخ شعبى ان صح هذا التعبير ، وقد زعم ان الذى بنى مدينـــة شيز هو هرمز ملك الفرس

وألم أبو دلف بمدينة قرميسين وبجبل بيستون القريب منها ، ومعروف أنه نحتت به صور وتماثيل هى من عجائب الدنيا ، وبينها تمثال عظيم لدارا الاكبر ، يشير الى انتصاراته على ملوك ماثلين بين يديه . وبالقرب من ذلك طــاق بستان وبه تمثال لكسرى الثانى أبرويز على فرسه شبديز وصورة شيرين زوجته ووصيفاتها ومواليها ٠ وقد أورد ابن حوقل تفسيرا عجيبا لتمثال دارا والملوك القائمين بين يديه ، فقـــال ان هذه الصورة تمثل دارا اســـتاذا ، ومن بين يديه من الملوك تلاميذه ، وزعم أن الانحناء البادى فيه هو انحناءة الاستاذ فى يده سوط

ويمضى ابو دلف فيمر بهمذان ويذكر انها كانت مدينة دارا الاصغر الذى هزمه الاسكندر ، ولا تزال هذه المدينة فى وسطها، ويقول فى وصفها : « مدينة كبيرة مبنية على دكة (طوار فسيح) يكون ارتفاعها ثلاثين ذراعا ، ولها اربعة ابواب وطاقات عالية » ووصف أبى دلف للمدينة أو لقصر دارا غير دقيق ، ومعروف ان ملوك الفرس فى هذا التاريخ ، كانوا يتخذون لقصورهم درجا خارجيا يرقاه القادم الى الطوار الواسع الذى شيد عليه

القصر ببهوه الفسيح ، وغرفه ومقصوراته الكثيرة ، ويتراوح ارتفاع الدرج بين عشرين وخمسين قدما . ويستطرد ابو دلف فيذكر هذه الاسطورة التاريخية :

« قيل ان دارا لما زحف اليه الاسكندر شاور وزراءه فى مدينة حصينة يحرز فيها اهله وكنوزه ، فقال له بعضهم : أعرف مدينة خربة بين جبال شامخة وطرق وعرة ، أن بناها الملك واحرز فيها ذخائره ووكل بحفظها اربعة آلاف من ثقاته امتنعت على كل من رامها ، ووصفها له ، فسار اليها دارا حتى رآها وعلم انها تمتنع على من ارادها ، فبناها وجعل فيها خزائن جامعة لامواله وكنوزه ، وجمع فيها اهله ووكل بها ثقاته . فلما كان من أمر الاسكندر مع دارا ما كان ، أنفذ اليها جيشا عظيما ، فأقام عليها مدة لايقدر على فتحها ، فهم رئيس الجيش بالانصراف ، فقال له نصحاؤه : كاتب الاسكندر فى انصرافك وعرفه أمرها . فكتب اليه فى ذلك . وكتب الاسكندر الى مؤدبه أرسططاليس يعرفه أمرها ، فأجابه : صورها لى بطرقها وجبالها وانهارها . ففعل ذلك ، وانفذ الصورة اليه . فكتب يأمره بسد نهرها على نحو فرسخ منها سنة بطولها ، ويوثق سده ، فاذا كان بعد سنة فتح ماءه وقرن البقر والجواميس والبغال والدواب بعضها مع بعض وارسلها فى الماء فانها تفتح السد ، واذا فتحته حمل الماء على المدينة فهدم سورها وتهيأ له دخولها . ففعل ذلك ، فاقتلع الماء بحدته لما انفتح السد سور المدينة وحمل معه صخورا كبارا لاتزال فى شوارعها ، ودخل اصحاب الاسكندر المدينة واستولوا عليها »

ويصل ابو دلف الى جبل دنباوند فى شمالى ايران ، وهو

اعلى جبالها ، اذ يبلغ ارتفاعه نحو ٢١ الف قدم ، ولا يفارق الثلج قمته صيفا ولا شتاء ، وهو يرى على مسيرة عدة ايام ، ويبعد من طهران الى الشمال الشرقى نحو خمسين ميلا ، وهو جبل بركانى كان لايزال يرسل حممه فى العصور الوسطى ، وقد وصفه جغرافيو العرب بأنه ينفث الدخان نهارا والنار ليلا ، وسيوله غنية بالمواد المعدنية ، وخاصة الكبريت ، وبه عيون كثيرة . وللفرس أساطير كثيرة ، حول الجبل تتصل بملوكهم الاسطوريين ، امثال أفريدون ، ويقال انه سجن فيه الملك الظالم بيوراسب (الضحاك) باحدى قممه وانه لايزال حيا به على الدهر لايموت ، ويظنون أن الاصوات الكئيبة التى تسمع من البركان هى انينه وتأوهاته ، وان الدخان الذى يتصاعد من شقوق الجبل والعيون التى عليه هما انفاسه . وهناك أسطورة تزعم ان سليمان حبس به ماردا ، واخرى تزعم انه الجبل الذى رست عليه سفينة نوح . ولنترك أبا دلف يحدثنا عنه :

« بدنباوند جبل عال مشرف شاهق شامخ ، لايفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا ، لايقدر أحد من الناس ان يعلو ذروته ولا يقاربها ، يعرف بجبل بيوراسب . وتزعم العامة ان سليمان بن داود عليهما السلام حبس فيه ماردا من مردة الشياطين يقال له صخر المارد . ويزعم آخرون ان افريدون الملك حبس فيه بيوراسب ، وأن دخانا يخرج من كهف فى الجبل تقول العامة انه أنفاسه . ويرون نارا فى بعض كهوفه فيقولون انها عيناه ، وان همهمته تسمع هناك . فاعتبرت ذلك وارتصدته ، ولزمت المكان وصعدت فى الجبل حتى وصلت الى نصفه بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس . وما اظن احدا

تجاوز الموضع الذى بلغت اليه ، بل لم يصل اليه انسان فيما اظن . فتاملت الجبال ، فرايت عينا كبيرة نقية وحولها كبريت مستحجر ، فاذا طلعت عليه الشمس والتهب ظهرت فيه نار . والى جانبه ماء (سيول) يمر تحت الجبل ، تخترقه رياح مختلفة ، فتحدث أصواتا متضادة على ايقاعات متناسبة ، فمرة مثل صهيل الخيل ومرة مثل نهيق الحمار ومرة مثل كلام الناس . وهى مثل الكلام الجهورى دون المفهوم وفوق المجهول ، يتخيل السامع انه كلام يدوى ولغة انسى ، وذلك الدخان الذى يزعمونه بخار تلك العين الكبريتية . وهذا الحال يحتمل على ظاهر هذه الصورة ماتدعيه العامة ! وما رأى أحد راس هذا الجبل فى وقت من الاوقات منحسرا عنه الثلج ، الا وقعت الفتنة واريقت الدماء من الجهة التى يرون الثلج منحسرا عنها ! »

وقلما يذكر ابو دلف بلدا الا يعود ببنائها الى ملوك ايران أو بعض التبابعة اليمنين أو جن سليمان . وتكثر هذه النسبة الاسطورية فى كتب العجائب ، كما تكثر معها الخرافات

□

ولنستعرض بعض ماجاء فى كتابات القزوينى ، يقول عن « أبهر » احدى مدن ايران ان سابور هو الذى بناها ، وكانت كلها عيونا ،فسدها بالصوف والجلود وبنى المدينة عليها ، أما أصبهان فقد بناها الاسكندر المقدونى وعمرها بختنصر بأسراه من بيت المقدس. وقد نزل فى قديم الزمان عسكر فى « بروجرد » فمسخ حجارة صلدة . وبقرب نهاوند جبل عليه طلسمان : صورة ثور وسمكة ، وجبل آخر عليه ايوان كبير يسع الف نفس ، وفى آخره أربعة أحجار تشبه أثداء

النساء يتقاطر من ثلاثة منها الماء . وبالقرب من قزوين جبل عليه صور حيوانات وأناس مسخت أحجارا ، منها راع متكىء على عصاه يرعى غنمه ، وامرأة تحلب بقرة . وبجرجان عين بقربها دودة ، من اخذ من العين ماء ومست رجله تلك الدودة أصبح الماء مرا لايمكن شربه . ومن عجائب جيلان ان المطر يسقط بها مدرارا ، فاذا سمعوا بالليل صوت ابن آوى وأعقبه نباح كلب ، بشر بعضهم بعضها بصحو الغد . وبالقرب من طبرستان حصن الطاق ، وكان فى قديم الزمان خزانة ملوك الفرس ، واول من اتخذه منهم منوجهر ، وهو نقب فى موضع عال فى جبل صعب المسلك ، والنقب يشبه بابا صغيرا ، فاذا دخله الانسان مشى نحو ميل فى ظلمة شديدة ثم يخرج الى موضع واسع شبه مدينة قد أحاطت به الجبال من جميع الجوانب ، وهى جبال لايمكن صعودها لارتفاعها . وكان يحفظ هذا النقب فى ايام الفرس رجلان معهما سلم يدلونه من الموضع الذى هما فيه اذا اراد أحدهما النزول ، فلا يصل الى الارض الا فى دهر طويل !

وفى طبرستان على بحر الخزر شجرة اذا القيت شيئا من عيدانها فى الماء يموت ما فيه من السمك ، ويطفو على وجهه ، وفيها جبل به مغارة فيها دكة اذا لطخت بشىء انفتحت السماء وامطرت مطرا شديدا . وفيها حشيش من قطعه ضاحكا واكله ، غلب عليه الضحك ، ومن قطعه باكيا واكله غلب عليه البكاء ، وكذلك من قطعه راقصا ، فكل من قطعه وهو على حال غلبت عليه . ويقولون ان بها طائرا يسمى ككو ، ذيله يشبه ذيل الببغاء ، يظهر ايام الربيع ، فاذا ظهر تبعه صنف من العصافير موشاة الريش ، يخدمه طول نهاره ، ويأتى له

بالغذاء حتى اذا أمسى المساء أكل ماحوله من تلك العصافير ، واذا اصبح صاح فجاءته عصافير اخرى ، تقوم على خدمته حتى اذا جاء المساء اكلها ، وما يزال هذا شأنه طوال الربيع ، فاذا زال الربيع فقد ذلك النوع الى الربيع القابل

ومن بلاد التركستان طمغاج واهلها يتخذون من الذهب اوانيهم ، وهم زعر لاشعر على جسدهم ، رجالهم ونساؤهم . وفى مدينـــة تســـمى الغـــور عين يذهب اليها النـــاس فى يوم معين من السنة ، فيرمون فيهـــا بســـهامهم ، فاذا اصبحوا وجدوا السهام خارج العين ، وعلى نصل بعضـــها رءوس الحيوانات من الذهب ، اما رأس طير أو ســـمك أو اوز او حيوان آخر ، وبعض السهام تخرج وليس على راسها شيء .وبها السمندل وهو حيوان كالفأر يدخل النار ولا يحترق، ويخرج والنار قد ازالت وسخه وصفت لونه وزادته بريقا ، ويتخذ من جلده مناديل ثمينة ، واذا اتسخت القيت فى النار فزال وسخها . وفى التركستان ثلج وبرد كثير ، وحصى اذا حركوه سقطت عليهم الامطار الغزيرة

ويروى القزوينى ان فى قزوين مقبرة ، يأتيها الناس فى ليلة الجمعة ، فيرون بها أنوارا غريبة تصعد من القبور وتنزل فيها ، يقول : ولقد رأيت فى بعض الليالى عجبا ، وذلك انه قد طلع من بعض قبورها كرة قدر ابريق ، وصعدت نحو الهواء أكثر من عشرين ذراعا ، واضاءت الجـــوانب بنـــورها ، ورآها غيرى خلق كثير ، ولم تكن على لون النار ، بل كانت على لون القمر ضاربة الى الخضرة ، ثم عادت الى مكانها . وبسمرقند جبل به غار يتقاطر منه ماء بارد صيفا وحار شتاء ، وفى طشقند جبل حجارته سود تحترق مثل الفحم ، واذا احترقت اشتد بياض

رمادها ، فيستعمل فى تبييض الثياب ، ولا يعرف مثله فى شىء من البلاد ! • وفى فرغانة نبات على صورة الآدميين ، منه مايكون على صورة الرجال ، ومنه مايكون على صورة النساء . وقد مرت بنا اسطورة جبل دنباوند عند أبى دلف مسعر بن مهلهل ، وانتهت عند القزوينى وسط هذه الخرافات والتهويلات الى هذه الصورة :

« ذكر محمد بن ابراهيم انه شخص الى دنباوند ليقف على المحبوس به ، فوافى القرية التى فى حضيض الجبل ، ومعه بعض عساكر الخليفة المأمون ، فظلوا اياما يرومون الوصول الى بيوراسب ولا يهتدون اليه ، حتى أتاهم شيخ كبير عمره نيف وتسعون سنة ، فأعلموه مرادهم ، فقال لهم : أما الوصول الى هذا الملتمس فلا سبيل اليه ، لكن ان احببتم الوقوف على صحة ذلك أريتكم برهانه ، فاستحسن محمد بن ابراهيم رأيه . وصعد الشيخ ، قال محمد بن ابراهيم : وصعدنا خلفه الى الجبل ، واوقفنا عند موضع ، وقال : بالغوا فى حفره ، فحفرنا حتى انفتح لنا عن بيت منقور من الحجارة وفيه تمثال على صورة عجيبة ، وهو يضربه على أغلاله وقيوده ساعة بعد ساعة من غير فتور . فسألنا الشيخ عن شأنه ، فقال : هذا طلسم على بيوراسب المحبوس هاهنا ، لئلا ينحل من وثاقه ، فانه لايزال يشد فى اغلاله حتى ترق وتلين ، فاذا ضربتها بمطرقتى عادت اغلاله كما كانت فى غلظها وثخانتها . ثم أمرنا ألا نتعرض للطلسم وأن نرده الى ما كان عليه ، ففعلنا كما قال ، ثم انتهينا الى سلالم أطول ما تكون ، فأمر الشيخ بشد بعضها الى بعض ،حتى بلغت قريبا من مائة ذراع ، ثم أمرنا برفعها وبنقب موضع فى الجبل ، فظهر باب عليه مسامير حديد

مذهبة وفوقه كتابة بالذهب تنطق بأن فى قمة الجبل سبعة أبواب من حديد ، وأن من فتح أحدها هجم على الاقليم آفة لاتندفع ، وحادثة لا تمتنع . فقال محمد بن ابراهيم ، حين رأى ذلك لمن معه : لاتتعرضوا لشىء حتى نستأذن الخليفة . وكتب الى المأمون بما شاهد هو ومن معه من العسكر ، فكتب اليه المأمون: لاتتعرض لشىء من ذلك واتركه على حاله »

واكبر كتاب يعرض لهذا التاريخ الاسطورى لايران وللفرس هو كتاب « غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم » لابى منصور الحسين بن محمد المرغنى الثعالبى ، وهو غير الثعالبى مؤلف كتاب اليتيمة المشهور ، وكان يعاصره كما كان يعاصر الفردوسى الذى نظم قصيدة قصصية طويلة تربو على اربعين الف بيت من الشعر فى تاريخ الفرس من أول نشأتهم وقد ضمنها كثيرا من الاساطير .

وكتاب الثعالبى المذكور يعرض كذلك تاريخ الفرس منذ نشـــأتهم الاسطورية وما اقترن بهـــا من ملوك خرافيين ، وهو يعرض هذا التاريخ عرضا بديعا ، تسوده القصة والخرافة فى كثير من جوانبه ، وقد عرض فى أوائل كتابه للملك الاسطورى بيوراسب الذى يسميه العرب باسم الضــحاك ، وكان ظالمـا سفاكا للدماء ، وقد بدأ حياته بقتل أبيه ، وكأن ابليس كثيرا مايتصور له ، وقبل منكبيه يوما ونفخ فيهما من خبثه وسحره ، فخرجت بهما حيتان ، كلما قطعتا عادتا كما كانتا وآلمتاه جدا ، وتصور له ابليس فى صورة طبيب ، وقال له ان هاتين الحيتين لاتهدآن الا اذا اطعمتا برءوس الآدميين ، فكان يقتل كل يوم شابين ليطعم الحيتين ، ومازال يفعل ذلك بشـــباب فارس عشرات السنين ، حتى ثارت به الرعية وعلى رأسها افريدون ،

فقتله واستولى على الملك من بعده . يقول الثعالبى ، ويزعم الفرس انه حمله الى جبل دنباوند وحبسه فى بئر هناك .. وفى اكاذيبهم انه لا يزال يعد فى الاحياء بهذا الجبل وانه من المنظرين كابليس الى يوم القيامة

ويمضى الثعالبى على هذا النحو فى كتابه يقص اخبار ملوك الفرس قصصا اسطوريا خرافيا حينا ، وقصصا واقعيا حينا آخر ، ومن اساطيره التى لايقبلها العقل اسطورة اسفنديار وانه اخترق الى مدينة الصفرية طريقا لم يسلكه أحد ، به ذئبـــان كالفيلين وأسدان كجبلين وثعبان يهجم من السحاب (التنين)، وساحرة تسحر من يمر بها وعنقاء (الرخ) قاتلة ، ويقتحم اسفنديار الطريق ويقتل كل هذه الدواهى ، ويدخل مدينة الصفرية ويتغلب على ملكها أرجاسف

فى بلغار الفولجا وشرقى أوربا

من المعروف أن البلغار أسسوا فى أوائل العصور الوسطى دولتين أولاهما على نهر الفولجا وفى شماليها وغربيها الروس ، والثانية فى حوض نهر الطونة ، وهى التى لايزال يطلق عليها اسم البلغار او بلغاريا ، وقد يطلق العرب على كل المنطقة الممتدة على البحر الاسود فى أوربا اسم الصقالبة ، ويليهم الروم فى القسطنطينية قبل استيلاء العثمانيين عليها ، ومن وراء الروم الباشغرد أو المجر ، أما بحر قزوين فيطلقون عليه اسم بحر الخزر

وأول من ترك لنا وصفا مسهبا لهذه الاقاليم ابن فضلان الذى أرسله الخليفة المقتدر فى سنة (٣٠٩ هـ) مبعوثا دينيا مع وفد الى ملك البلغار على نهر اتل أو اتلا (الفولجا) وكان هذا الملك قد كتب الى الخليفة يسأله أن يبعث اليه من يفقهه ويقومه فى الدين الاسلامى . فأرسل اليه المقتدر ابن فضلان المذكور مع وفد كبير ، ووصل هذا الوفد الى البلغار فى ١٢ من شهر المحرم سنة ٣١٠ للهجرة . ولما عاد ابن فضلان الى بغداد كتب رسالة فى وصف هذه البلاد وما اتصل بها من بلاد الخزر والصقالبة والباشغرد والروس . وتغلب على رسالته روح المبالغة ، بل روح التهويف والتخريف ، ومع ذلك استمرت أهم مصدر لوصف هذه الاقاليم مدة طويلة من الزمان ، واعتمد عليها كثير من مؤرخى العرب وجغرافييهم .

وقد احتفظ ياقوت فى كتابه معجم البلدان بكثير من جوانب هذه الرسالة

وأول شعب تحدث عنه ابن فضلان فى أوربا الشرقية هو الخزر ، وكانوا قد أقاموا مملكة فى جنوبى نهر اتلا (الفولجا) وكانت تسمى عاصمتها اتل وبها سمى النهر ، وكانت على مصبه . ويحدثنا ابن فضلان انها كانت على جانبى النهر ، وفى أحد الجانبين المسلمون ، وفى الجانب الآخر الملك واصحابه من غير المسلمين ، ويقول انه كان هناك خزر سود وخزر بيض، وأن ملكهم يلقب بالخاقان ، ومن رسمهم انه اذا مات بنيت له دار كبيرة ، فيها عشرون بيتا ، ويحفر له فى كل بيت قبر ويخفون الدار فى جانب النهر ، حتى لايصل اليه فيما زعموا شيطان ولا انسان ولا هوام

ويقول ابن فضلان : الرحلة من اتل عاصمة الخزر الى البلغار تستغرق شهراً فى البر وشهرين فى النهر ، وكانت عاصمتهم تبعد عن الفولجا نحو ستة فراسخ بالقرب من مدينة قازان الحالية وقد استقبل ملكهم الوفد استقبالا حافلا . ويأخذ ابن فضلان فى سرد ملاحظاته ، وهى تدل على أنهم كانوا لا يزالون متأخرين بالقياس الى العالم الاسلامى ومدنيته ، ومما لاحظه أن كلا منهم يأكل على مائدة منفردة ، وأنهم يحيون ملكهم بانحناء الرأس ، ورفع القلانس ، وجعلها تحت الابط ، وهم لا يدفعون له شيئا مما تنتجه أراضيهم ، انما يؤدى له كل بيت جلد ثور ، كما يقدمون له حصة من غنائم الحرب . ولاحظ أن النهار يطول عندهم صيفا ، حتى ليتعذر تحديد موعد صلاة العشاء ، اذ سرعان ما تتفلت فى الافق تباشير الصباح . يقول : « ورأيت من العجائب مالا أحصيها كثرة ، فمن ذلك أن أول ليلة بتناها

هناك ، رأيت قبيل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقداحمر احمرارا شديدا ، وسمعت فى الجو أصواتا عالية وهمهمة ، فرفعت رأسى ،فاذا غنم أحمر مثل النار قريب منى ، واذا تلك الهمهمة والاصوات منه ، واذا فيه أمثال النـــاس والدواب ، واذا فى أيدى الأشباح التى فيه قسى ورمـاح وســـيوف ، أتبينها وأتخيلها • واذا قطعة مثلها أرى فيهــــا رجـــالا أيضا وسلاحا ودواب ، فأقبلت هذه القطعة على تلك ، كماتحمل الكتيبة على الكتيبة ، ففزعنا ، وأقبلنـــا على التضرع والدعاء •• وكنا ننظر الى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعـا ساعة ثم تفترقان ، وما زال الامر كذلك شطرا من الليـــل ثم غابتا • وسألت الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون هؤلاء من مؤمنى الجن وكفارهم يقتتلون كل عشية ،وأنهم لا يعدمون ذلك فى كل ليلة • ورأيتهم يتبركون بعـواء الكلب ، والحيات عندهم كثيرة ، وكذلك الصواعق • وينزل الرجـال والنساء النهر ، فيغتسلون جميعا عراة ، لا يستتر بعضهم من بعض ، واجتهدت أن تستتر الرجال من النساء فما اســـتقام لى ذلك »

وقال ابن فضلان عنـــد ذكر الباشـــغرد انهم وثنيون وكل منهم قد نحت خشبة وجعل منها صنما يحمله دائـما معه وكلما أراد أحدهم سفرا أو لقاء عدو قبل هذا الصنم وسجد له، وقال ان منهم من يعبد الحيات ومنهم من يعبد السمك ومنهم من يعبد الكراكى ، وزعم الاخيرون أنهم كانوا يحاربون قوما من أعدائهم فهزموهم ، وصاحت الكراكى من ورائهم ، فعبدوها وقالوا هذه ربنا ، لانها هزمت أعداءنا

وزار أبوحامد الغرناطى الرحالة الاندلسى المشهور هــذه

الانحاء فى القرن السادس الهجرى ، وتحدث عنها حديثا تغلب عليه الخرافة والاسطورة بأكثر مما يغلبان على حديث ابن فضلان، وسجل ذلك فى كتابه «تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب» وقد نشرت قطع منه ، وصف فيها شرقى أوربا ، ولانزال ننتقل فيها من خرافة الى خرافة ، يقول :

« ودخلت البحر الى بلاد الخزر ، فوصلت الى نهر عظيم (لعله نهر الفولجا) كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة ، وفى هذا النهر من أنواع السمك مالم أشاهد قط فى الدنيا مثله ، السمكة الواحدة حمل رجل قوى ، بل حمل جمل قوى ! • وقد عملت الجن لسليمان فى جانب ذلك النهر ألف نهر مقدار ميل ، وأخرجوا ترابه ، فصار كأنه جبل بجانب ذلك النهر

وبلغار مدينة عظيمة جميعها مبنية بخشب الصنوبر وسورها من خشب البلوط ، والنهار عندهم فى الصيف عشرون ساعة •• ويوجد فى أرضهم من عظام قوم عاد ، السن الواحد ، عرضه شبران وطوله أربعة أشبار ومن رأسه الى منكبه خمسه أبواع ، ورأسه مثل القبة العظيمة• وتوجد تحت الارض أنياب الفيلة • وتحدث عن الاقاليم الممتدة شمالى بلغار الفولجا الى المحيط المتجمد الشمالى ، وهو يسميها ويسوا ويورا على الترتيب• ويقول فى «ويسوا» القندز والقماقم والسنجاب • وما يلبث أن ينسج بعض أساطيره قائلا : «والقندز حيوان عجيب يتخذ بيوتا فى البر الى جانب النهر ، ويجعل لنفسه غرفة عالية وعن يمينه لامرأته درجة دون التى له ، وعن شماله لاولاده ، وفى أسفل ذلك البيت موضع لعبيده وللبيت باب الى النهر وباب الى البر ، ويأكل تارة السمك وتارة خشب الخلنج ، ويغير بعضهم على بعض ، ويسبى بعضهم بعضا ••

ووراء ويسوا ويورا بحر الظلمات (بحر البلطيق أو المحيط الاطلسى) وعندهم لا تغيب الشمس أربعين يوما وكذلك الليل فى الشتاء ، وهم يدخلون فى تلك الظلمة بالمشاعل ، فيجدون شجرة عظيمة مثل القرية ·· وهم فى أرض لايفارقها الثلج أبدا ، ويتخذ الناس لارجلهم ألواحا ينحتونها ، طول كل لوح باع وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعـــان عن الارض ، وفى وسط اللوح موضع يضع الماشى فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم، ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان فى رجله بشندال (بحبل) طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه فى يده الشمال ، وفى يده اليمنى عصا بطول الرجل ، وفى أسفل العصا مثـل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الانسان خفيفة · ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح فى السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة · ولولا تلك الحيلة لم يستطع أحد أن يمشى هناك ألبتـــه ، لان الثلج على الارض مثل الرمل لا يتلبد ، وأى حيوان مشى عليـه يغوص فيه ، فيموت ، ألا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والارنب ، فانها تمشى عليه بخفة وسرعة · ويحمل الى ويسوا السيوف من بلاد الاسلام ، وهؤلاء يحملونها الى يورا · وكل آدمى هناك يحتاج كل سنة الى سيف يلقيه فى بحر الظلمات · واذا ألقوا سيوفهم فيه أخرج الله لهم منه سمكة مثل الجبل العظيم ، تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافا مضاعفـــة ، تريد أكلها فتفر الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير فى موضع لا يمكنها الرجوع منه الى البحر ، فتبقى هنـــاك ، وترجع الكبرى الى البحر · ويدخل أهل يورا الى البحر فى

السفن ويقطعون من جوانبها ، وهى لا تحس ولا تتحـــرك ، فيملئون بيوتهم من لحمها ، ويصعدون على ظهرها وهى كالجبل العظيم ٠٠ وفى بلادهم نوع من الطير الكبير ، له مناقير طوال مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الاعلى على اليمين ستة أشبار والاسفل على الشمال ستة أشبار مثل لام ألف٠ واذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمد أو على الثلج أذابته كما تذيب النار»٠ ويركب البحر الاسود الى بلاد الصقالبة ، ويقول ان فيه حيات سوداء كبيرة بعضها على بعض ! وينزل بين الصقالبة ويروى عنهـم بعض العجائب ، فمن ذلك أنه يكثر السحر عندهم على رأس كل عشر سنوات ، وهم يعتقدون أن عجائز النســـاء هن اللائى يصطنعنه ويشعنه ، ولذلك يأخذون كل عجوز منهن بينهـم ، فيشدون يديها ورجليها ويلقون بها فى النهر عنـــدهم ، فمن رسبت فى الماء تركوها وعلموا أنها ليست بساحرة ، ومن طفت على الماء حرقوها بالنار ٠ ويتغلغل فى بلاد باشغرد ويذكر أن عندهم بقرا وحشيا مثل الفيلة ، لعله التيتل ، ويقول :

« رأيت فى تلك البلاد من قبـــور قوم عاد قبورا كثيرة ، وأخرجوا لى نصف أصل ثنية واحدة (الثنية الاضراس الاربع فى مقدم الفم) منهم عرضها شبر ووزنها ألف ومائتا مثقـال، وأخرجوا لى رأس رسغ (مفصل ما بين الذراع والكف) واحد منهم ، فما استطعت أن أرفعه من الارض بيد واحـــدة ! ٠٠ ورأيت فى بلغار رجلا من نسل العاديين ، طوله أكثر من سبعة أذرع ، وكان قويا يأخذ الفرس المذبوح فيكسر عظمه ، ويقطع جلده وأعصابه فى سرعة خاطفة ٠ وكان ملك البلغار قد اتخـذ له درعا يحمل معه فى الحروب على عجلة كبيرة ، وله خوذة من حديد مثل المرجل الكبير »

وأكبر رحالة زار هذه البلاد بعد أبى حامد هو ابن بطوطة الطنجى ، وقد عبر اليها البحر الاسود من الاناضول بعد أن تجول فى كثير من بلاده قبل أن يصبح دولة واحدة على يد العثمانيين ، وراعه فى بلدانه نظام من نظم الفتوة كانوا يسمونه الأخية ، جمع أخى بالياء ، وهم جماعات تضم أبناء حرفة واحدة يقدمون عليهم رئيسا ، وكلهم من الشبان الاعزاب ، ويتخذون مقرا لجمعيتهم زاوية من الزوايا ، ويتعاونون على الخير واكرام الضيف ، وهو نظام يتصل بنظام الفتوة فى الاسلام ، ويقول ابن بطوطة انهم بجميع البلاد التركمانية فى كل بلد ومدينة وقرية . وما زال يتنقل بين هؤلاء الاخية فى بلاد الاناضول حتى وصل الى « صنوب » على البحر الاسود فركب منها سفينة الى شبه جزيرة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، وكانوا قد دخلوا فى الاسلام بعد هجماتهم المشهورة على العالم الاسلامى فى آسيا . وغادر القرم الى أزاق والماجر بالقوقاز ، حيث زار معسكر السلطان أوزبك ، ووصفه بأنه يشبه مدينة عظيمة ، فيها المساجد والاسواق والمطابخ ، وتوسع فى الكلام وأسهب عن مواكب السلطان ومواكب زوجاته الاربع . وتوجه الى مدينة بلغار على الفولجا ، وكان بينها وبين معسكر السلطان عشرة أيام وهناك فكر فى اقتحام أرض ويسوا ويورا فى الشمال ، ولكنه أحجم لعظم المئونة وبعد الشقة وتعب السفر . قال نقلا عمن دخلوا فيها من التجار :

« السفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك الارض فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها فى الجليد .

واذا كملت للمسافرين بهذا الاقليم أربعون مرحلة نزلوا عنـد الظلمة وترك كل واحد ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا الى منزلهم المعتاد ، فاذا كان الغد عادوا لتفقد متاعهم فوجدوا من فراء السمور والسنجاب والقاقم ، فان أرضى صاحب المتـاع ما وجده ازاء متاعه أخذه ، وان لم يرضه تركه ، فيزيدونه ٠ وهكذا بيعهم وشراؤهم

فى العالم العربى

أكثر الجغرافيون والرحالة وهواة العجائب من ذكر الاعاجيب والاساطير عن العالم العربى وأممه القديمـــة وآثاره ، وحتى صحراء جزيرة العرب أفردوا لها فصولا فى القصة ، وهى فصول لا تتحدث غالبا عن عالم الانس ، وانما تتحدث عن عالم الجن فقد كانوا يزعمون أن أرض « وبار » سكنتها الجن وحمتها من كل من يريد الدخول فيها ، وزعموا انها أخصب بلاد اللـــه وأكثرها شجرا وأطيبها ثمرا ، فان دنا منها انسان متعمدا أو مخطئا حثوا فى وجهه التراب ، فان لم يرجع خبلوه أو قتلوه. وليست أرض وبار وحدها التى تمتلىء بالجن ، فكذلك تمتلىء بها الدهناء والصمان ويبرين ، فهى مبثوثة بكل مكان ، وهى تتراءى فى صور من الانس والحيوان ، ومنها جنس على صورة نصف الانسان يسمونه شقا ، وهو يتربص للمسافرين وقد يفتك بهم

وفى الشعر الجاهلى أحاديث كثيرة عن الجن والعفاريت ، استغلها مؤلفو كتب العجائب ، كما اســـتغلوا ما جاء فى القرآن الكريم عن جن سليمان الذى سخرهم الله تعالى له ، فقصوا أقاصيص كثيرة عن تزاوجهم بالانس ، واختطافهـــم لبعض الفتيات أو بعض النساء ، وكم من شخص عبثت به الجـــن والشياطين أو استهوته ، وكانوا يزعمون أن عين الجـــان

أشد من عين الانسان ، وأنها جميعا تتحول فى أى صـــورة شاءت ، الا الغول فانها تتحول فى صـــورة المرأة وثيابهـــا الا رجليها فلابد أن تكونا رجلى حمار ، وتتراءى غير الغول فى صورة الثيران والنسور والنعام والكلاب ، وحـــديثهم عن شياطين الشعراء مشهور

واذا تركنا بلاد العرب الى اليمن والعراق والشام ومصر والاندلس ، تلك البلاد التى تمتلىء بأطلال مدنيات قديمـــة وجدناها تزخر بالعجائب ، فليس بها تمثال أو كتابات الا وهى طلاسم وأرصاد ، اما من عمل الجان أو من عمل الســـحرة من الملوك والملكات ، ونسوق بعض ما سجلوه من هذه العجائب والغرائب الفريدة

فى اليمن

أما اليمن ففيها تمثال على هيئة فارس فى أرض كلهـــا ملحة ، فاذا دخلت الاشهر الحرم فاض من ذلك التمثـــال ماء كثير عذب ، وظل يجرى فى الفضاء الى انقضاء الاشهر الحرم وبها جبل الشب ، وهو جبل على رأسه ماء يجرى من كل جانب وسرعان ما ينعقد حجرا قبل وصوله الى الارض · ومن غريب ما قصوه عن مدينة ارم ذات العماد ، وهى احدى المدن اليمنية القديمة التى اندثرت ، هذه الاسطورة :

« بنى شداد بن عاد هذه المدينة بين صنعاء وحضرموت وكان جبارا من الجبابرة ، يقـال انه سمع بالجنة وما وعـــد الله تعالى فيها أولياءه من قصور الذهب والفضة التى تجرى من تحتها الانهار ، فقال : انى متخذ فى الارض مدينة على صفة الجنة ، ووكل عنه فى القيام بذلك مائة رجل وضع تحت يد كل منهم ألفا من الرجال والاعوان وقال لهم : « ابحثـــوا عن

أفضل مكان فى أرض اليمن وابنوا فيه هذه المدينة » ، وأمدهم بالاموال ومثل لهم كيفية بنائها ، وكتب الى عماله فى سائر البلدان الخاضعة له أن يجمعوا كل ما عنـــــدهم من الذهب والفضة والجواهر النفيسة ، فجمعوا منها تلالا ، فأمربتحويلها الى لبنات تبنى بها المدينة ، كما أمر أن ترصع حيطانها بجواهر الدر والياقوت والزبرجد ، ثم أجرى اليها نهرا ساقه اليهـــا من أربعين ميلا تحت الارض ، فظهر فى المدينة ، وأجرى منه سواقى فى الشوارع والسكك ، وأمر بحافتى النهر والسواقى أن تطلى بالذهب الاحمر ، وان يلقى فيها بالحصى من أنواع الجواهر ، وينصب عليها أشجار من الذهب ، وان تجعـــــل ثمارها من الجواهر واليواقيت · وجعل طول المدينـــة اثنى عشر ميلا ، وبنى فيها ثلثمائة ألف قصر ، مرصعة بواطنهـــا وظواهرها بالحجارة الكريمة ·· وجعـــل تراب المدينـــة من المسك والزعفران ، وجعل خارجها مائة ألف منظرة من الذهب والفضة لجنوده · ومكث فى بنائها خمسمائة عام ، فبعث الله اليه هودا عليه السلام ، فتمادى فى الكفر والطغيان ، ولـــم يجب داعى ربه ، فأنذره هود بعذاب الله ، وخوفه زوال ملكه فلم يرتدع ولم ينزجر ، فأخذته صيحة من السماء فمـــات هو وأصحابه ·· وأخفى الله المدينة فلم يدخلها أحد ، الا رجـــل فى زمن معاوية ، يقال له ابن قلابة ، ذكر فى قصة طويلة أنه خرج من صنعاء فى طلب ابل له ضلت ، فأفضى به الســـير الى مدينة هذه صفتها ، فأخذ منها شيئا من المسك والكافور وشيئا من الياقوت ، وقصد الشام ، وأخبر معاوية بالمدينـــة وعرض عليه ما أخذه منها من الجواهر · وارم ذات العمـــاد حق لامرية فيه ، ذكرها القرآن الكريم ، وكذلك رسالة هود

الى عاد ، ولكن قصة المدينة وبنـــاءها هى التى دخلتهـــا الاسطورة

فى العراق

وفى العراق كثير من هذه المدن التى اتخذت مسرحـــا للاساطير من مثل مدينة بابل ، وقد قالوا انه كان بهـــا سبع مدن ، وفى كل مدينة أعجوبة : أما المدينة الاولى فكان ينزلها الملك ، وكان فيهـــا بيت به صـــورة الارض بقراها ومزارعها وأنهارها ، فمتى امتنع أهل بلدة من حمل الضرائب والاموال اليه خرق أنهارهم فى تلك الصورة ، وأغرق زروعهم، فيحدث ذلك بأهل البلدة حتى يؤدوا اليه ما عليهم من المال ، فيسد أنهارهم فى الصورة ، فينسد النهر فى بلدهم • والمدينة الثانية كان بها حوض عظيم ، اذا جمع الملك قومه حمل كل واحد منهم معه شرابا يشربه عنده وصبه فى ذلك الحوض فاذا جلسوا للشرب تناول كل منهم من الحوض شرابه الذى حمله معه من منزله • والمدينة الثالثة كان على بابها طبـــل معلق ، فاذا غاب انســـان من أهل بابل ، ولم يعـــلم أحى هو أم ميت ، دقوا ذلك الطبل على اســـمه فان كان حيـــا ارتفع صوت الطبل ، وان كان ميتا لم يسمع منه صـــوت ألبتة • والمدينة الرابعة كان فيهـــا مرآة من حـــديد ، فاذا غاب رجل عن أهله وأرادوا أن يعرفوا حاله التى هو فيهـــا ، أتوا تلك المرآة على اسمه ونظروا فيها فرأوه على الحالة التى هو فيها • والمدينة الخامسة كان على بابها عمود من نحاس وعلى رأسه اوزة من نحاس ، فاذا دخلها جاسوس صـــاحت صيحة سمعها كل أهل المدينة ، فعلموا ان جاسوسا دخـــل بلدهم • والمدينة السادسة كان بها قاضيان جالسان على طرف

ماء ، فاذا اختصم اليهما شخصان قرآ شيئا وأمرهما بالعبور على الماء ، فيغوص فيه المبطل وينجو المحق • والمدينة السابعة كانت بها شجرة كثيرة الاغصان ، ان جلس تحتها الف شخص أظلتهم ، فان زادوا واحدا انحسر عنهم ظلها وأصبحوا جميعا فى الشمس !

فى الشـــام

وفى الشام عجائب كثيرة منها مدينة بناها جن سليمان له هى مدينة تدمر • ومنها بئر فى بعض ضياع حلب ، اذا شرب منها من عضه الكلب المريض برىء • وفى حمص صورة نصفها الاعلى انسان والاسفل صورة عقرب ، من لدغته حية أوسام وأخذ طينا وطبع به على تلك الصورة ، وألقاه فى المـاء ، ثم شربه برىء فى الحال • وفى موضع من أعمال طبرية هيكل يخرج الماء من صدره من اثنتى عشرة عينا ، وكل عين مخصوصة بمرض ، اذا اغتسل فيها صاحب هذا المرض عوفى باذن الله تعالى • وبها نهر عظيم ، يجرى فيه ماء نصفه حار ونصـــفه بارد ولا يمتزج أحدهما بالآخر • وبها موضع به سبع عيون ينبع الماء منها سبع سنوات متوالية ، ويجف سبعا أخـــرى متواليات ، وهكذا على مدى السنين والايـــام • وتقص كتب العجائب كثيرا عن مدن الشام ومزاراتها ومن مات بهـا من الصـــحابة والصـــالحين ، وقد أكثروا من القصص عن أصحاب الكهف والرقيم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فمن قائـــل ان موضـــع الـــكهف والرقيم فى البلقـــاء، ومن قائل أن موضـــعها بالقـــرب من افسوس وهـــذا هو الصحيح • ويقول القزوينى ان الكهف على بعد فرسـخين من المدينة ، لا تدخله الشمس ، وفيه رجال موتى لم يتغيروا

وعددهم سبعة ، ستة منهم نيام على ظهورهم ، والسابع فى آخر الكهف مضطجع على يمينه ، وظهره الى جدار الكهف ، وعند أرجلهم كلب ميت ٠٠ وعلى الكهف مسجد يستجاب فيه الدعاء يقصده الناس

فى مصر

وامتلأت كتب الرحلات والجغرافيا والعجائب بالاحاديث عن مصر وما فيها من الغرائب ، ومن أهم ما عرضت له هذه الكتب الاهرامات وأبو الهول ، وفيهما يقول عبـــد اللطيف البغدادى ،بعد أن زار مصر بين سنتى (٥٩٧ هـ و٥٩٩ هـ):

« من الآثار القديمة الاهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرهـا ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة ، وتمتد فى نحو مسافة يومين ،وفى بوصير منها شىء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار ٠٠ وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس ٠٠ والاهرام المتحدث عنهـــا المشار اليها الموصوفة بالعظم ثلاثة موضوعة على خط مستقيم بالجيزة ، قبالة الفسطاط ، وبينها مسافات يسيرة ، زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جدا وفى قدرواحد ، وبهما أولع الشعراء وشبهوهما بنهدين ، قد نهدا فى صــــدر الديار المصرية ٠ وقد سلك فى بناية الاهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الزمان ، بل على ممرها صبر الزمان ، فانك اذا تبصرتها وجدت الاذهان الشريفــــة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليهـــــا مجهودها ، والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلا هو غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم ،

وتنطق عن علومهم وأذهانهم • وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة ، وآبار ومهالك ، وهذا المدخل ليس هو الباب المتخـــذ له فى أصل البناء ، وانما هو منقوب نقبا صودف اتفاقا • وهـــذه الاهرام مبنية بحجارة يكون طول الحجر منهـــا ما بين عشرة أذرع الى عشرين ذراعا ، وسمكه مابين ذراعـــين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك • والعجب كل العجب فى وضع الحجر على الحجر بهندام ، ليس فى الامكان أصح منه ، بحيث لا تجـــد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صنفه ولا ماهو • وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمـــع بمن يعرفه • وهذه الكتابات كثيرة جدا •• وعند هذه الاهرام صورة رأس وعنق بارزة من الارض فى غاية العظم يسميه الناس أبا الهول • وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليـــه رونق الطلاوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحـــة بهاء وجمال كأنه يضحك مبتسما • وسألنى بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت ؟ فقلت تناسب وجه أبى الهول ، فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تصـــنع الطبيعة الصور متناسبة • والعجب من مصوره كيف قـــدر أن يحفظ نظام التناسب فى الاعضاء مع عظمها ، وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله » • وتحدث عبد اللطيف ، وكأنه عالم عصرى من علماء الآثار ، عن عين شمس وصورهـــــا وتماثيلها ومسلتيها المشهورتين ، ووصف المسلة بأنها قاعدة مربعة ، طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا ، قد وضعت على أساس ثابت فى الارض ، ثم أقيم عليها عمود

مربع مخروط ، ينيف طوله على مائة ذراع ، يبتدىء من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع ، وينتهى الى نقطة ، قد ألبس رأسها بقلنسوة نحاس ، الى ثلاث أذرع منها كالقمع » • وأطال عبد اللطيف فى وصف مدينة منف وآثارها ، وعرض لمقابر الفراعنة التى تملأ الصعيد ذاكرا تخريب الناس لها بحثا عن الذهب المدفون مع الموتى ، وانحى باللائمة على من يحاولون نقض هذه الآثار • وتكلم عن الاسكندرية ووصف عمود السوارى بهـا وصفا دقيقا

وممن أسهب فى وصف هذه العجائب بمصر أبو الحسن الهروى المتـوفى بحلب سـنة (٦١١ هـ) وذلك فى كتابه « الاشارات الى معرفة الزيارات » وقد قال ان المأمون فتح الهرم الاكبر فوجدوا فى داخله بئرا مربعة فى تربيعها أبواب ، يفضى كل باب منها الى بيت فيه موتى بأكفانهـم • وذكر أنهم صعدوا فى الهرم ، ووجدوا فى رأسه بيتا فيـه حوض من الصخر ، على مثال القبر ، وفيه صنم كالآدمى وفى وسطه انسان عليه درع من ذهب مرصع بالجوهر وعلى صدره سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ، ضوءه كالنار • وعرض للبرابى (المعابد) بالصعيد وغير الصعيد وما عليها من كتابات بقلم الطير (الكتابة الهيروغليفية) وقد استطرد يتحدث عن عجائب تدخل فى باب الاسطورة أو الخرافة فزعم أنه فى شمالى المنيا بالصعيد جبل يسمى الطيلمون ، وهو جبل الطير ، تجتمع اليه الطيور فى كل سـنة ، وهى تسمى بوقير ، وترى وهى تدخل رأسها فى ثقب صغير بأعلاه، ولا تزال كذلك حتى يقبض ذلك الثقب على طير منهـا فيبقى معلقا بمنقاره الى أن يموت • وبالصعيد جبل الساحرة ، وله

قصة طويلة ، وبه مغائر مليئة بالموتي من الناس والطيـــور والسنانير والكلاب وقد رأى بها جارية ، نزع عنها كفنها وفى يديها ورجليها آثار خضاب بالحناء

فى الاندلس

وفى الاندلس عجائب كثيرة ، منها جبل عليه عينان ينبع من احداهما ماء حار ومن الاخرى ماء بارد ، أما الحار فلو رميت فيه بدجاجة انطبخت فى الحال ، وأما البارد فمثلج لا يستطيع أحد شربه • وبها جبل الكحل ، وهو يخرج منه فى هيئة نفس قوى ، ويظل الى نصف الشـــهر ، ثم ينقص ، حتى اذا كان الشهر الثانى عاد الى قوته ، ثم يأخذ فى النقصان وهـــكذا دواليك • وبقرب طليطلة حجر اذا أقاموه أمطرت السماء ، ولا تزال تمطر الى أن يلقوه ، وكلما أرادوا المطر أقاموه ، وبهـــا صورة ثورين من حجر صلد ، يقال انهما طلسمان • وتكثر الطلاسم فى الاندلس مثل غيرها من البلاد . وبقرب غرناطة عين ماء وشجرة زيتون ، يقصدهما الناس فى يوم معلوم من السنة ، تفيض العين فيه بالماء حين تطلع الشمس ، ويظهر على الشجرة زهر الزيتون ، وينعقد زيتونا ويكبر ويسود فى نفس اليوم ، فيأخذون منه كفايتهم ، كما يأخذون من مـــاء العين حاجتهم للتداوى • وبقادس طلسم مشهور ، عمل لدفع المغاربة عن الاندلس !

□

وللبر ـ كما للبحر ـ حكاياته وأقاصيصه ، وهى تستمد من عالم الحقيقة حينا ومن عالم الخيال والخرافة حينا آخر ، واذا كانت جزر بحر الهند قد أمدت القصاص بمادة وفيرة فى هذا الباب ، فان الهند نفسها وما وراءها من الصين وايران ،

قد أمدتهم بمادة لا تقل وفرة ولا قيمة قصصية عما أمدهم به عالم البحر ، وكذلك الشأن فى بقيـة البلدان والبقاع بآسيا وافريقا

وفى كتب العجائب كثير من هذه الحكايات الخيالية ، لا عن الملوك والامم البائدة فحسب ، بل عن كل مشـاهد البلدان ومظاهر الطبيعـة فيهـا من جبال وغير جبال ، ويخيل الى الانسان انهم لم يتركوا كهفا فى جبـل ، ولا بئرا ولا نهرا الا قصوا عنه غرائب القصص . ودخل هذا كله فى نسيج كتب الرحلات والجغرافيا . وسنقف أولا عند بعض حكايات عرضها الثعالبى فى كتابه غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، ثم نتحول الى كتب العجائب ، ومنها الى رحلة ابن بطوطة التى تمتلىء بالقصص والنوادر

من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم :

اسفنديار يقتل تنينا

لما شارف الامير الفارسى اسفنديار المرحلة الثالثة فى طريقه المخوف الى بلاد الترك تقــــدم الجيش وأسرع بالســـير حتى انتهى الى موضع تنين، فلبس اسفنديار السلاح وأمر بتحول العجلة والصندوق الى فرسين آخرين اقوى من الاولين ، وركب فى الصندوق وفتح الباب الامامى وصاح بالفرسين فجريا وجرا العجلة بما عليها ، وكأنهما اتخذا الرياح الاربع نعالا لهمـــا . وحين اقتربا من التنين سار اليهما كأنه سحاب أسود فجذبهما بأنفاسه ، واراد أن يبتلعهما فغص (شرق) بالصندوق ونشبت النصول فى حنكه ، فلم يقدر على البلع ولا على التخلص من الصندوق وفتح اسفنديار بابه المتأخر ووثب منـــه ، وطفق يضرب التنين بسيفه ، حتى قطعه ، غير انه سقط صعقا من هوله ومن الرائحة المنتنة التى وجدها من جســـمه . ولحق به جيشه ، ورآه القواد كاسف الوجه ، فظنوا أن التنين قد عمل عمله ، وانه مات ، وأمر بعضهم برش الماء البارد على وجهه وصدره ، فأفاق ، وقال : لاتهتموا فانى سالم ولم يمسسنى سوء ، وانما ساءتنى الرائحة المنتنة للتنين ، واجتمع الجيش ينظر الى هذا الثعبان المهول وهو لا يزال يتحرك ، فتعجبوا من كبر جســـمه وهول منظـره وكثرة دمائه ، واثنوا على اسفنديار ودعوا له

اسفنديار يقتل ساحرة

أمر اسفنديار بالرحيل بعـد قتله للتنين ، وحين ارتفع الحجاب عن حاجب الشمس شارف المرحلة الرابعة ، فتقدم الجيش كعادته ، واخذ معه بعض الطعـام والشراب وعودا لطيفا ، وسار مسرعا حتى انتهى الى منزل ساحرة كان سمع عنها انها تعيش فى هذا الطريق وتفتك بمن يمر فيه ، ولماانتهى الى منزلها راى روضا وغديرا وأشجارا كأن الحور اعارتها قدودها وكستها برودها ، فنزل فى ظل شجرة ملتفة الاغصان علىغدير صاف ، وقيد فرسه ، وتناول بعض طعـــامه ، ثم اخذ العود ، فنقره واستنطق وتره ، وغنى غناء معناه : الى متى تترامى المغاوروالجبال بى ، وتنبو الاوطانوالاوطار عنى ؟ حتى متى خوض الحروب ومعاناة الخطـوب ؟ وابن السرور بوجوه الحسان ومغازلة الغزلان ؟ ان الذى انزلنى هذا المكان الذى يحكى الجنان ، قادر على ان يقر عينى بجارية وسيمة ، تسرنى بطلعتها وتؤنسنى بمساعدتها . وكل ذلك على مرأى ومسمع من الساحرة ، فقالت فى نفسها : قد وقع الاسد فى الحبالة ، وجاءتنى الغنيمة ، ولم تلبث أن برزت فى صـــورة جارية كأنها فلقة قمر على برج فضة ، وعليها من الحلى والحلل ما يروق ويشوق . واقبلت فجلست بجواره ، فرفع يده وقال : سبحانك ما اعظم شـــأنك واتم سلطانك وانعامك اذ رزقتنى فى مثل هذه البقعة مثل هذه الصورة المقصورة على الجمال والكمال ، وصب من زق خمر كان معه كأسا ، وشربه على وجههـا ، وملأ الكأس فناوله اياها ، فشربته ، واخذا يتنادمان . وكانت مع اسفنديار سلسلة لا يعمل فيها السحر ، فأخرجها فى خفية منها ، واعدها ، حتى اذا عطست الساحرة

القاها فى عنقها ، واوثقها بها ، فتحولت فى صورة أسد ، تخرج النار من فمه ، وجعلت تجذب نفسها من يده ، فقال لها انى انا اسفنديار ، وهذه سلسلة لا يعمل فيها السحر ، ولن تفلتى من يدى ، فأظهرى نفسك كما أنت لى . فظهرت عجوزا شوهاء اقبح من زوال النعمة ، وأوحش من موت الفجاءة ، وقالت له : يا اسفنديار لا تكن ضيف سوء ، ولا تنس حرمة المنادمة ، واطلقنى انفعك ، فضربها بسيفه ضربة فرقت بين راسها وجسدها ، فثارت غبرة شديدة وانتشرت ظلمة اعادت النهار ليلا ، وتجلت عما قليل • ونصب رأس الساحرة على خشبة وركزها فى تل حتى اقبل العسكر فنظروا الى راس كهول طلوع الروح ، ووجه كقضاء السوء ، وشكروا الله على جميل صنعه

اسفنديار يصيد العنقاء .

ورحل اسفنديار بجيشه حتى قارب منزل العنقاء (أنثى الرخ) فى المرحلة الخامسة من طريقه ، فأمر باعداد العجلة التى يركبها وتركيب السيوف الحداد والاسنة الشداد فى الصندوق الذى عليها واحكامها من خارج ، ثم حملها على فرسين مستوفيين شرائط العتق وجودة الجرى ، وقعد فى الصندوق وصاح بهما ، فجريا كالهواء العاصف ، وانتهيا الى شجرة باسقة ، فوقفهما فى ظلها ، وأقبلت العنقاء من الهواء كالسحابة المرعدة لعظم جسمها وحفيف أجنحتها . وانقضت على العجلة تريد ان تخطفها هى والفرسين ، فلما أهوت اليها وضربت نفسها بها نفذت فيها السيوف والاسنة المركبة فى الصندوق ، وكلما زادت ضربا بأجنحتها ازدادت النصول نشوبا فى جسمها وأجزائه • ووثب اسفنديار من تلك العجلة ، فرشقها بالسهام

المسمومة حتى ضعفت ، ثم واصل ضربها بسيفه حتى سقطت وخمدت . ووصل الجيش ، فرآها العسكر ســـاقطة كالطود العظيم ، ومنقارها كأعظم ما يكون من المعاول ، ومخالبها كأطول ما يكون من الحراب ، فتعجبوا من أمرها واثنوا على اسفنديار ثناء كثيرا

○

ألعنقاء تشفى رستم من جروحه

لما ملك منوجهر ، كان عمدة أمره وعدة ملكه ووجه قواده سام يل ، وكان سام يتمنى على الله ان يرزقهابنا ، فلما طعن فى السن ، ولد له مولود ابيض شعر الراس والحاجب ، فأنكره وأنف منه ، وأمر بنبذه وطرحه فى بعض الجبال الشـــــاهقة الشاسعة ، ليقضى الله فيه ما هو قاض ، فامتثل بعض أصحابه أمره ، ورأت العنقاء(أنثىالرخ)هذاالمولود ،فحملتهونقلته الى وكرها وربته مع فراخها الى أن بلغ سبع سنين ، فرأى سام يل فى منامه من أخبره بحياة ابنه ، ودله على مكانه ، فتوجه فى طلبه ، حتى وصل اليه ، وعرفت العنقاء انه أبوه ، فردته عليه وزودته من ريشها ما يحرقه اذا نابته نائبة ، فانها حينئذ تأتى لتغيثه

ومرت الايام وشب « زال » وخدم منوجهر مع أبيـــه ، وأصبح له أمر سجستان. وفى يوم سار متصيدا يقطعالاصقاع والبقاع حتى وصلالى غزنة فاخترقها الى كابل، وحين شارفها استقبله سلطانها مهراب ، وسمع بابنته وجمالها وسمعت به وبشجاعته ، فعشق كل منهما صاحبه قبل رؤيته ، وتزوجا وولدا رستم طفلا جميلا قويا كأنه الاسد ، وجعـــــل يزداد جماله مع بسطة فى العقل والجسم ، فقد كان يجمع ضخامة الفيل الى قوة الليث ، وتأدب بآداب الفرسان ، وبز الابطال والشجعان ، حتى أصبح جيشا فى فرد ، لا يغلب ولا يقهر

وكان رستم من ضخامة الجسم وامتداد القامة واشتداد

القوة بحيث لايستطيع فرس ان يحمله ، حتى يقال انه عرض عليه خمسون الف فرس ، فلم يوجد بينها ما يستطيع حمل ركابه ، واتفق يوما أنه رأى خيلا مجلوبة من قشمير فى الهند، فوقع بصره على مهر اصيل ، فأمر برده عليه ، فقال جالبه : انه لامطمع فيه ، فقال: ولم ؟ قال : انه لرستم قال : وما يدريك؟ قال : انه منذ وضعته امه يسمى رخش رستم ويدعى به ، وقد اركب منذ سنتين فلم يمكن احدا من ركوبه ، فوضع رستم يده على ظهر المهر ، فلم يضطرب ، فقال : هذا هو فرسى الذى يحملنى ، فقال لهجالبه : ان كنترستم فهو حقك وقد قادته السعود اليك ، فضحك وأمر له بصلة كبيرة . واحسن تعهد فرسه وتفقده ، وكان اذا ركبه حكى الطود الموثق وتحته السيل المتدفق

وكان أول انتصارات رستم التى شاع بها اسمه واشتهر، ظفره « بأفراسياب » ملك الترك بعد أن دوخ الفرس حتى اصبح الشجعان يرهبون اسمه ، وانقاد له الحكام والامراء فى شرقى ايرانالى الهند والى بلاد الترك . وحدثان دبالخلاف بين رستم وملك الفرسبشتاسف ، فأرسل اليه ابنه اسفنديار وكان هو الآخر بطلا مغوارا ، فجمع لرستم الجيوش ، وذهب اليه يطلب منه تسليم نفسه أو الحرب ، فأبى رستم ان يعطى عن يد صاغرا . وبارزه اسفنديار وحمى الوطيس بين الجيشين وتصاول الابطال ، وجرت الدماء ، وقتل ابنا اسفنديار ، فاجتمع عليه الحزن والغيظ ، وأخذ يرمى رستم بسهام نافذة، ورمى فرسه رخشا بسهم خاط فخذيه ، فانقطع لجامه وانقد حزامه ، وسقط رستم عن ظهره ، ونفر الفرس راجعا الى منزله والدم يسيل من جراحه ، وانحاز رستم الى تل وهو

يجر قدمه ويقاسي من آلام جروحـــه ، وانسحب موليا الى عسكره ، فحملوه على عجلة الى داره ، وارتفعت منها الاصوات بالبكاء والعويل من اجله

وجزع أبوه «زال»حين رآهودمعتعيناه ،ولم يلبث أن تذكر ريشة العنقاء التى كانت أعطتها اياه في صباه ، وامرته باحراقها والتدخين بها اذا نابته نائبـــة ونزلت به نازلة ، فأمر بذبح الاغنام والخرفان لاستقبالها ، ولم تلبث ان أقبلت كأنها سحابة مرعدة ، وهبطت على تل عظيم في بستان زال ، فتقدم اليهـا وسجد لها ، وقدم لها ذبائح الاغنام والخرفان فنالت منهـا ، ثم بكى بين يديها ، وقص قصته عليها ، وقدم رستم اليهـا ، فتأملت جراحاته،ثم اهوت عليه بمنقارها ومخالبها فنزعتعن أعضائه اكثر من عشرين نصلا ، يقال انها كانت قرابة حمل بعير من الحديد ، ثم مسحت مواضعها بجناحها ، فالتحمت فى الوقت والساعة ، ثم لحستها بلسانها ، فأبل رستم ، وعاد أصح مما كان ، ولبس أثواب العافية باذن الله ومشيئته . وفعلت العنقاء بفرسه «رخش» فعلها به ، فنزعت منه نصولا كثيرة ، ثم مسحته بجناحها ولحسته بلسانها ، فصح وصلح ، وانتفض وصهل ، ونشط وانبسط . وكان زال يعرف منطق العنقاء اذ كانت مرضعته ومربيته سـبع سنين فقالت له : ينبغى الان ان يركب رستم ظهرى لاطير بهالىجزيرة تشتمل على شجرة الطرفاء ، وأدله على غصن منها يقطعهويتخذ منه سهما ، حتى اذا بارز اسفنديار ، رماه به فى عينه ، فيكفى أمره ، لان دروعه لا تدخل فيها السهام ، وليس فيه حيـلة سوى هذه . فترجم زال لرستم قولها ، فسر بذلك واستعد ، واستصحب سكينا اقطع من الفراق ، وانفذ من القضـاء ،

وركب ظهر العنقاء ، فطارت به الى الجزيرة فى سرعة البرق ، ودلته على الغصن الذى وصفته ، فقطعه ، واحتفظ به محتاطا عليه ، وكرت به راجعة الى منزل أبيه وقد أعد لها ذبائح الاغنام والخرفان المشوية . فلما هبطت ووضعت رستم على الارض سجد لها زال وقدم اليها الذبائح ، فنالت منهـا ، وأوصت بالتلطف مع اسفنديار ومصالحته وسل سخيمته ، فانه أوحد عصره فى الشرف والشهامة ، ثم قالت : وان ابى الا الحـرب فهلاكه فى هذا السم وودعت زال وطارت

فاتخذ رستم من ذلك الغصن سهما وركب فيه نصلا ، ولما اصبح من غد لبس السلاح وركب رخشا بنشاط واغتباط ، واقبل الى سرادق اسفنديار فناداه ، وقال له : قد عاودك القرن فابرز اليه ، فتعجب اسفنديار من بكوره وقوة كلامه ، وكان يعتقد انه نكأ فيه نكاية اليمـة ، اما أن يموت بها او يستأسر معها ، ثم تذكر ما سمعه من سحر زال ومهارته فى السحر ، فصح عنده ما سمعه ، فقد ابرأ رستم بهذه السرعة بعد أن فارقه بالامس جريحا هضيما ، وهاهو ذا يعود صحيحا نشيطا يجر ذيل خيلائه ، ثم قال فى نفسه : سأصنع به اليوم ما لا يقدر زال معه على مداواته . ودعا اسفنديار بسـلاحه فلبسه وبفرسه فركبه ، واقبل الى رستم ، فتلطف له ونصحه الا يؤثر الشقاء على السعادة ، ولكن اسفنديار لم يستمع اليه ، وطلب منه احدى اثنتين : اما ان يستأسر واما أن ينازله ، فتضرع اليه رستم ، ولم يدخر وسعا فى استكفاف غائلتـه واستمالته ، غير ان اسفنديار اصر على غلوائه ، ولم يزدد الا جدا فى مقارعته ، وحمل عليه برمحه ، فاحتال رستم لدفعه عن نفسه ، ثم صوب اليه سهم الطرفاء من وتر قوسه ومد فيه

بقوته ورماه به رمية نفذت فى عينه الى قفاه ، فاتكأ اسفنديار
على سرجه ونزع السهم من عينه ، واخذه بيده ، وسال من
دمه ما اضعفه واسقط قوته ، ولم يتماسك معه ، فترجل عن
فرسه وتوسد ذراعه ، وترجل رستم وبكى باعلى صوته ،
ومزق ثيابه ودرعه على نفسه . وجاء زال وقواده والايرانية ،
يسيلون العبرات ، ويطلقون الزفرات ويعلنون الصـــــياح
ويمزقون الثياب ، واحدق الجميع به وفرشوا له واضجعوه .
فدعا بماء فشربه ، وقال : على برستم ، فتقدم اليـــه وقعد
عند راسه ، وقال : يا رستم اعلم ان أبى بشتاسف هو الذى
قتلنى لا انت ، وقد أهلكنى على يدك ، واذ عمل القدر عمله
فانى استودعك ابنى بهمن واسلمه اليك لتؤدبه بآدابك ، فقال
رستم : سمعا وطاعة لك وقد تسلمته منك ، وسابذل جهدى
فى اكرامه وتهذيبه وصيانته ، ولم يلبث انْ فاضت نفسه

الاسكندر المقدونى فى الهند

لما فرغ الاسكندر من حرب دارا ملك الفرس ، وفور ملك الهند الكبير ، هابته الملوك فأذعنوا له وتلقوه بالسمع والطاعة ، واقتدى بهم « كيد » أحد ملوك الهند الاباعد ، وحين كاتبه الاسكندر فى الزامه الضريبة ، اجابه باظهار الخضوع والاذعان لسلطانه ، وقال : ان عندى أربعة أشياء من عجائب الدنيا وغرائبها ليست لاحد من الملوك ، وانا متقرب اليك باهدائها وايثارك بها ، فانها لا تصلح الا لك ، ولا تحسن الا لديك ، فمنها ابنة لى لم تطلع الشمس على مثلها جمالا وكمالا ، فهى قيد الابصار ونهاية الابداع ، ومنها طبيب لى كأنما أوحى اليه فى الطب ومعرفة الادواء (الامراض) والادوية ومعالجة العلل المزمنة ، ومادام عندك فثق بحفظ صحتك ، ومنها نديم لى فيلسوف أوتى جوامع الحكمة ، فهو ينظر الى الغيب من وراء ستر رقيق ، ومنها قدح من خشب الجنة ، اذا ملىء مرة ماء أروى العساكر من غير أن ينفد ماؤه

فلما ورد كتابه على الاسكندر بذلك سر به وكتب اليه فى انفاذ الاربعة ولو على اجنحة الطير واعناق الرياح ، فامتثل أمره ووصلت الجارية واسمها كنكة ، فلما رآها الاسكندر ملأت عينه وقلبه ، وملكت نفسه ولبه ، فلم يقدر على صرف لحظه عنها ، وافتتن بمحاسنها وامر باكرام مثواها ، واتخذها نزهة لعينه ومتعة لنفسه . ثم دعا بالطبيب واسمه منكت ،

فلم يسأله عن شيء من أصول الطب وفروعه الاأجاب بالصواب وشفى وكفى ووفى واوفى ، ثم ساله عن اصل الادواء فقال : التخمة قال الاسكندر له : وما حقيقة معناها ؟ قال : الزيادة فى الاكل والشرب على ما تحتمله الطبيعة ، ، وتقوى عليه القوة الهاضمة ، ثم سأله عن أعون الاشياء على حفظ الصحة ، فقال: الاقلال من الاكل والشرب والتمتع ، ثم سأله عن شرب الدواء فقال : مثله للجسم كالصابون للثوب ينقيه ولكن يبليه ، ثم قال له : أوصنى بأوجز ما يحضرك من الكلام فى حفظ الصحة ، فقال : اجتنب ثلاثا وعليك بأربع ولا حاجة بك الى الطبيب ، اجتنب الغبار والنتن والدخان ، وعليك بخبز الحنطة (القمح) ولحم الخرفان وحلواء السكر وشراب العنب مع الاقتصاد فى الوجبة • فأعجب الاسكندر بقوله واستخلصه لنفسه وأمر باجزال رزقه

وأمر الاسكندر باكرام الفيلسوف واحسان تعهده ، وكان اسمه شنكة ، ثم بعث اليه باناء ملىء سمنا ، فأخذه الفيلسوف بيده ونظر فيه وتأمله باتقاد بصيرته ثم غرز فيه الف ابرة ورده الى الاسكندر ، فأمر بأن تذاب الابر ويتخذ منها كرة سوداء ، وردها الى الفيلسوف ، فاتخذ منها مرآة مصقولة وردها اليه ، فأمر الاسكندر بالقائها فى الماء حتى صدئت وردها الى شنكة ، فجلاها وصقلها وردها الى الاسكندر ، فتعجب من فطنته واحاطته بفكرته . ثم استدعاه واستدناه ، وسأله ، فقال : حدثنى بما كان بينى وبينك من الرسائل : ما الذى أردت بانفاذ الاناء المملوء بالسمن اليك قال الفيلسوف : أردت أن تقول : ان قلبى مملوء من العقل والحكمة فلا مدخل فيه لشيء منهما ، قال الاسكندر : صدقت ، فما أردت أنت بالابر

التىَ غرزتها فى السمن ، قال : اردت ان اقول : ان عندى من دقائق الحكمة الحسنة ما يتغلغل الى قلبك وان كان مملوءا من الحكمة قال : اصبت ، فما اردت باتخاذها كرة سوداء ؟ قال : اردت ان تقول ان قلبى قد قسا وغلظ من كثرة الدماء التى ارقتهـا ، قال الاسكندر : احسنت ، فما الذى اردت انت باتخاذك منها مرآة ؟ قال : اردت ان اقول : انى استطيع ان اتوصـل الى تغيير قلبك واصلاحه ومداواته بدوائه ، قال الاسكندر : أجدت فما الذى اردت بردها اليك صدئة ؟ قال : اردت أن تقـول : ان قلبى الفاسد لا تصلحه مواعظك ، قال الاسكندر : ما أردت سوى ذلك ، فما الذى أردت أنت بردها مجلوة ؟ قال : اردت ان اقول : ان كان قلبك قد صدىء فانى اصقله وأزيل عنه ما تغشاه بلطائف كلامى وبدائع الفاظى، فقال الاسكندر : ما اعجب شأنك ولا خربت أرض اخرجت مثلك ، ثم خيره بين المقام معه والرجوع الى وطنه ، فاختار الرجوع ، فأمر له بصلة ، وسرحه الى بلده

ثم لما كان من الغد وفرغ الاسكندر من الاكل مع ندمائه دعا بالقدح وامر بأن يملأ ماء ، فشرب منه حتى ارتوى ولم ينقص الماء ، وامر بادارته علىجلسائه ، فشربوا منه كلهم والماء بحاله ، فتعجب من تلك الخاصية ، وقال : قد قضى « كيد » ما عليه ، وقد بقى أن نقضى ما علينا له ، فأمر بمكاتبته فى الثناء عليه ، واقراره على عمله ، وانفاذ الهدايا اليه . ثم بدا له فى أمر كنكة ، وقال : هى فتنة عظيمة وعقيلة عجيبة ، تشغلنى عما أنا بصدده من فتح الدنيا ، وقهر الملوك ، وتدبير الممالك ، وقبيح بمن غلب الرجال أن تغلبه النسـاء ، وليس الراى الا ردها الى والدها ، فأمر بتجهيزها وتسريحها الى ابيها

الندم على الزمرد الفائق

ثم ان الإسكندر اخذ فى التغريب برا وبحرا ، لما كان فى نفسه من دخول الظلمات ، وتطلب ماء الحياة من عين الخلد ، واستمر طول طريقه على عادته فى قهر الملوك والجبـــــابرة ، حتى بلغ مغرب الشمس فوجدها كما قال الله عز ذكره تغرب فى عين حمئة ، فنظر اليها كيف تغرب فى منازلها ، ثم دخل الظلمات مما يلى القطب الشـــمالى فى أربعمائة من أصحابه ، وساروا فيها ثمانية عشر يوما على ارض من الحجارة لا يدرون ماهى ، فقال لهم الاسكندر : خذوا منها ، واعلموا أن من أخذ منهـــا ندم ومن تركها ندم ، فأخذ منها بعض القوم ووضعوها فى مخالى دوابهم ، ولم يأخذ منها أكثرهم . ولم يظفر الاسكندر بما أراد من عين الخلد ، ويقال ان الخضر عليه السلام عثر عليها ، وشرب منها ، ولم يخبر أحدا بمكانها لما كان فى سابق قضاء الله تعالى من امتداد المـــدة فى حياته الى يوم الوقت المعلوم . ولما خرجوا من الظلمـــات الى نور الشمس تأملوا الحجارة المأخوذة ، فاذا هى زمرد كلها ، فندم من أخذ على ترك الاستكثار منها ، وندم من لم يأخذ على عدم أخـــذه . يقال أن الذى فى ايدى الناس الى الان هو من الزمرد الفائق ن هذه الارض البعيدة ، ويقال ان جبل المقطم بمصر معدن زمرد دون غيره من جبال الدنيا

بهرام جور

اشتهر بهرام جور ، وهو أحد الاكاسرة ، ببراعته ومهارته فى صيد الظباء ، ويقال انه قسم ايامه بين اللهـــو والطـــرب والصيد واللعب ، فأراد أن يجمع يوما بين لذات الصـــيد والشراب والسماع الى الغناء ، فامتطى فرسا كريما ، واخرج

معه جاريته آزاد الصناجة ومعها صنجها ، واستصحب زقا من الخمر وكأسا من الذهب ، وسار الى الصيد ، فجعل يصيد ويشرب ويسمع الى ضرب جاريتـــه وغنائها . وعن له سرب من الظباء ، فقال لآزاد : ايها تريدين ان اصيده لك ؟ فقــالت : انما أريد ان تصير (تجعل) ذكرا منها كالانثى وانثى منهـــا كالذكر ، فتحير بهرام ، وقال فى نفسه : ان لم استطع قيل انه منى جارية ولم يف بأمنيتهــا ، والتفت اليها قائلا : لشـــد ما اقترحت ، ورمى ظبيا بسهم له نصل على صورة الهلال ، فاستأصل به قرنيه ، حتى صار كالانثى التى لا قرن لها من غير ان يمس رأسه ألم ، ثم رمى ظبية فى راسها بنشابتين نشبتا فيه قائمتين كالقرنين حتى اشبهت ذكرا من الظباء ، فقالت آزاد : احسنت وبقى ان تجمع بين اذن تلك الظبية ورجلها ، فغضب بهرام من اشتطاطها ورمى رأس الظبية ببندقة ، فحين حكته برجلها ارسل فى التو سهما الصق اذنها برجلها وخاطها بها . ولما فرغ من هذه الرمية العجيبة ، والفعلة البديعة ، رمى بالجارية الى الارض وأوطأها فرسه وشتمها وقال لها : انك اردت ان تفضحينى بهذا الاشتطاط فى الاقتراح ، فاندقت ولم تصلح ، ويقال انها ماتت من تلك السقطة والوطأة الشديدة

الشطرنج والنرد

كان الملوك فى الزمن القديم يتراسلون ويتهادون ، ويسأل بعضهم بعضا عن المشكلات والغرائب ، فلما دان ملوك الاقاليم لكسرى أنو شروان ، وانفذوا اليه الهدايا ، انفذ اليه ملك الهند هدايا كثيرة نفيسة وفيها الشطرنج ورقعتها ، وسأله عن سرها ليرى هل يفطن اليها . ولما عرضت على انوشروان علم انه لايستطيع معرفة كنهها سوى وزيره بزرجمهر الذى اشتهر بالذكاء والحكمة ، فبعث فى طلبه وعرضها عليه ، فتأملها وادق النظر فيها حتى فطن لسرها ، وعرف حقيقتها فى مجراها ومبناها ، فقال : هذه انما وضعت للحرب وجعل الاكبر منها الملك ، والذى يليه الوزير ، والقطع الكبار القواد والبياذق الرجالة أو العسكر ، وحركاتها مصاولة القتال .

فتعجب رسول ملك الهند من فطنته ، ولم يلبث بزرجمهر ان عارضه بوضع النرد (الطاولة) ، وانفذه الى ملك الهند ، فلم يفطن هو ولا حكماؤه له ، وكتب الى كسرى انوشروان يسأله أن يأمر بزرجمهر بتنبيهه عليه ، فصدع بأمره بزرجمهر ، وقال ان خطوطه الاثنى عشر على عدد الشهور وبروج الفلك وقطعها السود والبيض هى الليالى والايام والمكعبان (قطعتا الزهر) حظوظ الناس وجدودهم . ولما أبلغ ملك الهند ذلك استحسن النرد وزاد فى مواصلة الهدايا لملك الفرس .

وفى بعض الكتب ان اخوين من ابناء ملوك الهند تنازعا الملك

بعد ابيهما ، فتجاربا ، وهلك احدهما فى حومة الحرب ، فجزعت عليه والدته جزعا شديدا ، وأرادت ان تحرق نفسها ، فمنعت من ذلك . ومازالت تبكى وتلوم ابنها الباقى على اتلافه أخاه ، فأراد ان يدل امه على براءة ساحته وانه لم يقصد قتله ،وانما اتت عليه طبيعة المعركة ، اذ لابد ان يقتل احدهما . فأمر الحكماء بوضع مايصور الحرب والمعركة والمكافحة بين الجيشين ، وهلاك احد الملكين او الاميرين المتعاركين ، فوضعوا الشطرنج وصوروا هيئة الحال فى المبارزة والمصاولة والمغالبة، وكيفية الامر فى موت الشاه (الملك) ، ولعبوا بين يديها ، حتى احاطت بصورة المعركة وعرفت الكيفية فى تلف ابنها ، فعذرت ابنها الباقى ، واتخذت من لعبة الشطرنج بعض السلوان لما نزل بها

※

عقاقير تحيى الموتى

كان لكسرى انوشروان مائة وعشرون طبيبـــا بين رومى وهندى وفارسى ، وكان برزويه من امهر اطباء الفرس واكثرهم دراسة للكتب ، فوجد فى بعضها ان ببلاد الهند جبالا ، فيهـا من غرائب العقاقير مايحيى الموتى . فمازال ذلك يدور برأسه، ويسمو بهمته الى تطلبه وتحصيله ، حتى أخبر أنو شروان بما فى نفسه ، واستأذنه للنهوض والسعى فى الظفر ببغيته ، فأذن له واعانه على سفره ، وزوده بكتاب الى ملك الهند حتى يهتم بأمره ، ويعمل على انجاح مطلبه

ولما دخل برزويه الهند واوصل كتاب انوشروان الى ملكها اكرمه وحكمه فى مناه ، وانهضه لوجهته فى طلب العقاقير من مظانها ، فمازال يجد ويجتهـــد ويتعب ويدأب فى محـــاولة اجتنائها والتقاطها وتاليفها وتركيبها ، حتى كان مثله بعد حين من الدهر كما تقول عامة بغداد : مازلنا فى لاشىء حتى فرغنا . واستشعر الكآبة والانخزال لما فاته من مراده وما ضاع من ايامه ، وتصور الخجل من انوشروان اذا عاد مخفقا اليه ، فسأل عن اطب الاطباء واحكم الحكماء بأرض الهند ، فدل على شيخ عالى السن ، فأتاه ، وقص عليه قصته ، وذكر له ماقراه فى بعض الكتب من حديث جبال الهند واشتمالها من العقاقير على مايحيى الموتى ، فقال له : « يابرزويه حفظت شيئا وغابت عنك اشياء ، اما علمت ان ذلك رمز للقدماء ، والمراد بالجبال العلماء

وبالعقاقير كلامهم الشافى الكافى وبالموتى الجهال ، يعنون ان العلماء يؤدبون الجهال بحكمهم ، فكأنهم يحيون الموتى . وهـذه الحكم موجودة فى كتاب معنون باسم كليلة ودمنة ، لايوجد الا فى خزانة الملك ، فسرى عن برزويه وسر بما سمع

ورغب برزويه الى الملك فى اعارته هذا الكتاب ، وتقليد الملك انو شروان بذلك منة مشكورة ، فقال له الملك : سـآمر باعارته لك ايجابا لصاحبك ، ورعاية لحقك ، على شريطة ان تقراه بين يدى ولا تتخذ منه نسخة لنفسك ، فأجابه برزويه بالسمع والطاعة ، وجعل يحضر فى كل يوم مجلسه ، ويدعو بالكتاب فينظر فيه ، ويتحفظ معانيه ، ويقيدها بالكتابة اذا رجع الى منزله ، حتى اتى على جميعه . واستأذن الملك للعودة الى صاحبه ، فأذن له واهدى اليه وخلع عليه . وحين وصل الى انو شروان اخبره بقصته وبشره بحصول الكتاب لديه ، ثم عرضه عليه ، فأعجب به وأجزل صلته ، وأمر بزرجمهر بنقله الى اللغة الفارسية ، فتلطف برزويه وتضرع الى الملك فى الاذن ، بافتتاح الباب الاول منه باسمه وذكره ، فأجابه اليه.
ولم يزل الكتاب مخزونا عند ملوك الفرس حتى نقله ابن المقفع الى العربية

صندوق السر الغامض

لما نكب كسرى انو شروان بزرجمهر أمره بأن يختار لسكناه موضعا لايبغى عنه حولا فى الصيف والشتاء ، ولطعامه شيئا واحدا لايستبدل به وللباسه ثوبا لايتعداه الى غيره ، فاختار السرب (البيت الذاهب تحت وجه الارض) لكونه فى الصيف باردا وفى الشتاء حارا ، واختار اللبن لانه طعام وشراب ، وهو غذاء الصغير والكبير ، واختار الفرو ، ليلبسه فى الشتاء حتى اذا دخل

الصيف قلبه . فطالت أيامه فى المحنة حتى كف بصره ، واتفق ان انفذ قيصر الى انوشروان صندوقا صغيرا مقفلا مختوما ، وسأله ان يحاول معرفة مافيه قبل فتحه ، فسأل انو شروان من ببابه من العقلاء عن ذلك ، فتساوت أقدامهم فى القصور عن الاجابة والاصابة . وعلم انو شروان انليس له الا بزرجمهر على عماه ، فأمر باطلاقه وادخاله الحمام والباسه ماكان يلبسه من ثياب الوزراء وادخاله . فامتثل أمره ، وأوصل بزرجمهر الى مجلسه ، فقربه ، واعتذر اليه ، وأخبره بحال الصندوق ، وسأله عما فيه ، فاستمهله ليلة . ثم ركب من الغد وقدم أمامه رجلين وأمرهما ان يخبراه بأول من يستقبله ، فاستقبلته امرأة فقال لها : أبكر أنت أم ثيب ؟ فقالت : بكر ، فانطلق فاستقبلته ثانية فقال لها : أأيم (لازوج لها) أم ذات بعل (زوج) فقالت : بل ذات بعل ، فقال ألك ولد ؟ قالت : لا ، وانطلق فاستقبلته ثالثة ، فسألها عن حالها ، فقالت ذات ولد . وانطلق بزرجمهر حتى دخل على أنوشروان ،وسأله الامر باحضار الرسول والصندوق المختوم فأحضرا ، فقال بزرجمهر : ان فى الصندوق ثلاثدرر احداها غير مثقوبة والثانية منصفة ، والثالثة مثقوبة ، ففتح عنها ، فكانت كما وصف . وتعجب أنوشروان من فطنته وندم على نكبته ، وعاد الى قديم صلته والرفق به

صقر وعصفور

يحكى ان خسرو بن فيروز ، أحد ملوك الفرس ، جلس يوم مهرجان للهدايا ، فجاءه منها طبق ذهب مغطى بمنديل حرير ، أرسله اليه موبذان (من كهنة المجوس) فأمر بكشفه واذا فى الطبق فحمتان محترقتان ، فتعجب

من سخف الهدية مع شرف ظرفها (وعائها) ، ثم قال ما أراها الا مشتملة على حـــكمة فعلى بالموبذان ، فلم يلبث ان قدم ، وسأله خسرو عن الفحمتين ، فقال : اعلم ايها الملك انى اجتزت بروضة عالية الاشـجار ، قد اشتعلت فيها النار ، ورأيت صقرا يتعقب عصفوراً ، فهرب منه العصفور ، واقتحم النار من خوفه ، وتبعه الصقر حتى دخل فى النار على اثره حرصا على صيده ، فاحترقا معا ، وسقطا فحمتين ، فأخذتهما معتبرا بهما ، وقلت فى نفسى : لاينبغى للانسان ان يستشعر خـوف عدوه كل الاستشعار ، حتى يقدم من شدة الخوف على الاستجارة بما يهلكه كالعصفور الذى احرق نفسه لفرط خوفه . ولاينبغى للانسان ايضا ان يحرص جدا على متاع الدنيا ، حتى يمشى بقدمه على دمه فى التوصل اليه ، كالصقر الذى جنى على نفسه بشدة حرصه ، فقال خسرو : ما أوعظ هديتـك وما أحسن موقعها ، وماأهديت الى اليوم مثلها ، وبالغ فى اكرامه والاحسان اليه

من كتاب عجائب الهند

فيلة تخدم أصحابها

فى الهند فيلة تتصرف فى حوائج أصحابها ، فترى صاحب الفيل يدفع اليه الوعاء الذى يشترى فيه مايريد ، وفيه الودع ، وهو نقد القوم ، وانموذج (مثال) الحاجة المطلوبة كائنا ماكانت ، فيكون معه الانموذج والنقد ، ويمضى الى البقـال ، فاذا رآه نزل من جميع شغله مهما كان على راسه ممن يشترى منـه كائنا من كان ، واخذ الوعاء منه ، فعد الودع الذى فيه ، ونظر ما يريد بأنموذج وعائه ، ودفع اليه أجود ماعنده من ذلك النوع بأرخص سعر . ويستزيده ، فيزيده . وربما عد البائع الودع فغلط فيه ، فيشوشه الفيل بخرطومه ، فيعد البقال مرة ثانية . ويمضى الفيل بما اشتراه ، فربما استقله صاحبه فيضربه ، فيعود الى البقال ، فيشوش متاعه ، ويخلط بعضه ببعض ، فاما ان يزيده أو يرد عليه الودع . والفيل الذى هذا صورته يكنس ويرش ويدق الارز بمدقة ، يأخذها بخرطومه ، فيدق ، ورجل يجمع عليه الارز حتى يطحنه . ويستقى الماء ، وذلك انه يأخذ الوعاء الذى يستقى فيه الماء ، وفى الوعاء حبل مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله . ويقضى جميع الحوائج ، ويركبه صاحبه فى حوائجه البعيدة . ويركبه الصبى ويمضى عليه الى المزارع ، فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ، ويدفعه

الى الصبى ، فيجمعه فى وعاء معـــه ، ويحمله ، فيكون ذلك طعامه . واذا كان الفيل على هذه الصفة بلغ مالا عظيما ، قيل عشرة آلاف درهم

صناعة الورود والرياحين بالصين

قال كاوان : ادخلنى باغ بور (ابن ماء السماء) ملك الصين الى بستان بخانفو (كانتون) مقدار عشرين جريبا (مزرعة) فيه نرجس ومنثور وشقائق وورد وسائر الانوار (الازهار) فعجبت من اجتماع أزهار الصيف والشتاء فى وقت واحد فى بستان واحد ، فقال لى : كيف ترى ؟ فقلت : مارايت حسنة الا وهذا أحسن منها ، ولا طرفة الا وهذا أطرف منها . فقال لى : جميع ماترى من الاشجار والازهار مصنوع من الحرير . فتفقدته بعد أن قال لى هذا ، فوجـدت الورق والازهار من الحرير الصينى ، قد عمل وضفر وحبك ونسج وسوى على هذه الصورة . ومن رآه لم يشك فى انه شجر وزهر حقيقى ، لايغادر شيئا من الواقع

اسلام ملك من ملوك الهند

كتب مهروك بن رائق ، أحد ملوك الهند ، وملكه بين قشمير الاعلى والاسفل ، الى صاحب مدينة المنصورة (فى الهند) سنة مائتين وسبعين ، يسأله ان يفسر له شريعة الاســلام بالهندية ، فأحضر صاحب المنصورة رجلا عربيا حاد القريحة حسن الفهم شاعرا ، كان قد أقام ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها ، فعرفه ماسأله مهروك ، فكتب قصيدة يمدحه بها ويعرفه ما يسأل عنه ، فلما قرئت عليه استحسنها وكتب الى حاكم المنصورة يسأله حمل صاحب القصيدة اليه ، فأرسله له ، فأقام عنده ثلاث سنين . ثم رجع فسأله حاكم المنصورة

عن امر هذا الملك وهل اسلم ؟ فشرح له اخباره ، وقال انه تركه وقد اسلم قلبه ولسانه ، ولكنه كتم اسلامه مخافة ذهاب ملكه . وكان فيما حكاه عنه انه سأله ان يفسر له القرآن بالهندية ، فانتهى من التفسير الى سورة يس وفسر له قوله عز وجل : « قل من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » وكان جالسا على سرير من الذهب مرصع بالجوهر والدر ، فقال له : أعد على، فأعاد عليه تفسيره ، فنزل عن سريره ، ومشى على الارض ، وكان قد رشها بالماء وهى ندية ، فوضع خده عليها وبكى ، ثم قال : هذا هو الرب المعبود والاول القديم الذى ليس يشبهه احد . وبنى بيتا لنفسه ، واظهر انه يخلو فيه لمهمة . فكان يصلى فيه سرا حتى لايطلع على ذلك انسان ، ووهب له ثلثمائة أوقية من الذهب

من كتاب آثار البلاد واخبار العباد

الزوجة الموافقة

حكى رجل قال : وجدنا بحضرموت سنبلة قمح ملأت طبقا من الفخار ، وكل حبة منها كبيضة دجاجة ، ووزناها ، فكانت رطلين ، ورأينا شيخا له خمسمائة سنة ، وله ولد له اربعمائة سنة ، وحفيد له ثلثمائة سنة . فذهبنا الى ابن الابن ، نسأله عن ذلك ، وقلنا انه اقرب الى الفهم والعقل ، فوجدناه لايعرف الخير من الشر ، فقلنا اذا كان هذا حال الحفيد فما حال الاب والجد ، فذهبنا الى صاحب الاربعمائة ، فوجدناه اقرب الى الفهم من ابنه ، فذهبنا الى الجد صاحب الخمسمائة ، فوجدناه أحسن حالا منهما ، سليم العقل والفهم ، فقلنا له : ماسبب فساد عقل حفيدك ؟ فقال : كانت له زوجة سيئة الخلق ، لاتوافقه فى شىء اصلا ، فأثر فيه ضيق خلقها ، ودوام الغم بمعايشتها ، واما ابنى فكانت له زوجة توافقه مرة وتخالفه مرة ، ولهذا كان احسن حالا واقرب فهما وتمييزا منه ، واما انا فلى زوجة موافقة فى جميع الامور ، فلذلك سلم فهمى وعقلى . فسألناه عن سنبلة القمح ، فقال : هذا زرع قوم من الامم الماضية كانت ملوكهم عادلة ، وعلماؤهم أمناء ، وعوامهم منصفة

صنم سومناة

لما غزا السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى بلاد الهند

سعى في فتح بلدة سومناة (في شمالى الهند) ، حتى يزيل صنمها الذى يحج اليه الهنود من جميع ديارهم ، طمعا فى دخولهم فى الاسلام وانتشاره فى جميع بلادهم . فوصل اليها فى منتصف ذى القعدة سنة ست عشرة وأربعمائة ، فقـاتل الهنود عنها أشد قتال ، وكانوا يدخلون على سومناة ويبكون ويتضرعون ، ثم يخرجون الى القتال فتحصدهم سيوف السلطان محمود وجنوده . واستولى على المدينة ، فرأى ازالة هذا الصنم الكبير ، وكان عجيبة من العجائب اذ كان قائما فى هيـكل ، معلقا في فراغ قبة كبيرة ، لايمسـكه شيء في الارض ولا فى السقف . فقال السلطان لاصحابه ومن حوله : ما تقولون في هذا الصنم وأمره ووقوفه فى الهواء بلاعماد ؟ فقـال بعض السامعين انه علق بأسباب وعلائق ، أخفيت عن الانظار حتى لاتراها . فأمر السلطان شخصا يدور برمحه حول الصنم ومن اعلاه واسفله ففعل فلم يمنع الرمح شيء . وتأكدوا ان ليس هناك علائق ولا أسباب تصله بشيء مما حوله . فتقـدم رجل عارف الى السلطان وقال له : انى أظن أن القبـة من حجر المغناطيس والصنم من الحديد ، وقد بالغ الصـانع فى تدقيق صنعته ، فراعى تكافؤ قوة المغناطيس من جميع الجوانب ، بحيث لاتزيد قوة جانب على جانب آخر ، فوقف الصنم فى وسط الفضاء وحفظ توازنه . فوافقه قوم وخالفه آخرون . فقال الرجل للسلطان: ائذن لى ان ارفع حجرين من راس القبة ليظهر ذلك فأذن له . فلما رفع الحجرين اعوج الصنم ومال الى أحد الجوانب ، ولم يزل الرجل يرفع الحجارة والصنم يهبط الى أسفل حتى سقط على الارض

بربا (هيكل) اخميم

من عجائب مصر البرابى (معابد وهياكل الفراعنة) وهى بيوت بها صور طير ونباتات وأشجار وعليها كتابات وطلسمات (الكتابة الهيروغليفية) • وبربا اخميم بيت فيه صور وتماثيل ثابتة ، وقد ذكر أنه لما أغرق الله تعالى فرعون وجنوده فى البحر خلت مصر من الرجال • وكانت امرأة من بيت الفراعنة تسمى دلوكة أرادت أن تصنع شيئا يمنع الممالك المجاورة من الاغارة على البلاد ، وكانت باخميم ، وكان بها ساحرة يشهد لها سحرة مصر بالتفوق فى علم السحر ، وكانت تسمى تدورة ، فقالت لها دلوكة : اننا نحتاج اليك فى شىء تصنعينه يكون حرزا لبلادنا ممن يرومها من الملوك ، نحن كما ترين بغير رجال! فأجابتها الى ما أرادت وصنعت لها بربا ، وهو بيت له أربعة أبواب الى أربع جهات ، وصورت فيه السفن والرجال والخيل والبغال والحمير ، وقالت لها قد عملت لك شيئا يغنيك عن الرجال والسلاح والحصون ، فان من أتاكم من البر يكون على الخيل والبغال والحمير ومن أتاكم من البحر يكون فى السفن • فحين يأتى أحد من البر أو البحر تحرك الصور التى على مثاله، فما يفعل بها يعيبه مثل ذلك فى أنفسه ورجاله • فكانوا بعد ذلك اذا أتاهم عدو تحركت الصور ، فقطعوا سيقان الدواب وفقئوا عيون الرجال وبقروا بطونهم ، فيصيبهم مثل ذلك

قال القزوينى : وهذه الحكاية تشبه الخرافات ، ولكنى وجدتها فى جميع كتب اخبار مصر • وهى خرافة لاريب فيها • ونجد فى كتابات مؤرخى العرب كثيرا من مثل هذه الخرافة التى لاتتفق وما كشفت عنه الآثار الفرعونية ، ويغلب أن يكونوا قد نقلوها من القصص الشعبى الذى كان يدور على الالسنة

عروس النيل

لما فتح المسلمون مصر جاء أهلها الى عمرو بن العاص حين دخل شهر بئونة (يونية) من أشهر القبط وقالوا : أيها الامير ان لبلدنا سنة (عادة) لايجرى النيل الا بها ، وذلك أنه اذا كان لاثنتى عشرة ليلة من هذا الشهر عمدنا الى فتاة ، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب افضل مايكون ، ثم القيناها فى النيل • فقال لهم عمرو : ان هـذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ماقبله ، فأقاموا اشهر بئونة وأبيب (يولية) ومسرى (أغسطس) والنيل لايجرى أبدا ، لاقليلا ولا كثيرا حتى هم اهل مصر بالجّلاء عنها ! . فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك فكتب عمر اليـه : قد أصبت ان الاسلام يهدم ماقبله ، وقد بعثت اليك بطـاقة (رسالة) فألقها فى داخل النيل ، واذا فيها : « من عبدالله أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأله أن يجريك » • فألقى عمرو بن العاص البطاقة فى النيل وقد تهيأ أهل مصر للجلاء ! لان مصالحهم لاتقوم الا بالنيل ، فأصبحوا وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة • وهى قصة لاتؤيدها حقائق التاريخ

قاض يخون الامانة

«كرد فناخسرو» مدينة يضرب بقاضيها المثل فى الخيانة ، حكى أن بعض الناس أودعه مالا كثيرا ، فلما أراد أن يسترده جحده وانكره ، فاجتمع صاحب المال بعضد الدولة البويهى (٣٣٧ ـ ٣٧٢ هـ) منشىء المدينة وبانيها ، وقال له : أيهـا السلطان انى ابن فلان التاجر ، ورثت من أبى خمسـين ألف

دينار ، وأودعت عشرين ألفا منها في قمقم (وعاء) عند قاضيك الى وقت الحاجة ، وكنت أتصرف فيما معى ، فوقعت في بعض أسفارى فى أسر الروم ، وبقيت أربع سنين حتى تخلصت . فلما رجعت وطلبت الوديعة من القاضي جحدها ، واظهر انه لايعرفنى ولا يسمع بى . وكررت عليه الطلب ، فقال لى : انك رجل مجنون ،قد غلبتك السوداء ، فدع عنك هذا الجنون ، والا بعثت بك الى المارستان (مستشفى المجانين) وقيدتك في السلسلة هناك . فتأثر عضد الدولة ، وقال له : أنا الذى ظلمتك بتوليتى مثل هذا القاضي ، وأعطاه مائتى دينار ، وقال له : لاتذكر هذا القول ولا هذه القصة لاحد حتى يأتيك أمرى . وانتظر عضد الدولة شهرا ، ثم طلب القاضي يوما فى الظهيرة واختلى به وبالغ فى اكرامه ، ثم قال له : ايها القاضي ان لى سرا ما وجدت له في جميع مملكتى غيرك محلا له لما تمتاز به من كمال العلم ووفور العقل والدين ، وهو أن لى أولادا ذكورا واناثا ، أما الذكور فلست أهتم بأمرهم ، وأما الاناث فهن اللائى أخشى عليهن ، فأردت أن تتخذ فى دارك موضعا صالحا لوديعة لايعلم بها أحد غير الله ، تدفعها الى بناتى بعد موتى ، ودفع الى القاضي مائتى دينار وقال : اصرفها فى عمارة بناء صغير ببيتك يسع مائتين وأربعين قمقما . واذا تم لك ذلك أخبرنى حتى أبعث اليك القماقم على يد بعض من يستحق القتل ، ثم أقتله فلا يعلم أحد السر . فقال القاضي سمعا وطاعة ، وقام من عنده فرحا يحدث نفسه بأنه سيتمتع بهذا المال هو وأولاده وأحفاده ، فان عضد الدولة اذا مات لايوجد بعده من يطلب المال ، اذ لا حجة ولا شاهد . واشتغل بعمل بناء صغير ، وبعث عضد الدولة الى الفتى المظلوم ، فلما أخبر القاضي عضد الدولة باتمام

البناء قال عضد الدولة للفتى : اذهب الى القاضى وطالبه بالوديعة وهدده برفع الامر الى . فذهب الفتى الى القاضى وقال له : أيها القاضى ساء حالى وطال ظلمى ، ولئن لم تدفع لى الوديعة لآخذن غدا بلجام عضد الدولة وأخبرنه القصة . فقام القاضى ، ودخل حجرة ، وطلب الفتى وعانقه ، وقال له : يابن أخى ان أباك كان صديقى ، وما حبست المال الا لمصلحتك ، لانى سمعت انك أتلفت مالا كثيرا ، فأخرت وديعتك الى أن أعرف رشدك ، والآن عرفت رشدك ، فخذ حقك ، بارك الله لك فيه . وأخرج المال وسلمه اليه . فأخذه الفتى ومضى الى عضد الدولة به ، فأحضر القاضى ، وقال له : ايها الشيخ القاضى انى أجريت عليك رزقك ، لتقطع طمعك عن اموال الناس ، ولولا انك شيخ لجعلتك عبرة لمن بعدك ، وقد ثبت عندى ان جميع مالك حرام من أموال الناس . وختم على جميع ماله وعزله ، وقال : الحمد لله الذى وفقنى لازالة ظلم هذا القاضى الظالم

العمل الصالح

انطلق ثلاثة نفر فى الزمن القديم ، حتى دخل عليهم الليل، بالقرب من البلقاء فى الشام ، فباتوا فى غار بجبل ، فلمـــا أصبحوا وجدوا صخرة انحدرت من الجبل وسدت عليهم باب الغار ، فقالوا لاينجينا من هذه الصخرة الا أن ندعو الله بصالح اعمالنا ، فقـــال رجل منهم : اللهم آنه كان لى أبوان كبيران ، فكنت اطعمهما اللبن صباحا ولا أقدم عليهما أهلا ولا ولدا ، وأخذهما النوم يوما ، ولما حلبت اللبن وجدتهما نائمين ، فمكثت بجانبهما والقدح فى يدى ، انتظر استيقاظهما حتى طلع النهار والصبية من حولى يتصايحون جوعا ، فاستيقظا وشربا اللبن ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه . فقال الثانى : اللهم انه كان لى ابنة عم احبها ، فألمت بنا سنة مجدبة فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا ، وقد تعرضت لى وقالت : هيت لك ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس الى ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيـــه ، فانفرجت الصخرة قليلا ، غير أنهم لايستطيعون الخروج منها . فقـــال الثالث : اللهم انك تعلم انى استأجرت أجراء (عمالا) فأعطيتهم اجرهم غير رجل واحد ، ترك الذى له وذهب ، فنمت اجرته فى تجارتى حتى كثرت وازدادت زيادة كبيرة ، فجاءنى بعد حين ، وقال : ياعبد الله هات أجرتى ، فقلت له : كل ماترى من الابل

والبقر والغنم والعبيد من أجرتك فقال : يا عبد الله لاتستهزىء بى ، فقلت له : لاأستهزىء ، وانما هى الحقيقة • فاستاق ذلك كله ، ولم يترك منه شيئا ، اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة • وخرج من الغار النفر الثلاثة لم يصبهم أذى

نبوءة منجمين

حكى ان المنجمين قالوا لسابور بن أردشير ملك الفرس : أن الملك يزول عنك ، ثم يعود اليك ، فقال لهم : وما علامة عودته ؟ قالوا : اذا أكلت خبزا من الذهب على مائدة من الحديد ، فلما ذهب ملكه خرج وحده تخفضه أرض ، وترفعه أخرى ، الى أن صار الى قرية أسفجين من قرى همذان ، فاستأجره شيخ القرية ، على أن يزرع له أرضا نهارا ويطرد عنها الوحش ليلا • فبقى على ذلك مدة ، فرأى شيخ القرية منه جلدا وأمانة ، فزوج بنته منه • فلما انقضت أربع سنين اتفق أن كان فى القرية عرس ، اجتمع فيه الرجال والنساء ، وكانت امرأته تحمل اليه كل يوم طعامه ،فاشتغلت عنه فى ذلك اليوم الى ما بعد العصر • ولما ذكرته عادت الى بيتها ، فلم تجد الا قرصين من الدخن (حب أصفر يابس) فحملتهما اليه فوجدته يسقى الزرع وبينها وبينه ساقية فمد المسحاة اليها ، فجعلت القرصين عليها فقعد يأكلهما • وتذكر سابور قول المنجمين انه يأكل خبز الذهب على مائدة من الحديد ، فعرف ان ايام بؤسه انقضت ، فظهر للناس واجتمعت عليه الجنود ، وعاد الى ملكه • فقالوا له : ما أشد شىء لقيته فى أيام بؤسك ؟ فقال : طرد الوحوش عن الزرع ليلا ، فصادوا فى ذلك الموضع مالايحصى من حمر الوحش وأمر أن يبنى من حوافرها منارة ، ارتفاعها خمسون ذراعا •

يقول القزويني : والمنارة مشهورة في هذه القرية الى زماننا

فرس كسرى ابرويز

كان لكسرى أبرويز فرس يسمى شبديز ، أهداه اليه ملك الهند ، وكان من أذكى الدواب ، واعظمها خلقا ، وأصبرها على طول الركض، فاتفق انه اعتل وزادت علته ، فقال كسرى : من أخبرني بموته قتلته ، ومات فخاف صاحب خيله أن يسأله عنه ، فيجيبه بموته ، فجاء الى مغنى كسرى ، وسأله أن يحتال عليه في أثناء غنائه ، ويخبره بذلك ، فلما سمعه كسرى يذكره متحسرا عليه في شيء من غنائه فطن لما صار اليه ، فقال له : ويحك مات شبديز ، فقال : الملك يقول ذلك ، فقال كسرى حسنا ، ما أحسن ماتخلصت وخلصت غيرك . وأمر فطرس بن سنمار بتصويره ، فصنع طاق بستان بجبل بيستون ، وهو ايوان في الحجر وفي وسطه صورة فرس كسرى شبديز ، وكسرى راكب عليه ، وجعل على حيطان الايوان صورة شيرين وجواريها ومواليها . وقد زعم بعض الناس لدقة صنع تمثال شبديز ، انه ليس من عمل البشر لما فيه من الفكر اللطيف والنظر الدقيق ، وكذلك صورة شيرين فانها تظهر الحسن والملاحة في وجهها ، حتى فتن بها بعض الناس، وعشق صورتها عشقا شديدا . ولما جاء كسرى وتأمل الطاق والتمثال قال لشد ما نعى هذا التمثال الينا أنفسنا ، وذكرنا مانصير اليه من موت جسدنا وطموس صورتنا

عاشق شيرين

عشق رجل حجار اسمه فرهاد شيرين حظية كسرى ابرويز ، وكانت رائعة الحسن والجمال ، وتدله في عشقها ، واشتهر ذلك بين الناس ، حتى عرفه أبرويز ، فقال لحاشيته :

ماذا ترونفی امر هذا الرجل ان ترکته وما هو علیه قبح ذلك ، وان قتلته او حبسته عاقبت غیر مجرم ؟ فأشار علیه بعض السامعین ان یشغله بفتح درب شاق فی جبال یصرف عمره فیه . فاستصوب ابرویز هذا الرأ ی، وامر باحضار الرجل ، فدخل علیه ، فرآه رجلا ضخما طویل القامة ، فأمر باکرامه ، وقال له : ان جبال بیستون تمنعنا من المرور الی ماوراءها ، ونرید ان نفتح فیها طریقا لسلوکنا فیها ، وقد عرفت دربتك وذکاءك ، فقال الصانع : أفعل ان وعدتنی بلقاء شیرین ، فتاذی کسری ابرویز من قوله ، ولکنه قال فی نفسه : من یستطیع ان یقطع جبال بیستون ، ان هذا مستحیل ؟ فقال فی جواب الرجل : نفعل ماترید ونقضی طلبك اذا فرغت من عملك . فخرج فرهاد من عنده ، وشرع فی قطع الجبال ، ورسم فیها دربا یسع عشرین فارسا عرضا ، ویسع سمکه أعلی الرایات والاعلام . فکان یقطع الصخور طول نهاره ، وینقلها طول لیله ، ویرصف من قطعها الکبار فی سفح الجبل ویسویها حتی یستقیم الطریق . ولما کاد ان یتمه ذکر ذلك لکسری ابرویز ، فأخذه الهم ، فقال له بعض الحاضرین : انا اکفیك امره ، وبعث الی فرهاد من أخبره بموت شیرین ، فلما سمع ذلك أخرج زفرة حارة من کبده وضرب الفأس فی الصخرة ، ثم جعل یضرب رأسه علی الفأس الی ان مات . فقال القزوینی : وتلك الآثار باقیة الی الآن لاریب فیها ! وقد رأیت عند اجتیازی بالدرب شبه منارة عظیمة فتح فرهاد جوانبها وما قطعها بعد ، ورأیت قطعا کبیرة من الاحجار ، علیها آثار ضرب الفأس وفی کل قطعة حفرتان علی جانبیها ، لیجعل یدیه فیهما عند رفعها !

عدل كسرى انو شروان

حكى انه لما اراد كسرى انوشروان بناء قصره الابيض ، الذى وصف ايوانه البحترى فى قصيدته السينية ، امر بشراء كل ماحوله ، ورغب الناس فى البيع بالثمن الوافر . وكان من جملتهم عجوز لها بيت صغير ، فقالت : لست ابيع جوار كسرى بالدنيا كلها ، فاستحسن أنوشروان منها هذا القول ، وأمر بترك بيتها على حاله وبناء الايوان محيطا به ، واتخـــذت على الايوان نقوش وصور بالتزاويق ، منها صورة مدينة انطاكية وأنو شروان يحاصرها ويحارب اهلها راكبا على فرس أصفر ، وعليه ثياب خضر وبين يديه صفوف الفرس والروم . ولما تم البناء وسكن كسرى القصر شكا اليه غلمانه من أن العجوز تدخن فى بيتها ، ودخانها يفسد نقوش الايوان ، فقال : دعوها وكلما افسدت النقوش بدخانها اصلحوها . وكان للعجوز بقرة تأتيها آخر النهار لتحلبها وتأخذ لبنها ، فاذا وصلت الى الايوان طوى الغلمان فرشَه والبسط الممدودة امامه ، لتمشى البقرة الى باب العجوز . فاذا فرغت من حلبها رجعت وسويت البسط والسجاجيد !

الاسم الاعظم

كان أهل نجران (مدينة فى اليمن) اهل شرك وكان عندهم ساحر يعلم صبيانهم السحر ، فنزل بهم رجل صالح وابتنى خيمة بجنب قرية الساحر ، فكان يرى اهل نجران يرسلون باولادهم الى الساحر ليعلمهم سحره ، وكان فيهم غلام اسمه عبد الله ، فكان يمر معهم على الرجل الصالح ،وأعجبته عبادته، فكان يجلس اليه ويسمع منه أمور الدين ، فدخل الايمان فى قلبه واسلم ، وتعلم منه الشريعة والاسم الاعظم ، وقال له

الرجل الصالح : لقد عرفت الاسم الاعظم ، فاحفظه لنفسك .
وجعل عبد الله اذا راى شخصا من أصحاب العاهات يقول له:
ان دخلت فى دينى دعوت الله أن يعافيك ، فاذا أجابه دعا له
وشفى من عاهته ، ولم يزل على ذلك حتى شفى جميع أهل
نجران ولم يبق بينهم صاحب آفة . ورفع امره الى الحاكم
فاحضره ، وقال له : افسدت على أهل مدينتى وخالفت دينى
ودين آبائى لامثلن بك ، فقال له عبد الله : انك لن تستطيع
ان تصيبنى بسوء . وجعل الحاكم يلقيه من شاهق فيقوم
كأن لم يمسسه ضر ، واغرقه فى البحر فلم يصبه أذى .
فآمن بدينه ووحد ربه ، ودخل أهل نجران جميعا فى دين
عبد الله

أصحاب الكهف

افسوس مدينة مشهورة ، وهى مدينة ديقيانوس الجبار الذى هرب منه أصحاب الكهف ، وهو على بعد فرسخين من المدينة ، وهم سبعة نفر ماتوا وظلوا ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا ، ثم عادوا الى الحياة ، ولم يلبثوا أن ماتوا بعد أن ظهرت معجزتهم الخارقة . قال القزوينى :

كان ملك مدينتهم ديقيانوس ارتد الى عبادة الاصنام،ورصد كل من خالفــه ودعا الى التوحيد فعــذبه بالقتل والصلب والحرق . واتفق أن بعض الفتيان من أولاد بعض البطـــارقة (الاشراف) خرجــوا ذات يوم لينظـروا الى المعــذبين من الموحدين ، ففتح الله ابصارهم ، وهدى بصائرهم ، وكتب هدايتهم ، فكانوا يرون الموحدين اذا قتل احدهم هبطت اليه الملائكة من السماء وعرجوا بروحه . فآمنوا بربهم ، ومكثوا كذلك مدة ، حتى عرف امرهم وسمع الملك بايمانهم ، فدعا آباءهم وعاتبهم على ما أقدم عليه ابناؤهم من ايمانهم بربهم ، فقالوا له : انا بريئون منهم ، واصنع بهم ماتريد ، فاحضرهم ، وقال لهم : انى ممهلكم ثلاثة ايام سأخرج فيها عن البلد ، فان عدت فى اليوم الرابع ووجدتكم مخالفين لطاعتى عذبتكم عذابا اليما . ولما كان اليوم الثالث صمم الفتية على الهرب ، ولما جنهم الليل حمل كل منهم شيئا من مال ابيه ، وخرجوا من المدينة يمشون ، فمروا براعى غنم لبعض آبائهم ، فعرفهم وقال

لهم : ما شأنكم ؟ فاظهروا أمرهم له ، ودعوه الى التوحيـــد ، فأجابهم ، فأخذوه معهم ، وتبع الراعى كلبه ، فساروا ليلتهم حتى وصلوا الى كهف ، فدخلوا فيه يختبئون ، وقالوا للراعى : خذ شيئا من الورق (النقود) وانطلق الى المدينة ، واشتر لنا طعاما ، فان القوم لاعلم لهم بخروجك معنا . فأخذ الدراهم ومضى نحو المدينة وتبعه كلبه ، وكان على باب المدينة صنم ، وكان لايدخلها أحد الا بدأ بالسجود لذلك الصنم قبل دخوله فيها ، فبقى الراعى برهة متحيرا مفكرا فى السجود للصنم . وبينما هو كذلك اذا الكلب يعدو بين يديه ، ومازال يعدو حتى دخل المدينة فعدا الراعى خلفه ، وهو يقول : امسكوه امسكوه حتى جاوز الصنم ولم يسجد له . ولما انتهى الى السوق ، واشترى بعض حوائجه سمع قائلا يقَـــول : ان راعى فلان أيضا تبع الفتية . فلما سمع ذلك فزع وترك استكمال ماأراد شراءه ، وخرج من المدينة مبادرا حتى وافى أصحابه ، فأخبرهم بما كان من أمره ، فأكلوا طعامهم واخذوا مضاجعهم ، فضرب الله على آذانهم . فلمـــا رجع الملك اخبروه بهربهم ، فخرج يقفو آثارهم ، حتى انتهى الى باب الكهف ، ووقف على أمرهم ، فقال : يكفيهم من العذاب أن ماتوا جوعا . فأهلك الله ديقيانوس وانزل على باب الكهف صخرة ، وبعث الى الناس الانبياء ، فدعوهم الى التوحيد ، فأجابهم خلق كثير ، آمنوا بهم ، ومرت السنون ، فلما كانت السنة التى أراد الله فيهـا احياء الفتية ، انطلق رجل من أهل المدينة ، وأقام بالقرب من الكهف يرعى غنمه ، فأراد أن يتخذ لغنمه حظيرة ، فأمر اعوانه بتنحية الصخرة التى كانت على باب الكهف ، فعند ذلك قام الفتية كمن يبيت ليلة صافية هنيئة ، ورأوا كلبهم باسطا ذراعه

بالوصيد (فناء الكهف) وكان ذلك بعد ثلثمائة سنة بحساب الروم وزيادة تسع بحساب العرب ، لان سنى الروم شمسية وسنى العرب قمرية . وكان انتباههم آخر النهار ، ودخولهم فيه أول النهار ، فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، لانهم رأوا الشمس غير غاربة ، فلما نظروا الى طول شعرهم واظافرهم قالوا : ربكم اعلم بما لبثتم ، وقالوا للراعى : انك اتيت البارحة بطعام قليل لم يكفنا ، فخذ شيئا من هذا الورق (النقد) ، وانطلق الى المدينة وأشتر لنا طعاما فانطلق خائفا حتى أتى باب المدينة ، فرأى الصنم قد ازيل عنه ، لان أهلها أصبحوا موحدين . ثم دخل المدينة وجعل يتصفح وجوه الناس ، فلم يعرف منهم احدا ، وانتهى الى سوق الطعام ودفع الى بائع ما معه من الورق فرده عليه ، وقال : هذا عتيق لايروج اليوم ، فناوله كل مامعه ، وقال له : خذ حاجتك منه . ورأى صاحب الطعام يهمس الى جاره ويقول: احسب ان هذا قد وجد كنزا ، فلما رآهما يتهامسان ظن أنهما عرفاه ، فترك الدراهم وولى هاربا ، فصاح به الناس انخذوه، فانه وجد كنزا . فأخذوه وانطلقوا به الى الملك ، فأخبروه — وكان موحدا — بأمره وبالنقود التى معه . فتركه الملك حتى سكن روعه ثم قال له : ما شأنك يافتى ؟ اخبرنى بأمرك ولا بأس عليك ، فقال الفتى : ما اسم هذه المدينة قالوا : افسوس، قال :وما فعل ديقيانوس ؟ قالوا : أهلكه اللهمنذثلثمائة سنة . فأخبرهم بقصته وقصة اصحابه ، فقال الملك : أرى فى عقل هذا الرجل نقصانا . قال الراعى : ان اردت تحقيق مااقول انطلق معى الى اصحابى لتراهم فى الكهف . فركب الملك وعامة أهل المدينة فقال الراعى : ان أصحابى اذا سمعوا جلبة الناس

خافوا فائذن لى ايها الملك حتى أتقدم وابشرهم ، فأذن له ، فتقدم حتى انتهى الى باب الكهف ، فدخل على أصحابه واخبرهم بهلاك ديقيانوس ، وظهور التوحيد ، وأن القوم فى ولاية ملك صالح ، وهاهو ذا قد اقبل اليكم ومعه عامة اهل المدينة ، فلما سمعوا ذلك كبروا وحمدوا الله . ووافاهم الملك وعامة اهل المدينة ، وسلم عليهم الملك وسأل عن رجل منهم ، وعانقهم وسلم عليهم الناس . فبادروا بذكر قصتهم حتى اذا فرغوا منها خروا ميتين

سحابة تهزم جيشا

دكر اسماعيل بن احمد السامانى صاحب بخارى فى خراسان ، وكان ملكا عادلا غازيا ، انه غزا الترك فى بلادهم (التركستان) ذات مرة ، وكان فى عشرين الف فارس ، فخرج عليه منهم ستون الفا فى السلاح التام ، فاشتبك معهم اياما ، وبينما كان يوما يقاتلهم جاءه بعض مماليكه الاتراك وقالوا له : ان لنا فى معسكر الكفار قرابات ، وقد انذرونا بموافاة شخص منهم ، يحرك حجارة خاصة فتمطر السماء المطر والثلج والبرد ، وقد عزم أن يمطر علينا غدا ثلجا وبردا عظيما لايصيب أحـــدا الا قتله ! فانتهرهم وقال لهم : ان هذا لايستطيعه احد من البشر . ولما كان الغد وارتفع النهار نشأت سحابة عظيمة من وراء جبل كان مستندا اليه بعسكره ، ولم تزل تنتشر حتى اظلت جيشه ، قال اسماعيل السامانى : فهالنى سوادها ، وما رايت فيها من الهول ، وماسمعت من الاصوات المزعجة ، فخشيت الفتنة ، فنزلت عن دابتى وصليت ركعتين والعسكر يموج بعضهم فى بعض ، ثم دعوت الله تعالى معفرا وجهى بالتراب ، وقلت : اللهم اغثنا ، فان عبادك يضعفون عن محنتك ، وانى أعلم ان

القدرة وأن النفع والضرر لايملكهما الا أنت • اللهم ان هـــذه السحابة ان امطرت علينا كانت فتنة للمؤمنين ، وســـطوة للمشركين ، فاصرف عنـــا شرها بحولك وقوتك ياذا الحول والقوة . قال : واكثرت من الدعاء رغبة ورهبة الى الله تعالى ووجهى على التراب . فبينـــا انا كذلك اذ بادر الى الرجال يبشروننى بالسلامة واخذوا بعضدى ينهضوننى وكنت ثقيلا من عدة الحديد . فرفعت راسى ، فاذا السحابة قد زالت عن عسكرى ، وقصدت عسكر الترك وامطرت بردا عظيما ، فاذا هم يموجون وتنفر دوابهم . وما وقعت بردة على احد الا اوهنته او قتلته ، فقال اصحابى : نحمل عليهم ، فقلت : لا ، فان عذاب الله ادهى وامر ، فمات منهم خلق كثير ، ولم يفلت الا القليل . فلما كان من الغد دخلنا معسكرهم فغنمنا مافيه من الغنائم الكثيرة ، وحمدنا الله تعالى على السلامة

مدينة النحاس

لما بلغ الوليد بن عبد الملك خبرمدينة النحاس ، وخبر مافيها من الكنوز ، وانه الى جانبها بحيرة فيها جواهر واموال كثيرة عظيمة ، كتب الى موسى بن نصير عامله على المغرب والاندلس ، يأمره بالمسير اليها والحرص على دخولها وان يعرفه حالها . ودفع الكتاب الى طالب بن‌مدرك فحمله الى موسى بن‌نصير وهو بالقيروان ، فلما قرأه تجهز وسار فى ألف فارس نحوها . فلما رجع كتب الى الوليد بن عبد الملك :

« بسم الله الرحمن الرحيم أصلح الله الامير صلاحا يبلغ به خير الدنيا والآخرة ، اخبرك يا أمير المؤمنين انى تجهزت جهازا يكفينى اربعــة اشهر ، وسرت فى مغاور الاندلس ومعى الف رجل ، حتى أوغلت فى طرق قد انطمست ومناهل قد اندرست وانمحت فيها الآثار وانقطعت عنها الاخبار . فسرت ثلاثة واربعين يوما أحاول رؤية مدينةلم ير الراءون مثلها ، ولا سمع السامعون بنظيرها ، فلاح لنا بريق مشارفها من مسيرة ثلاثة ايام ، فأفزعنا منظرها الهائل من بعيد وامتلأت قلوبنا رعبا من عظمها وبعد أقطارها . ولما قربنا منها اذا امرها عجيب فنزلنا عند ركنها الشرقى . ثم وجهت رجــلا من اصحابى فى مائة فارس ، وامرته أن يدور حول سورها ليعرف بابها ، فغاب عنى يومين ، ثم وافانا فى‌اليوم الثالث ، فأخبرنا انه ماوجد لها بابا ولا رأى اليها مسلكا . فجمعت امتعة اصحابى الى جانب

سورها وجعلت بعضها على بعض لانظر من يصعد اليها فيأتينى بخبر ما فيها ، فلم تبلغ امتعتنا ربع السور لارتفاعه . فأمرت عنـد ذلك باتخاذ سلالم وشـد بعضـها الى بعض بالحبال ، ونصبتها على الحائط ، وجعلت لمن يصعد اليها ويأتينى بخبر ما فيها عشرة آلاف درهم . فانتدب رجل من اصحابى نفسه لذلك ، واخذ يتسنم السلالم ويقرأ ويتعوذ . فلما صار على سورها ، وأشرف على ما فيها قهقه ضاحكا ، وسقط فيها ، فناديناه ان اخبرنا بما فيها وبما رأيته فلم يجبنا . فجعلت لمن يصعد بعده ويأتينى بخبرها وخبر الرجـل الف دينار ، فانتدب رجل من حمير نفسه لذلك واخذ الدنانير ، ثم صعد ، فلما استوى على السور قهقه ضاحكا ، ثم سقط فيها . وناديناه أن اخبرنا بما رايت فلم يجبنا ، فصعد ثالث وكان حاله مثل حال صاحبيه ، فامتنع اصحابى بعد ذلك عن الصعود . فلما أيست منها رحلت نحو البحيرة التى بجانبها وسرت مع سور المدينة ، فانتهيت الى مكان من السور فيه كتابة بالحميرية ، ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند غروب الشمس ، فاذا هى مقدار ميل فى ميل كثيرة الامواج ، واذا رجل قائم فوق الماء ، فناديناه من أنت ؟ فقـال : أنا رجل من الجن حبسنى هـنا سليمان بن داود ، قلنا فما بالك قائما فوق الماء ؟ قال : سمعت صوتا فظننته صوت رجل يأتى هذه البحيرة مرة فى كل عام فيصلى على شاطئها اياما ويهلل لله ويمجده ، قلنا من تظنه ؟ قال : أظنه الخضر عليه السلام . وغاب عنا ، ولم ندر أين توجه . وكان معى عدة من الغواصين فأمرتهم أن يغوصوا فى الماء فغاصوا وراوا قمقما من نحاس مختوما برصاص ، جلبوه معهم ، فأمرت به ففتح ، وخرج منه مارد من نحاس على فرس

وبيده رمح من نحاس ، فطار فى الهواء ، وهو يقول : يانبى الله لا اعود . ثم غاصوا ثانية وثالثة فأخرجوا قماقم مثل هذا القمقم . ولما يئست وضج الجيش خوفا من انقطاع الزاد اخذت الطريق التى سلكتها والحمد لله الذى حفظ لامير المؤمنين أموره وسلم له جنوده والسلام »

وهى خرافة لا شك فيها وقد استغلها القصاص فى كتاب الف ليلة وليلة ، واضافوا اليها من بنات افكارهم مادة خيالية وفيرة ، اخرجوها بها اخراجا قصصيا بديعا فى قصة بنفس العنوان هى قصة مدينة النحاس ، وفيها يظهر الخضر ، وتظهر القماقم والجن والسور العجيب

من كتاب عجائب المخلوقات

رجل من يأجوج ومأجوج

ذكر احمد بن فضلان رسول الخليفة المقتدر الى صاحب البلغار ، انه لما وصل الى هذه البلاد سمع ان بها رجلا عظيم الخلقة جدا ، فلما اجتمع بالملك سأله عنه ، فقال له : نعم ولكنه مات ولم يكن من أهل بلادنا ، ثم قال من خبرة :انقوما خرجوا الى نهر اتل (الفولجا) وكان قد مد وفاض فوافونى ذات يوم وقالوا : أيها الملك خوفنا على الماء رجل فى خلقة عظيمة ، ان كان من امة تقرب منا فلا مقام لنا فى هذه الديار . قال الملك : فركبت معهم الى النهر ، فاذا برجل طوله اثنا عشر ذراعا وراسه كأكبر ما يكون من القدور وانفه اطول من شبر ، وله عينان عظيمتان ، وكل اصبع من اصابعه طوله شبر . فاقبلنا تكلمه وهو لا يزيد على النظر الينا ، فحملته الى مكانى . وكتبت الى اهل ويسوا وبيننا وبينهم مسيرة ثلاثة اشهر ، اسألهم عنه فعرفونى ان هذا الرجل من يأجوج ومأجوج ، وهم

منهم على ثلاثة اشهر ، وهم قوم عراة كالبهائم يخـرج الله تعالى لهم فى كل يوم سمكة من البحر ، فيأتى الواحد منهم بمدية فيجتز منها بقدر ما يكفيه ، ويكفى عيـاله ، حتى اذا استكفوا انقلبت السمكة فى البحر .. ثم قال الملك : اقام هذا الرجل عنـدى مدة ثم اصـابته علة فمات منها . قال ابن فضلان : فخرجت اليه ، فرايت عظامه هائلة جدا

شجرة العنب

ذكروا ان «جمشيد» احد ملوك الفرس القدماء ، كان فى بعض متصيداته ، فتفرق منه اصحابه فى طلب الصيد ، فرأى نفر منهم فى بعض الجبال شجرة عنب ، عليها عناقيد ، فتعجبوا منها ، وقطعوها وحملوها الى الملك ، فتعجب منها ، وقال : انا سمعنا ان الجبال تنبت فيها السموم ، فلعلها من سمومها . ثم امر بحفظها حتى يجربها فى بعض من يستحقون القتـل ، فتركوها فى شىء من رحالهم ، فتكسرت حباتها ، فعصروها ، وجعلوا ماءها فى وعاء ، حتى عاد الملك الى مستقره ، فأمر باحضار رجل يجب عليه القتل ، واحضر العصير وقد احتدت مرارته ، فسقوا الرجل منه ، فشرب ما أعطوه بمشقة شديدة ، فأيقنوا انه سم ، وزادوا فى سقيه من العصير ، فقام الرجل يرقص ويصفق بيديه ، فقالوا : انها فرحة الوداع ، وزادوا فى سقيه ، فنام نوما ثقيلا ، لم يشكوا فى أنه سيجود بنفسه فى اثنائه ، وسرعان ما انتبه وقال لهم اسقونى ، فسقوه مرارا . وأمنوا فشرب غيره من العصير وذكر ما فيه من اللذة والطرب ، وشرب جمشيد ، وامر بغرس تلك الشـجرة فى بلاد الفرس لتكثر ثمرتها فصدعوا بامره

الليمون وسم الافاعى

ذكر ابو عبد الله الضبى ، وكان من اصحاب الضياع بالبصرة، أنه كان بجنب داره بستان له كثير الاشجار ، فظهرت فيه افعى كأنها جراب طولا وسعة وانتفاخا ، وكثرت جناياتها . قال : فطلبت حاويا يصيدها ، وبذلت على ذلك مالا ، فجاءنى حاو ، وبخر بدخنة فخرجت عليه ، فحين رآها هاله أمرها ، فنهشته ، فتلف فى الحال . فانتشر خبرها وامتنع الحواءون عن صيدها . وتركت البستان والدار حتى جاءنى رجل يوما وقال : بلغنى امر الحية التى عندكم ، فجئت لتدلنى عليها ، فقلت له : ما احب ان اعرضك لها ، فقد قتلت حواء عن قريب . فقال : كان ذلك الحواء اخى ، وانا جئت لآخذ بثأره . فأريته البستان ، فأخرج دهنا وطلى به جميع بدنه ، وجلست أنا فوق السطح انظر اليه ، فأخرج دخنة بخر بها ، فما كان اسرع ظهور الافعى ، وحين قربت منه هربت فتبعها الحواء فلحقها وقبض عليها ، فالتفتت وعضت يده وافلتت . فحملنا الرجل فمات فى ليلته . وترك الناس الضيعة وانتشر حديث الافعى ، ومضت على ذلك مدة من الزمان ، فاذا رجل جاءنى فى بعض الايام وسألنى ماسأله الحواء قبله ، وكان يشبهه فى صورته ، فمنعته ، فقال : ان الرجلين الذين قتلتهما كانا أخوى ، ولابد من الاخذبثأرهما أو اللحوق بهما ، فعينت له البستان ، وصعدت السطح ، فأخرج الدهن وطلا به بدنه مرة بعد مرة حتى صار الدهن يتقاطر من جسده ، ثم بخر ، فخرجت الافعى ، فطلبها ، فأخذت تحاوره ، وما زال بها حتى تمكنت يده من قفاها ، فانثنت عليه وعضت ابهامه ، فبادر وخزم فاها وجعلها فى سلة واخرج سكينا كانت معه وقطع

ابهام نفسه ، واغلى زيتا وكواها به . فحملناه الى الضيعة فرأى ليمونة بيد صبى يلعب بها ، فقال : اهذا موجود عندكم ؟ قلت : نعم ، فقال : اغثنى بكل ما تقدر عليه ، فان هذا فى بلدنا يقوم مقام الترياق فقلت : وما هى بلدكم ؟ قال : عمان . فأتيته بشىء كثير من الليمون فاخذ ياكله ويسرع فى اكله ، وعصر ماءه ، وطلى به موضع اللدغة . واصبح من غد سالما وقال : ماخلصنى الله تعالى الا بالليمون ، واظن ان أخوى لو اتفق لهما ان شاهدا هذا الليمون ماتلفا . ثم استخرج الافعى وقطع راسها وذنبها ، وغلاها فى قدر واستخرج دهنها وجعله فى قوارير وانصرف

كيد ابليس

سمع عابد أن قوما يعبدون شجرة من دون الله ، فأخذ فاسا وذهب ليقطع الشجرة ، فلقيه ابليس فى صورة شيخ كبير ، فقال له : ماذا تريد ؟ قال : اريد قطع هذه الشجرة حتى تبطل عبادتها ، فقال له ابليس : لقد تركت عبادتك وتفرغت لهذا العمل الذى لن يجديك شيئا ، فانك ان قطعتها عبد القوم غيرها ، فقال العابد : لابد من قطعها ، فقال له ابليس : انا امنعك من قطعها وتصارعا فصرعه العابد وقعد على صدره ، فتوسل اليه ابليس ان يطلقه حتى يكلمه فأطلقه ، فقال له : ان الله تعالى أسقط عنك هذا الامر ، فان له فى الارض عبدا كثيرين ، ولو شاء لامرهم بقطعها فدعها وشأنها ، فأجاب العابد : لابد ان اقطعها ، ونابذه القتال فغلبه العابد مرة اخرى وصرعه . فقال له ابليس : هل لك ان تجعل بينى وبينك امرا هو خير لك من هذا ؟ فقال العابد : ما هو ؟ قال ابليس : انت رجل فقير ، ولعلك تحب ان تتفضل على اخوانك وجيرانك وتستغنى عن الناس ؟ قال العابد : نعم ، فقال له : ارجع عن ذلك ولك على ان اجعل تحت راسك كل ليلة دينارين تأخذهما وتنفقهما على عيالك وتتصدق منهما ، فيكون ذلك انفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة واستئصالها . ففكر العابد ، وقال له : صدقت ، وعاهده على ذلك واعطاه الايمان والمواثيق ، وعاد الى متعبده . فلما اصبح

رأى دينارين تحت رأسه ، فأخذهما ، وصنع به ذلك ابليس ايضا فى اليوم الثانى ، فلما كان اليوم الثالث وما بعده لم ير شيئا ، فغضب واخذ الفأس وذهب الى الشجرة ، فاستقبله ابليس فى صورته السالفة ، وقال له الى اين ؟ قال : اريد ان اقطع الشجرة ، فقال له : ليس لك الى ذلك سبيل . فأمسك به العابد ليصرعه كما صرعه قبل ذلك فقال له ابليس: هيهات ، واخذ العابد بيده وضرب به الارض كأنه عصفور ، وقال له : ان لم تنته عن هذا الامر ذبحتك ، فقال له العابد : خل عنى ، واخبرنى كيف غلبتنى وصرت الى ما انا عليه ، فقال له ابليس : لما غضبت لله تعالى سخرنى لك ، والآن غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك

عفريت يختطف فتاة

قال أعرابى من بنى الحارث : خرجت عاشر عشرة نريد الشام ، فتأخرت عن أصحابى حتى اختلط الظلام ، فرفعت لى نار ، فقصدتها ، فاذا خيمةامامها جارية جميلة ، فقلت لها : ما تصنعين فى هذا المكان وحدك ؟ فقالت : انا جارية من بنى فزارة اختطفنى عفريت ، وهو يغيب عنى بالليل ويأتينى بالنهار ، فقلت لها : امضى معى ، فقالت : اخاف على نفسى الهلاك . فألححت عليها واركبتها ناقتى ، وسرنا حتى طلع القمر ، والتفت فاذا ظليم (ذكر النعام) عظيم عليه راكب يسوقه ، فقالت : هاهوذا قد أتانا فماذا نصنع ؟ فأنخت راحتى وأنزلتها وخططت حولها آيات من القرآن ، وتعوذت بالله ، فتقدم ولم يلبث ان برز الى فى صورة رجل اسود ، فتصارعنا فلم يغلب احد منا صاحبه ، فقال لى : هل لك فى خصلة من ثلاث خصال ؟ قلت : ما هى ؟ قال : تجز ناصيتى وتترك

الجارية ، قلت : ناصيتك اهون شيء على ، قال : فتأخذ ما تشاء من الابل احضرها اليك قلت : لا أبيع دينى بعرض من الدنيا ، قال : فاخدمك ايام حياتك ، قلت : مالى الى خدمتك حاجة . فسرت بها الى اهلها فزوجونيها ولى منها اولاد

عراف

كان ببغداد عراف يتكهن بالغيب ، ويخبر بأشياء تقع فى الغد ، فما يخطىء فى شيء منها ، فجاءه رجل وقال : ان لى مسألة ان أصبت فيها فلك كذا وكذا من الدراهم ، فقال : سلها ، فقال : لا اطمئن الى جوابك عنها حتى تخبرنى بها أولا ، فمكث العراف يسيرا ثم قال : تريد أن تسألنى عن محبوس ، فقال الرجل : أصبت ، فأخبرنى عن حبسه أيدوم عليه أو يتخلص منه عن قريب ؟ فقال العراف : الشرط املك ، واذا وفيت بما وعدت اخبرتك بحاله ، فمضى الرجل الى بيته واخذ ما وعده به ، وأتاه واعطاه اياه ، وقال : اخبرنى عن حبسه ، فقال له العراف : سيخرج صاحبك قريبا ويخلع عليه فلم تمض ايام حتى كان الامر كما قال العراف ، فأتاه الرجل وقال : اخبرنى عن كيفية معرفتك امر هذا المحبوس، فقال له : اعلم انى اذا سئلت عن أمر انظر أمامى وعن يمينى ويسارى فان رايت شيئا يكون بينه وبين المسئول عنه مناسبة أو مشابهة ، اجبت على وفق تلك المناسبة أو المشابهة ، وانت لما سألتنى اولا نظرت فرايت قربة فيها ماء مع بعض السقائين ، فقلت : السؤال عن محبوس ، ثم لما سألتنى ثانيا رايت تلك القربة بعينها قد افرغت ، والقاها السقاء على منكبه فقلت له سيخرج ويخلع عليه

خلق الانسان

قال بعض الحكماء : ان الله تعالى خلق الانسان على مثال مدينة بنيت من اشياء مختلفة ، كالحجارة والحصى والرماد والخشب والحديد وما شاكل ذلك ، فأحكم بناءها وحصن سورها وخط شوارعها وقسم محالها وزين منازلها وملأ خزائنهـا واجرى انهارها واقام سواقيها وضياعها واقعـد تجارها ودبر ملكها . فخلق تسعة جواهر مختلفة اشكالها هى ملاك بنيانها ، ثم الفها وركب بعضها فوق بعض عشر طبقات متصلات ، ثم اسندها بمائتين وثمانية واربعين عمودا ، ثم انه سمرها ومد حبالها وشد أوصالها بسبعمائة وعشرين رباطا ممدودات ملتفات عليها ، ثم قدر ثبوتها وقسم حوانيتها . واودعها احدى عشرة خزانة مملوءة جواهر مختلفة الوانها ، وخط شـوارعها وانفذ طرقاتها وفتح أبوابها فجعلها ثلثمائة وثلاثين مسلكا لسكانها ، واستخرج منها عيونا وشق فيهـا انهارا جعلها ثلثمائة وستين جدولا مختلفات فى جريانهـا ، وفتح على سورها اثنى عشر بابا من درجات مسالك لجيرانها ، وقد احكم بناء هذه المدينة على ايدى ثمانية صناع متعاونين هم خدامها ، ووكل خمسة حراس لحفظ اركانها ، ثم رفع هذه المدينة فى الهواء على عمودين وحركها الى ست جهـات بجناحين ، ثم اسكن فيها ثلاث قبائل من الجن والانس والملائكة هى سكانها ، ثم جعل عليهم رئيسا واحدا وامره بحفظهـا واوصاه بسياستها

تفسير ذلك : اما الجواهر التسعة فهى العظام والمخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد والظفر والشعر . واما الطبقات العشر فهى الراس والرقبة والصدر والبطن والجوف والحقوان

(الحصران) والوركان والفخذان والساقان والقـــدمان • وأما الاعمدة فهى العظام وأما الرباطات فهى الاعصاب . واما الاحدى عشرة خزانة فهى الدماغ والنخــاع والرئة والقلب والكبــد والطحال والمرارة والمعدة والامعاء والكليتان والانثيان • وأما الشوارع والطرقات فهى العروق الضوارب ، وأما الانهــار فالاوردة • وأما الابواب الاثنا عشر فهى العينـــان والاذنان والمنخران والثديان والسبيلان والفم والسرة ، وأما الصناع الثمانية فهى القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة . واما الحراس فهم الحــواس الخمس : الســـمع والبصر والشـــم والذوق واللمس • وأما العمودان فالرجلان ، وأما الجناحان فاليدان ، والجهات الست معروفة . واما القبائل الثلاث فالنفوس الثلاث : الشـــهوانية والحيوانية والروحية ، وأما الرئيس الواحد فالعقل

من كتاب خريدة العجائب

المدينة المسحورة

حكى أن رجلا من صعيد مصر اتاه رجل آخر واعلمه انه يعـرف مدينة فى ارض الواحات ، بها كنوز عظيمة فتزودا رخرجا ، فسافرا فى الرمل الى الواحات ثلاثة ايام ، ثم اشرفا على مدينة عظيمة ، بها انهار واشجار ، وثمار وأطيار ، ودور وقصور ، وبها نهر محيط ، وعلى ضفة النهر شجرة عظيمة ، فأخذ رجل منهما من ورق الشجرة ، ولف ما أخذه على رجليه وساقيه بخيوط كانت معه ، وفعل برفيقه مثل مافعل بنفسه ، وخاضا النهر ، فلم يتعد الماء الورق ولم يجاوزه ، فصعدا الى المدينة ، فوجدا فيها من تلال الذهب مالا يوصف ، فأخـذا منه ما أطاقا حمله ، ورجعا سالمين . ودخل أحد الرجلين على بعض ولاة الصعيد ، وعرفه بالقصة ، واراه بعض ما جلبه من الذهب ، فوجه معه جماعة وزودهم بزاد كثير يكفيهم مـدة طويلة ، فجعلوا يطوفون فى تلك الصحارى ، ولا يجدون للمدينة اثراً ، وطال عليهم الامر فسئموا ورجعوا خائبين

براعة اهل الصين فى التصوير

كان من عادات ملوك الصين أن الملك منهم اذا سمع بنقاش أو مصور فى أقطار بلاده أرسل اليه بمالورغبه فى الشخوص اليه ، فاذا حضر عنده أجرى عليه المال والصلات . وأمره أن يصنع تمثالا او نقشا وتصويرا مما يتقنه . ويبذل الصـانع فى ذلك غاية جهده ومقدرته، ويحضر ما صنعوصور الىالملك ،

فيعلقه بباب قصره ويتركه سنة كاملة ، والناس يهرعون اليه فى تلك المدة للفرجة عليه ونقده وبيان مافيه من خطأ أو نقص ، فاذا مضت السنة ولم يقف احد من الناس على عيب به او خلل فى صنعه أحضر الملك الصـــانع وخلع عليه وجعله من خواص الصناع وألحقه بدار الصناعة ، وأجرى عليه الاموال الجزيلة . وحدث ان ملكا من ملوك الصين سمع بنقاش ماهر فى النقش والتصوير ببلاد الروم ، فارسل اليه رسولا ، طلب منه أن يعمل شيئا مما يقدر عليه ، ليعلقه الملك بباب القصر على العادة . فنقش له فى لوحة صورة سنبلة حنطة خضراء قائمة وعليها عصفور ، واتقن نقشها وتصويرها ، حتى اذا نظـرها شخص لم يشك فى انها عصفور حقيقى على سنبلة خضراء ، لولا ماينقصها من النطق والحركة ، فأعجبت الصورة الملك وامر بتعليقها ، وباجراء الرزق على صانعها مدة تعليقها ، فمضت سنة الا بعض ايام ، ولم يتقدم أحد لاظهار عيب فيها ولاخلل ، وبينما السنة تشرف على النهاية تقدم شيخ مسن ، ونظر الى الصورة ، وقال : هذه الصورة مختلة ، وفيها عيب ، فأحضر الى الملك ، وجاءوا بالصانع والصورة ، وقال له الملك : ما الذى تراه فى الصورة من الخلل والعيب ، وضح ذلك بدليل ظاهر والا حل بك الندم ، واستحققت العقوبة . فقال الشيخ : مثال أى شىء هذه الصورة ؟ فقال الملك : مثال سنبلة من حنطـة قائمة على ساقها وفوقها عصفور ، فقال الشيخ : أما العصفور فليس به خلل ، انما الخلل فى وضع السنبلة ، فقال الملك : وما الخلل ؟ قال الشيخ : الخلل فى استقامة السنبلة ، لان المعروف ان العصفور اذا سقط على سنبلة ووقف عليهـــا أمالها لثقله وضعف ساقها ، ولو كانت السنبلة مائلة ماعيبت الصورة . فاقتنعوا بكلامه وكافأه الملك على فطنته وحسن نقده

النيل ينبع من الجنة

حكى ان رجلا دخل مصر وراى عجائبها ، فآلى على نفسه الا يفارق ساحل النيل الى منتهاه الا ان يموت ، فسار ثلاثين سنة فى العامر ، وثلاثين سنة أخرى فى الخراب ، حتى انتهى الى بحر أخضر ، فراى النيل يشق ذلك البحر ، وركب دابة هناك سخرها الله له ، فمشت به زمانا طويلا ، حتى وقع فى أرض من حديد ، جبالها وأشجارها حديد ، ثم وقع فى أرض من نحاس ، جبالها واشجارها نحاس ، ثم وقع فى ارض من فضة ، جبالها وأشجارها فضة ، ثم وقع فى أرض من ذهب ، جبالها وأشجارها ذهب . ومازال يسير حتى انتهى الى سور مرتفع من ذهب ، وراءه قبة عالية من ذهب ايضا ، ولها اربعة ابواب ، وراى الماء ينحدر من ذلك السور ويستقر فى القبة ثم يخرج من الابواب الاربعة ،فتكون انهار النيل والفرات وسيحون وجيحون . وبينما الرجل يتأمل فى السور اتاه ملك حسن الهيئة ، فقال له : هل تدرى أى شىء تنظر ؟ فقال له : انى لا أدرى ، فقال له الملك : ان التى تنظر اليها هى الجنة ، وسيأتيك رزق منها فلا تؤثر عليه شيئا من ارزاق الدنيا ، ولم يلبث أن سقط عليه من حيث لا يعلم عنقود من عنب ، فيه ثلاثة الوان مجموعة ، لون كاللؤلؤ ولون كالزبرجد الاخضر ولون كالياقوت الاحمر . فأخذ الرجل العنقود ، وعزم على الرجوع ، فرجع فى نفس الطريق الذى سلكه ، فراى شيخا تحت شجرة من تفاح ، فمكث غير

بعيد منه ، فحدثه هذا الشيخ وآنسه ، وقال له : الا تأكل من هذا التفاح ؟ فقال له : كلا انى معى طعام من الجنة ، وانا مستغن به عن تفاحك وكل طعام فى الدنيا ، فقال الشيخ له : صدقت ، وهذا التفاح ايضا من الجنة ، ولم يزل به حتى طعم منـــه . وبمجرد ان بدأ الرجل فى أكل التفاح تراءى له الملك وقال له : اتعرف هذا الشيخ ؟ قال : لا ، قال : هو والله ابليس الذى اخرج اباك آدم من الجنة ، ولو قنعت بالعنقود الذى معك لاكل منه أهل الدنيا جميعا ولم ينفد . فبكى الرجل وندم على ما كان من فعله ، وسار متجها مع النيل الى مصر حتى دخلها ، فحدث الناس بما رأى فى طريقه ومنابع النيل من العجائب

من رحلة ابن بطوطة

التحرز من الحرام

مر شيخ صالح يسمى «ادهم» ببساتين مدينة بخارى ، وتوضأ من بعض الانهار التى تتخللها ، فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال : هذه لا خطر لها ، فأكلها ، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس ، فعزم على أن يستحل التفاحة من صاحب البستان ، فقرع باب البستان ، فخرجت اليه جارية ، فقال لها : ادعى لى صاحب المنزل ، فقالت : انه لامرأة فقال : استأذنى لى عليها ، ففعلت . فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : ان هـــذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان ، والسلطان يومئذ ببلخ ، وهى على مسيرة عشرة ايام من بخارى ، واحلته المــرأة من نصفها

وذهب الشيخ الى بلخ ، فاعترض السلطان فى موكبه ، فأخبره الخبر واستحله ، فأمره أن يعود اليه من الغد . وكان للسلطان بنت بارعة الجمال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت ، وحببت

اليها العبادة وحب الصالحين وهى تحب ان تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا . فلما عاد السلطان الى منزله اخبر بنته بخبر الشيخ ادهم ، وقال فى حديثه لها : ما رايت اورع من هـذا الرجل ، يأتى من بخارى الى بلخ لاجل نصف تفاحة . فرغبت فى تزوجه . فلما اتاه من الغد قال له : لا احلك الا ان تتزوج بنتى ، فانقاد لذلك بعد اباء وتمنـع ، فتزوج منهـا ، فولدت له ابراهيم ، وشب على غرار أبيه من الزهاد الصالحين المتعبدين الورعين

حلواء صوفية

ومن قونية بالاناضول الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين الرومى ، وتنتمى اليه طائفة هناك تعرف بالجلالية . ويذكر انه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته فى قونية . فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى راسه طبق منها ، وهى مقطعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس (مليم) فلما اتى مجلس التـدريس قال الشـيخ : هات طبقك ، فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها الشيخ ، فأخـذها بيده وأكلها

وخرج الحلوانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس ، وأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم اياه ، فخرجوا فى طلبه ، فلم يعرفوا له مستقرا ، ثم انه عاد اليهم بعد اعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسى المـزدوج (ذى القافية الواحدة فى الشطرين) الذى لا يفهم . فـكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتابا سموه المثنوى أى المزدوج . واهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعلمـون كلامه ويقرءونه بزواياهم فى ليـالى الجمعات

نساء الهندوس

وقال ابن بطوطة : « اتفق أثناء مقامى بالهند انى كنت وقتا بمدينة اكثر سكانها من الكفار واميرها مسلم ، وعلى مقربة منها جماعة من الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوما ، وخرج الامير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، ووقع بينهم وبين قطاع الطريق قتال شديد مات فيه من رعية الامير سبعة من الكفار وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ، فاتفقن على احراق انفسهن ، واحراق المرأة لنفسها بعد موت زوجها عندهم امر مندوب اليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ، ونسبوا الى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على احراق نفسها

ولما تعاهدت النسوة الثلاث على احراق انفسهن ! فمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب واكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، وتزورهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع اتوا لكل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة ، وفى يمينها جوزة نارجيل (جوزة هند) تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الطبول والابواق ، وكل كافر تمر به يقول لها : ابلغى السلام أبى أو أمى أو أخى او صاحبى ، وهى تجيب : نعم ، وتضحك لهم

وسرت انا واصحابى معهن نحو ثلاثة اميال ، وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار ، متكاثف الظلال ، وبين اشجاره اربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين

القباب صهريج ماء ، تجمعت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار . فلما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه ، وجردن ماعليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ، واتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على راسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت ، فزاد فى اشتعالها ، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الطبول والابواق وقوف ينتظرون مجىء المراة التى ستتقدم الى النار ، وقد حجبوها عنها بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر اليها

فرايت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم وهى تضحك : أبالنار تخوفوننى ؟ انا اعلم انها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على راسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الابواق والطبول ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون الخشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج . وكذلك يفعل أهل الهند فى حرق انفسهم ، وفى الغرق اذ يغرقون انفسهم فى نهر الكنج ، وهو الذى اليه يحجون ، وفيه يرمون برماد هؤلاء المحرقين . وهم يقولون انه من الجنة ، واذا اتى احدهم ليغرق نفسه يقول للحاضرين الذين يشاهدونه : لا تظنوا انى اغرق نفسى لاجل شىء من أمور الدنيا او لقلة مال انما قصدى التقرب الى الهى، ثم يغرق نفسه، فاذا مات اخرجوه واحرقوه ورموا برماده فى النهر المذكور »

السحرة الجوكية

فى الهند سحرة يسمون الجوكية ، وهم يتصورون فى صور الحيوانات المفترسة ، وتظهر منهم عجائب ، منها ان أحدهم يقيم اشهرا لايأكل ولايشرب ، والظاهر من حالهم انهم عودوا انفسهم الرياضة على ذلك. ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته ، وتقول العامة هناك : انه اذا قتل انسان بالنظر وشق عن صدره وجد بدون قلب ، والمرأة التى تفعل ذلك تسمى كفتار

ويحكى ابن بطوطة انه فى أثناء توليه القضاء فى الهند اتوه بامرأة من هؤلاء السحرة ، وقالوا انها كفتار وقد اكلت قلب صبى كان الى جانبها ، وأتوا بالصبى ميتا. فأمرهم ان يذهبوا بها الى نائب السلطان ، فأمر باختبارها ، وذلك بأن ملئوا اربع جرات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها مع الجرار فى النهر ، فلم تغرق ، فعلم انها كفتار ، ولو لم تطف على الماء ما كانت بكفتار ، فأمر باحراقها بالنار ، وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء ، فأخذوا رمادها وزعموا ان من تبخر به أمن فى تلك السنة من سحر أمثالها

قال ابن بطوطة : « وبعث السلطان الى يوما وأنا عنده بالحضرة ، فدخلت عليه وهو فى خلوة ، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية ، وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون

رءوسهم لانهم ينتفونها بالرماد ، فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فقال لهما : ان هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه مالم يره ، فقالا : نعم ، فتربع أحدهما ، ثم ارتفع عن الارض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا ، فعجبت منـــه ، وادركنى الخوف فسقطت الى الارض ، فأمر السلطان ان اسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعـلا وشكارة (زكيبة صغيرة) كانت معه ، فضرب بهـــا الارض كالمغتاظ ، فصعدت الى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا ، حتى جلس معنا . فقال لى السلطان : ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لامرتهم ان يأتوا بأعظم مما رايت . فانصرفت عنه ، واصابنى الخفقان ومرضت ، حتى أمر لى بدواء اذهب ذلك عنى »

الشيخ جلال الدين

قال ابن بطوطة : وكان قصدى بالمسير الى جبال بنجالة ، لقاء ولى من الاولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التبريزى ، وهذا الشيخ له الكرامات الشهيرة ، وقد ظل اربعين سنة يسرد الصوم ويواصله ولا يفطر الا بعد مواصلة عشرة أيام ، وكانت له بقرة يفطر بعد العشرة على حليبها ، وكان يقوم الليل كله . ويستطرد ابن بطوطة فيقول :

« ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقينى أربعة من اصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه ، فأخبرونى أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح المغرب ، فاستقبلوه ، وانهم اتوا لذلك بأمر الشيخ ، ولم يكن عنده علم بشىء من امرى ، وانما أطلعه الله عليه . وسرت معهم الى الشـــيخ

فوصلت الى زاويته ، واهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون له بالهدايا والتحف ، فيأكل منهـا الفقراء والواردون . ولما دخلت عليه قام الى وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فاخبرته . ورأيت عليه فرجية (جبة كبيرة) فأعجبتني ، وقلت في نفسي : ليت الشيخ يعطينيها . فلمـا دخلت عليه للوداع خلعها والبسنيها مع طاقية كانت على راسه، ولبس مرقعة (ثوب الصوفية البالى) . فأخبرني الفقراء انه ليس من عادته ان يلبس تلك الفرجية ، وانما لبسها عند قدومي وانه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربي ، ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها أخانا برهان الدين الصاغرجي ، وهي له وبرسمه كانت ، ولما قال لي الفقراء ذلك قلت لهم : قـد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه

واتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا ، وكانت الفرجية على ، فبينا أنا في بعض الطرق اذ بالوزير في موكب عظيم ، فوقع بصره على ، فاستدعاني وأخذ بيدي ، وسألني عن مقدمي ، ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه . فأردت الانفصال فمنعني ، وادخلني على السلطان ، فسألني عن سلاطين الاسلام ، فأجبته . ونظر الى الفرجية فاستحسنها ، فقال لي الوزير : اخلعها ، فـلم أستطع خلاف ذلك . فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطري لذلك ، ثم تذكرت قول الشيخ جلال الدين : انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك

ولما كانت السنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق (بكين) فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي ، فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها . فعجبت من ذلك وقبلتها

بيدى ، فقال لى : لم تفعل هذا وانت تعرفها ؟ فقلت له : نعم هى التى اخذها منى سلطان الخنسا ، فقال : هـذه الفرجية صنعها اخى جلال الدين برسمى ، وكتب الى ان الفرجية تصلك على يد فلان . ثم اخرج لى الكتاب فقرأته ، فعجبت من صدق يقين الشيخ ، واعلمته بأول الحكاية ، فقال لى : اخى جلال الدين اكبر من ذلك كله ، وقد انتقل الى رحمة الله . ثم قال لى : بلغنى انه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة، وكان يحج كل عام، لانه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد ! فلا يعرف اين ذهب »

شعوذة ساحر

حضر عند الامير قرطى ببلدة الخنسا (بالصين) فى احدى الليالى أحد المشعوذة ، فقال له : أرنا من عجائبك . قال ابن بطوطة : فأخذ كرة لها ثقب ، فيهاسيور طوال ، فرمى بها الى الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الابصار، ونحن فى وسط المجلس أيام الحر الشديد . فلما لم يبق من السير فى يده الا يسير أمر تلميذا له فتعلق به وصعد فى الهواء الى ان غاب عن ابصارنا ، فدعاه ثلاث مرات ، فلم يجبه ، فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ ، وتعلق بالسير الى ان غاب ايضا ، ثم رمى بيد الصبى الى الارض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الاخرى، ثم برجله الاخرى ، ثم بجسده، ثم برأسه . ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم ، فقبل الارض بين يدى الامير وكلمه بالصينى وامر له الامير بشىء . ثم انه اخذ اعضاء الصبى فألصق بعضها ببعض ، وركله برجله ، فقام سويا . فعجبت منه ، واصابنى من خفقان القلب ما كان اصابنى عند ملك الهند حين رايت مثل ذلك ، فسقونى دواء اذهب عنى ما وجدت . وكان بجانبى قاض مسـلم يسمى

فخر الدين فقال لى : والله ماكان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وانما ذلك شعوذة

وتمتلىء رحلة ابن بطوطة بحكايات عجيبة مثل هذه الحكاية والحكايات السابقة ، وكثير منها لايعقل. ولعل مرجع ذلك انه كان سريع التصديق لكل ما يقال له ، وكانت له عينان تكبران ما يبصره واذنان تضخمان مايسمعه ، فخرج بكثير مما قصه ورواه من باب الواقع المعقول الى باب الخيال والوهم

فهرس

فى عالم البحر

فى عالم البر

هذا الكتاب

هذا نوع جديد من الأقاصيص الرائعة ، هى أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، وعلى نمطها إلا أنها مكتوبة بأسلوب علمى .

وإذا كان كتاب ألف ليلة وليلة مستمدا من أصل فارسى ، فإن هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم من أصل عربى بحت، وضعه قصاصو العرب، ولعب فيه خيالهم الخصب دورا عظيما، فخرجت أساطير عجيبة، وأقاصيص رائعة .

وقد كان لكثير من الأمم طائفة من الأساطير، فلليونان أساطيرها وللهند أساطيرها ، وللفرس أساطيرها، وللفراعنة أساطيرها، ولقد ظلت هذه الأساطير من موردها ، ويفيدون منها وها هى ذى الأساطير العربية ، جمع شتاتها الدكتور شوقى ضيف وعلق عليها .

وستكشف هذه الأساطير العجيبة عن براعة العرب وسعة خيالهم فى تدوين قصصهم ، وقدرتهم العظيمة فى النسج القصصى البديع .

الثمن ١٢ جنيها